المجموعة الكاملة
لمؤلفات الدكتور

عبد الحليم محمود

شيخ الأزهر



دار الكتاب اللبناني - بيروت

مقدمة

في التصوف والحياة

المنقذ من الضلال

المجموعة الكاملة لمؤلفات
الدكتور عبد الحليم محمود

المنقذ من الضلال

دار الكتاب اللبناني - بيروت

دار الكتاب اللبناني
برقياً : كتالبان - بيروت
ص.ب : ٣١٧٦
بيروت - لبنان

الطبعة الاولى
١٩٧٩

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أفضل مخلـوق ، وخير مبعوث ، وعلى آله وأصحابه ، ومن اتبع هديه إلى يوم الدين .

قال تعالى :

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَـدَاةِ وَالْعَشِـيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ، وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا ، وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ، وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) .

(صدق الله العظيم)

«خاطرة» حول المنقذ من الضلال(*)

أخي الدكتور « عبد الحليم محمود » ، يعرف ـ فيما بين اخوة العشيرة ـ بكنية « أبو العارفين » وهي تعبير عن الصورة التي يعرفه عليها هذا المحيط الروحي ، في مجال المقبلين على الله ، من طلاب الحقائق ، والباحثين عن مشارق الأنوار ، وأسرار الغيوب .

والدكتور « عبد الحليم » يُعرف أيضاً فيما بيننا ـ نحن المحمديين ـ بأنه « غزالي مصر » في هذا العصر . . .

والواقع ، أن الدكتور « عبد الحليم » في ذاته « ظاهرة صوفية » غير مكررة ، بما يفيض به من القيم ، وما يفاض عليه من المواهب ، وما يفسح له الله تعالى من الوقت ، والمدد ، فيترقرق إنتاجه سلسلا عذباً ، مندفعاً في رقة ، رابياً متلاحقاً في قوة ، بين منطوق ، ومكتوب ، يتلاحق فيذكرنا بأعلام السلف الصالح ، ويطمئننا على مستقبل الربانية المقدسة ، ويعطي الناس مثلا حياً في كرامات الأولياء :

قارىء الدكتور « عبد الحليم » أو سامعه ، لا يحس الصنعة فيما يقرأ له ؛ أو يسمع منه ، ولكنه يحس القلب والعاطفة ، والعقل والايمان ، ويبصر الأدب والفضل ، والتواضع والثقة بلا حدود ، كل ذلك ينقدح في ومضات ،

(*) حيثما صدرت الطبعة الجديدة من هذا الكتاب ، تفضل بكتابة هذه (الخاطرة) الكاتب الكبير صاحب السلوك الصوفي المستنير ، وصاحب القلم الصوفي الملهم ، فضيلة الشيخ « محمد زكي إبراهيم » الرائد الموفق للعشيرة المحمدية ، جزاه الله خير الجزاء ، وشكر الله له جميل صنيعه .

ولمحات ، ولفتات ، وملاحظ وقواعد ، وأصول تهتز بالحياة ، وتنفعل بالعلم ، والأصالة والمعرفة ، والصلة بالله ، والغيرة على محارمه . ويحس المرء منها ابتغاء رضوان الله .

أما أنا فأقرأ له أو أسمعه كأنما أقرأ ما كتبته ، أو أسمع ما أتحدث به .

إن إخائي بالدكتور « عبد الحليم » من نوع فريد ، فقد نلتقي بعد غياب جسدي طويل ، فلا يحدث أحدنا الآخر ، بأكثر مما يحدث به زميله الذي لا يفارق ظله ظله ، وفي إيجاز قد يصل إلى الاقتضاب ، ثم يقنعنا هذا ، ويكفينا ، ونحصل منه على معان شتى ، وأغراض أكثر ، يضيق عنها النطق ، وتعيا بها العبارة ، وتظل قلوبنا تتناجى في حرارة ، وتتواصى في لهفة ، كما كانت قبل هذا اللقاء الجسماني ، ثم بما تحصله هذه القلوب نكتفي ونشتفي ، إلى أن تجمعنا الصدفة ، أو القصد مرة أخرى ، وعندها أعود فأحس كأننا لم نفترق ! !

أقول ذلك بمناسبة صدور الطبعة الجديدة من كتاب « المنقذ من الضلال للغزالي » بتقديم وتعليق وتحليل ، ودراسة الأخ الدكتور « عبد الحليم محمود » التي صدرت حديثاً ، والتي أضاف إليها الأستاذ كعادته في كل طبعة سابقة لهذا الكتاب أبواباً جديدة ، وألواناً مستحدثة دقيقة ، بعيدة العمق عريضة الهدف ، في أهم وأخطر المباحث الموصولة بالتصوف الاسلامي ، على المستوى الفكري الشرقي والغربي معاً ، حتى أصبح هذا الكتاب ثروة فكرية تمنحك زبداً نقياً ودسماً من العلم ، والمعرفة ، والتاريخ ، والتحقيق ، والاستدلال ، والايمان ، والاشراق ، وتعطيك التصوف الاسلامي في مثل ضوء الشمس بهاء ، ونقاء ، وسمواً وخلوداً .

رضي الله عن الأخ الدكتور « عبد الحليم محمود » ، وزاده مما يحب ويرضى ونفعني بحبه وإخائه فيه تعالى .

بسم الله الرحمن الرحيم

التصوف والحياة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين وبعد :

إن من الحقائق التي لا مرية فيها : أن الانسان لا يتأتى له أن يلج باب الله ، أو يسير في الطريق إليه ، إلا بالعبودية الخالصة لله وحده لا شريك له .

فإذا ما تمخضت العبودية لله سبحانه ، وأصبح الانسان من عباد الله المخلصين ، وحقق بذلك : (إياك نعبد ، وإياك نستعين) ـ فإن الله سبحانه لا يجعل للشيطان عليه من سبيل :

(إنَّ عبادي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سلطانٌ ، وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً)[1]

ويعترف إبليس بأنه عاجز عن أن يضل من حقق العبودية الصادقة لله سبحانه ، فيقول :

(فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أجمعينَ ، إلّا عِبادكَ مِنْهُمُ المُخْلَصِينَ)[2]

ويقول :

(رَبِّ بما أغْوَيْتَني لأزَيِّنَنَّ لَهُمْ في الأرضِ ، ولأُغْوِيَنَّهُمْ أجمعينَ إلّا عِبادكَ مِنْهُمُ المُخْلَصِين)[3] .

(١) الاسراء : ٦٥
(٢) ص : آية ٨٢ ، ٨٣
(٣) الحجر : ٣٩ ، ٤٠

وإذا ما حقق الانسان العبودية لله ، فإن الله يتولاه بالامداد بالمعرفة . . إنه سبحانه يقول عن موسى وفتاه :

(فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عبادِنا ، آتيناهُ رحمةً مِنْ عندِنا ، وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنّا عِلْما)[1]

إنه حقق العبودية ؛ فكان ثمرة ذلك أن يغمره الله بالرحمة ؛ وأن يفيض عليه العلم . .

وليست المعرفة وحدها هي ثمرة التحقق بالعبودية ، بل إن للتحقق بالعبودية ثماراً كثيرة سامية .

فأيوب عليه السلام ، يقول الله عنه :

(وَاذْكُرْ عَبْدَنا أيّوبَ ؛ إذْ نادى رَبَّهُ ، أني مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وعذابٍ . ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هذا مَغْتَسَلٌ باردٌ وشرابٌ . . وَوَهَبْنا لَهُ أهْلَهُ ، وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ ، رحمةً منّا وَذِكْرى لأولي الألباب . . وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فاضربْ بِهِ ولا تَحْنَثْ إنّا وَجَدْناهُ صابراً ، نِعْمَ العبدُ إنَّهُ أوّابٌ)[2]

ولقد حقق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم العبودية كاملة تامة .

لقد حققها في ذروتها ، فكانت صلاته ، وكانت نسكه ، وكانت حياته بأكملها ، وكان موته لله رب العالمين . . لا شريك له :

(قُلْ إنَّ صَلاتي وَنُسُكي وَمَحْيايَ وَمَماتي للهِ ربِّ العالمينَ ، لا شَريكَ لَهُ وبذلكَ أمِرْتُ ، وأنا أوّلُ المُسْلِمينَ)[3] .

لقد حققها موفورة تامة ، فآتاه الله عز الدنيا والآخرة . .

ومتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، واقتداء به ، سار الصوفية على الدرب . . يقول صاحب « عوارف المعارف » :

---

(١) الكهف : ٦٥

(٢) ص : آية ٤١ ـ ٤٤

(٣) الانعام : ١٦٢ : ١٦٣

« الصوفي : هو الذي يكون دائم التصفية ، لا يزال يصفي الأوقات عن شوب الأقدار ، بتصفية القلب عن شوائب النفس .·. ويعينه على هذه التصفية دوام افتقاره إلى مولاه . . فبدوام الافتقار ينقى من الكدر . . وكلما تحركت النفس ، وظهرت بصفة من صفاتها . أدركها ببصيرته النافذة وفرّ منها إلى ربه .

فبدوام تصفية جمعيته ، وبحركة نفسه تفرقته وكدره . . فهو قائم بربه على قلبه ، وقائم بقلبه على نفسه . . قال الله تعالى :

(كونوا قَوّامِينَ للهِ ، شُهَدَاءَ بالْقِسطِ)[1] .

وهذه القوامية لله على النفس ، هي التحقيق بالتصوف[2] .

ويقول في موضع آخر :

« والصوفي يضع الأشياء مواضعها ، ويدبر الأوقات والأحوال كلها بالعلم ، يقيم الخلق مقامهم ، ويقيم أمر الحق مقامه . . ويستر ما ينبغي أن يستر ، ويظهر ما ينبغي أن يظهر . . ويأتي بالأمور في مواضعها ، بحضور عقل ، وصحة توحيد ، وكمال معرفة ، ورعاية صدق وإخلاص »[3] .

لقد أخذ الصوفية أنفسهم بالتأسي بالرسول صلى الله عليه وسلم فيما دق من الأمور ، وما وضح منها . . وفي اليسير من أعمالهم ، والعظيم منها . . ومن أمثلة ذلك :

في الجهاد :

ولا يتأتى أن نذكر تاريخاً مفصلا لجهاد الصوفية الحربي ، ولكننا نكتفي هنا ببعض الأمثلة :

كان « شقيق البلخي » وهو من قمم الصوفية الشامخة ، يسارع إلى خوض المعارك لا يبالي على أيّ جنب كان في الله مصرعه . .

---

(١) المائدة : ٨

(٢) عوارف المعارف حـ ١ ص ٢٠٨ بتحقيقنا .

(٣) عوارف المعارف حـ ١ ص ٢٣٢ بتحقيقنا .

انظر إليه : خائضاً المعارك ، محارباً العدو ، مسلحاً بإيمانه ، وثقته في الله ، وعدته الحربية . . شاهراً سيفه ، فارسا بكل ما تتطلبه كلمة الفروسية من معنى ، هادئاً ، مطمئناً ، كامل الثقة في الله . .

ولقد وصلت ثقته بالله ، إلى حد أنه ـ وهو لا يرى إلا سيوفاً مصلتة ، ورقاباً تقطع ، ورؤوساً تتساقط ـ يقول لمن بجواره في هذا الجو : كيف ترى نفسك ؟ أترى نفسك في سعادة ، تشبه سعادتك في الليلة التي زفت فيها امرأتك إليك ؟

فأجابه الذي بجواره : لا . . والله . .

فقال « شقيق » : لكني والله . . أرى نفسي في هذا اليوم ، مثلها في الليلة التي زفت فيها امرأتي إليّ . .

لقد كان سعيداً بجهاده . . ومات شهيداً في معركة الشرف والبطولة ، في ساحة الحرب والجهاد .

وشخص آخر ـ هو من قمم الصوفية أيضاً ـ : إنه « حاتم الأصم » : كان يدخل المعارك ، ويخوضها في غير خوف ولا فزع ، وما كانت نفسه تطير شعاعاً من الأبطال . . وما كان يقول لها : لن تراعي . لقد كان كيانه كله في ثقة مطلقة بالله ـ وهذه الثقة تتمثل أجمل ما يكون التمثل ، حينما أخذوه أسيراً وطرحوه أرضاً ، وجثم العدو على صدره ليذبحه .

إنه يصف شعوره وهو في هذه الحالة فيقول :

لم يشتغل به قلبي ، بل كنت أنظر ماذا يحكم الله تعالى فيّ . . فبينما هو يطلب السكين التي يذبح بها ، أصابه سهم فقتله . . وقمت سليماً معافى . . . قام سليماً معافى ، ليعاود المعركة من جديد .

وإذا قفزنا في ساحة الزمن ، قفزة واسعة ، فوصلنا إلى معركة المنصورة ، فإننا نجد كبار المؤمنين ، وصفوة الصوفية في قلب المعركة .

لقد تركوا بيوتهم وأسرهم ، وهبوا مندفعين إلى المنصورة ؛ ليساهموا في النصر والاستشهاد في سبيل الله ، ولتكون الجنة تحت ظلال سيوفهم . ولقد

كان ـ وهذا له أهميته الخاصة ـ « أبـو الحسـن الشاذلـي » وهـو من صفـوة الصفوة الصوفية قد تجاوز الستين ، وكان قد كف بصره ، ومع ذلك فإنه ترك بيته ، وذهب إلى المنصورة ، مساهماً في المعركة بقدر استطاعته .

لقد كانت المعركة شغله بالنهـار ، وشغلـه بالليل ، لقـد كانـت تشغلـه مستيقظاً ، فيمر بسمته الوقور ، وبهيبته المستمدة من تقواه ، وبالنور يشرق من وجهه ، بين الجنود . . مشجعاً ، حاثّاً ، مبشراً بالنصر وبالجنة ، فإذا ما جنه الليل ، أخذ يبتهل إلى الله سبحانه وتعالى ، متضرعاً ، خاشعاً ، راجياً التوفيق والنصر ، للأمة الاسلامية .

وفي ليلة من الليالي ، رأى رسـول الله صلـى الله عليه وسلـم ـ في رؤيا طويلة وأصبح رضي الله عنه يبشر بالنصر .

ولـم تكن هذه هي الموقعة الأولى ، التي أسهم فيها « أبو الحسن الشاذلي » رضي الله عنه ـ ولـم تكن الأخيرة .

وإذا ما قفزنا مرة اخرى ـ في ساحة الزمن ـ ففـزة واسعـة ، فإننـا نلتقـي بالصوفي الشهير : « عبد القادر الجزائري » .

كان من كبـار الصـوفية ، ومـن كبـار القـادة في الحـرب . ولقـد حارب الاستعمار في الجزائر ، وفعل بإيمانه القويّ ، وصوفيته العميقة الأعاجيب ، في الشجاعة والاقدام .

ولقد بدأ الحرب بأفراد قلائل . سرى إيمانه وإقدامه فيهم ، فتمثلت فيهم الشجاعة في أسمى مظاهرها ، وأخذ عددهم يزداد ، شيئاً فشيئاً ، على مر الأيام .

أما أسلحتهم : فقد كانت ما يحصلون عليه من أسلحة العدو .

ولقد وجه الأمير « عبد القادر » النداء تلو النداء ، للأمة الاسلامية ، من أجل العون المالي ، والانساني ، ومن أجل العون في العتـاد . . فكانـت المساعدات التي قدمت إليه مخجلة ، يندى لها الجبين .

ولم تشعر الأمة الاسلامية ، بأنها أمة واحدة . . وكأنها لم تسمع ولم تقرأ

قول الله سبحانه وتعالى :

(إنَّ هذهِ أمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً ، وَأَنا رَبُّكُمْ فاعْبُدُونِ)[1] .

وقوله تعالى :

(وَإِنَّ هذهِ أمَّتُكُمْ أمَّةً واحِدَةً ، وأنا رَبُّكُمْ فاتَّقُونِ)[2]

إن الأمة الاسلامية لم تتجاوب معه تجاوب الاخوة ، وكأنها لا تشعر بقوله تعالى : (إنّما المؤمِنُونَ إخْوَةٌ)[3] .

ولا تحس بالاحساس الاسلاميّ .

« المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله »[4] .

« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً »[5] .

ترى المؤمنين في توادهم ، وتراحمهم كالجسد الواحد ، إذا اشتكى عضو ، تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » .

ولم يثن كل ذلك الأمير « عبد القادر » ، عن متابعة الحرب ، والكفاح ضد المستعمر ، وحينما أسر ، كرمه الأعداء أنفسهم ، لشجاعته وشهامته ومروءته ؛ ولما حالت الظروف القاهرة بينه وبين الجهاد والتضحية الحربية ـ وذلك بعد الأسر ـ مكث في « دمشق » يدرس التصوف ، متخذاً « الفتوحات المكّية » كتابه المفضل في الشرح والتفسير . .

ولقد طبع هذه الفتوحات . . وفي أثناء إقامته بدمشق ألف كتاب « المواقف » . . وهو كتاب في التصوف عريق ، بين فيه وجهة النظر الصوفية ، في مختلف الموضوعات .

---

(١) الأنبياء : ٩٢ .
(٢) المؤمنون : ٥٢ .
(٣) الحجرات : ١٠ .
(٤) مسلم .
(٥) البخاري .

في التزام الشريعة :

أما فيما يتعلق بالتزام الشريعة ، فإننا نبتدىء بذكر كلمةٍ « للامام ، الكامل الفقيه ، الأصولي ، المفسر ، الاسفراييني » . صاحب كتاب : « التبصير في الدين » . . وهو من أئمة أهل السنة ، المعنيين أشد عناية بالرد على كل من يخالف مذهب أهل السنة .

إنه يذكر ما يمتاز به أهل السنة ، عن غيرهم من الخوارج ، والروافض ، والقدرية . . فيذكر أن سادس ما امتاز به أهل السنة هو :

علم التصوف والاشارات ، وما لهم فيها من الدقائق والحقائق ، لم يكن قط لأحد من « أهل البدعة » فيه حظ . . بل كانوا محرومين مما فيه : من الراحة والحلاوة ، والسكينةِ والطمأنينة .

وقد ذكر « أبو عبد الرحمن السلميّ » من مشايخهم ما يقرب من ألف ، وجمع إشاراتهم وأحاديثهم . . ولم يوجد في جملتهم قط من ينسب الى شيء من بدع « القدرية ، والروافض ، والخوارج » :

وكيف يتصور فيهم من هؤلاء ، وكلامهم يدور على التسليم والتفويض ، والتبري من النفس ، والتوحيد بالخلق والمشيئة .

وأهل البدع ينسبون الفعل ، والمشيئة ، والخلق والتقدير ، إلى أنفسهم ، وذلك بمعزل عما عليه أهل الحقائق من التسليم والتوحيد » .

بعد هذا نبدأ في النظر إلى طريق التصوف ، وصلته بالشريعة :

يقول الامام « الغزالي » :

إن الطريق إلى ذلك إنما هو : تقديم المجاهدة ، أو محو الصفات المذمومة ، وقطع العلائق كلها ، والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى . . ومهما حصل ذلك ، كان الله هو المتولي لقلب عبده ، والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم .

وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة ، وأشرق النور في القلب ، وانشرح الصدر ، وانكشف له سر الملكوت ، وانقشع عن وجه القلب

حجاب الغرة ، بلطف الرحمة ، وتلألأت فيه حقائق الأمور الالهية ، فليس على العبد إلا الاستعداد ، بالتصفية المجردة ، وإحضار الهمة ، مع الارادة الصادقة ، والتعطش التام ، والترصد بدوام الانتظار ، لما يفتحه الله تعالى من الرحمة » .

وعن هذا الطريق ، يقول « ابن خلدون » .

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم على مثل هذه المجاهدة ، وكان حظهم من هذه الكرامات أوفر الحظوظ ، لكنهم لم يقع لهم بها عناية .

وفي فضائل « أبي بكر » ، « وعمر » ، « وعثمان » ، « وعلي » ، رضي عنهم كثير منها ، وتبعهم في ذلك أهل الطريقة ، ممن اشتملت رسالة « القشيري » « على ذكرهم ، ومن تبع طريقتهم من بعدهم » .

هذا فيما يتعلق بالطريق . .

أما فيما يتعلق بالموضوع ، والشعور ، والأحوال فإن الصوفية ـ على وجه العموم ـ نبهوا في صور حاسمة إلى وجوب التزام الشريعة ، يقول « أبو الحسن الشاذلي » رضي الله عنه :

« من دعا إلى الله تعالى ، بغير ما دعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو بدعيّ » .

ويقول :

« إذا لم يواظب الفقير على حضور الصلوات الخمس في الجماعة ، فلا تعبأ به » .

ومن أجمل كلماته في هذا ، قوله :

« ما ثم كرامة أعظم من كرامة الايمان ، ومتابعة السنة . . فمن أعطيهما ، وجعل يشتاق إلى غيرهما ، فهو عبد مفتر كذاب ، أو ذو خطأ في العلم والعمل بالصواب . كمن أكرم بشهود الملك على نعت الرضا ، فجعل يشتاق إلى سياسة الدواب ، وخلع الرضا » .

وكل الصوفية ينهجون هذا النهج . ومن هؤلاء مثلا : « أبو يزيد

البسطامي » الذي يقول في قوة حاسمة ، وفي منطق صادق .

« لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات ، حتى يرتقي في الهواء ، فلا تغتروا به ، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي ، وحفظ الحدود ، وأداء الشريعة » .

ولقد تحدث الامام « الجنيد » أكثر من مرة ، فيما يتعلق بالصلة بين التصوف والشريعة . ومما قاله في ذلك :

الطرق كلها مسدودة على الخلق ، إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ . واتبع سنته ، ولزم طريقته » .

وقال أيضاً :

« من لم يحفظ القرآن ، ولم يكتب الحديث ، لا يقتدى به في هذا الأمر ؛ لأن علمنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة » .

ولقد كان الامام « الغزالي » ، في سلوكه ، وفي قوله ، وفي حياته الخاصة والعامة يلتزم الشريعة ، ويقول : إن المحققين قالوا :

« لو رأيت إنساناً يطير في الهواء ، ويمشي على الماء ، وهو يتعاطى أمراً يخالف الشرع ، فاعلم أنه شيطان » .

والواقع : أن المثل الأعلى للصوفية على بكرة أبيهم ، إنما هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم يحاولون ـ باستمرار ـ أن ينهجوا نهجه ، وأن يسيروا على منواله ؛ فهو إمامهم الأسمى في كل ما يأتون ، وما يدعون وهم يتابعونه مهتدين في ذلك بقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ لَقَدْ كانَ لَكُم في رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ، لِمَنْ كانَ يَرْجُو الله واليومَ الآخِرَ ، وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً ﴾ .

وبعد : فقد تبينا مما سبق أن الطريق إلى الله هو التحقق بالعبودية ، وقد سار الصوفية في هذا الطريق ، فأثمر لهم ثماراً سامية كثيرة :

منها الجهاد .

ومنها التزام الشريعة .
وماذا بعد ذلك ؟

أما عن الصوفية والعلم : فإن الصوفية يمثلون العلم الاسلامي في قمته ، في جميع فروعه : في الفقه ، وفي التفسير ، وفي الحديث ، وفي الأخلاق . . .

وإذا أردنا أن نتحدث عن القمة العلمية الشامخة ، التي لا تضارع فيما اجتمع لديها من علوم مدروسة ، مرواة محكمة ، فيها الاتقان ، والاستنتاج المتبصر ، والتبصر المتابع ، والاتباع الواعي ، أعني شخصية الشيخ الأكبر « محي الدين » فإن الحديث عنها يستغرق مجلدات .

وإن مقارنات مؤرخي الفكر ، بين الشيخ الأكبر وغيره من الغربيين والشرقيين ، تصعد به إلى القمة .

والشيخ الأكبر يذكر دائماً بحجة الاسلام « الغزالي » الذي جمع في إحيائه ، أربعين كتاباً ، كل منها له استقلاله ، وله ذاتيته ، وألف منها ـ في إحكام محكم ـ كتابه « إحياء علوم الدين » .

ولقد انهار تحت قلمه في سهولة ويسر ، عباقرة الفكر الفلسفي ، فتهافتوا ، وانهاروا ، وأتى عليهم كتابه النفيس « تهافت الفلاسفة » .

وأخمد حجة الاسلام بدعة الفلسفة ، وعبث الفلسفة في الشرق الاسلامي .
وللامام « الغزالي » أكثر من ثمانين كتاباً ورسالة ، في الأصول ، والفقه ، والتوحيد ، والفلسفة ، والتصوف .

ولا تزال كتبه تقرأ وتتداول عليها دائماً طابع النضرة : طابع الخلود .
والصورة الجميلة في الصوفية ـ في الأغلب الأعم ـ هي صورة « الجنيد » .
لقد كان الكتاب « اللغويون والأدباء » يحضرون مجلسه ؛ لألفاظه .
والفقهاء ؛ لتقريره .
والفلاسفة ، لدقة نظره ومعانيه .

والمتكلمون ، لتحقيقه .
والصوفية ، لاشاراته وحقائقه .
يقول صاحب « الرسالة القشيرية » عنه :

وكان فقيهاً على مذهب « أبي ثور » وكان يفتي في حلقته بحضرته ، وهو ابن عشرين سنة .

ويروي صاحب « الرسالة القشيرية » عن « أبي الحسين عليّ بن إبراهيم الحداد » ، يقول : حضرت مجلس القاضي « أبي العباس بن شريح » ، فتكلم في الفروع ، والأصول ، بكلام حسن ، عجبت منه ، فلما رأى اعجابي ، قال : أتدري من أين هذا ؟

قلت : يقول به القاضي .
فقال : هذا ببركة مجالسة « أبي القاسم الجنيد » .

وإذا ذكر « الجنيد » ذكر أستاذه : « الحارث المحاسبي » . وقد كان « الحارث » مثقفاً في الدين والعربية ، كأحسن ما يكون المثقف ، لقد كان فقيهاً ، وكان محدثاً ، وكان متكلماً ، وكان عالماً في الأخلاق ، وكان صوفياً ، ولقد دخل ـ في قوة ـ كل المشاكل التي وجدت في عصره ، باحثاً ، مرشداً ، مجادلا هادياً إلى الحق ، والحق في نظره هو ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه .

وألف « المحاسبي » الكثير من الكتب ، في شتى مجالات العلوم .
وليأخذ الانسان أي صوفي من هؤلاء الذين ذكرهم « السلمي » في « طبقاته » ، أو الذين ذكرهم « القشيري » في « رسالته » ، أو الذين تحدث عنهم صاحب « الحلية » فسيجد أنهم قوم اتخذوا من العلم عبادة ، وعكفوا على دراسته تقرباً إلى الله سبحانه .

وما كان علم الكتب هو غايتهم الأخيرة ، وإنما مع علم الكتب ، كان طموحهم إلى العلم الوهبي : العلم الذي يمنحه الله لبعض عباده ، العلم الذي سافر « موسى » عليه السلام سفرة شاقة مجهدة ، ليلتقي في نهايتها مع عبد من عباد الله تعالى ، علمه الله من لدنه علماً . يقول سبحانه عن « موسى » وفتاه .

(فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عبادِنا ، آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا ، وَعَلَّمناهُ مِنْ لَدُنّا عِلْماً) .

وهو علم يمنحه الله لمن حقق له العبودية .

ولأن هذا العلم ـ وهو مطمحهم الأخير ـ لا يتأتى إلا بإخلاص العبودية لله ، ولأن إخلاص العبودية لله لا يتأتى إلا بأن يكون الاستغراق في العمل : صلاة وذكراً وصياماً . . . من الأسس الجوهرية في حياة الانسان ؛ فإنهم اتجهوا في صورة موفقة إلى العمل ، لقد أخذوا الكتاب بقوة ، وكانوا أتقياء . فأفاض الله عليهم من إلهاماته ، واتسم ما دوّنوه بطابع الروحانية ، واتسم بالنضرة ، وكان طابعه أن يزكو على مر الزمن .

والصورة الحية المثالية لثمار إلهاماتهم هي كتاب « إحياء علوم الدين » لحجة الاسلام وكتاب « الحكم » لابن عطاء الله :

ولقد كان لكتبهم الأثر الكبير الواضح في الهداية على مر العصور .

* * *

وقد يتساءل قوم : وماذا عن العمل ، والضرب في الأرض ، واكتساب الرزق ؟ :

وأبتدىء في هذا الموضوع بذكر بعض ألقاب الصوفية :

القصار ، الورّاق ، الخرّاز ، الخوّاص ، البزّاز ، الحلاج ، الزجاجي ، الحصري ، الصيرفي ، المقرىء ، الفرّاء :

وهذه ألقاب مأخوذة من مهن كانت لهم .

ولقد كان الصوفية كغيرهم ، منهم الفقير ، ومنهم الغني ، ومنهم العازف عن الثراء العريض ، ومنهم أصحاب الثروات الضخمة ، التي يؤدون فيها حق الله ، وينفقون منها في سبيله ؛ إنهم يؤتون حق المال يوم حصاده :

و (في أمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ، للسّائلِ ، وَالْمَحْرُومِ) .

وهذا مثلا « أبو الحسن الشاذلي » رضي الله عنه ، وهو من صفوة الصفوة الصوفية ، كانت له مزارع .

ونقول « مزارع » بالجمع ، لنتابع في هذا التعبير حديث المؤرخين عنه ، وكان له حصاد ، ودراس . . وكانت له ثيران . . وكان يتاجر . .

ومن دعائه المشهور :

« اللهم وسع علي رزقي في دنياي ، ولا تحجبني بها عن أخراي » .

ومن دعائه بشأن الدنيا :

« اللهم اجعلها في أيدينا ، ولا تجعلها في قلوبنا » .

والفرق بين الصوفية وغيرهم في هذا : هو أن الدنيا لا تستعبدهم : وإنما تستعبد غيرهم .

إنهم لا يلقون بقيادهم إلا لله سبحانه وتعالى ، فلا يلقون بقيادهم إلى مال أو جاه ، أو منصب أو رياسة ، أو غير ذلك مما يذل له أهل الدنيا ، وأهل الأهواء ، الذين يتخذون دنياهم ، وأهواءهم آلهة يعبدونها من دون الله . .

إنهم أغنياء أو فقراء تحققوا بقوله تعالى :

(لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى ما فاتَكُمْ ، وَلا تَفْرَحُوا بما آتاكُمْ) .

و« ابن عطاء الله السكندري » يقص في كتابه الجميل : « لطائف المنن » . قصة ثريّ صوفي تحقق بالآية القرآنية الكريمة ، فلم يمنعه ثراؤه الضخم العريض أن يكون صوفياً .

يقول « ابن عطاء الله » :

« قال بعض المشايخ : كان رجل بالمغرب من الزاهدين في الدنيا ، ومن أهل الجد والاجتهاد ، وكان عيشه مما يصيده من البحر ، وكان الذي يصيده يتصدق ببعضه ، ويتقوت ببعضه ، فأراد بعض أصحاب هذا الشيخ أن يسافر إلى بلد من بلاد المغرب ، فقال له هذا الشيخ :

إذا دخلت إلى بلد كذا ، فاذهب إلى أخي فلان ، فأقرئه مني السلام ، وتطلب الدعاء منه لي ، فإنه ولي من أولياء الله تعالى .

قال : فسافرت ، حتى قدمت تلك البلدة ، فسألت عن ذلك الرجل ،

فدللت على دار لا تصلح إلا للملوك ، فتعجبت من ذلك ، وطلبته فقيل لي : هو عند السلطان ، فازداد تعجبي ، وبعد ساعة ، وإذا هو آت في أفخر ملبس ومركب ، وكأنما هو ملك في موكبه .

قال : فازداد تعجبي أكثر من الأول .

قال : فهممت بالرجوع وعدم الاجتماع به ، ثم قلت : لا يمكنني مخالفة الشيخ .

فاستأذنت ، فأذن لي ، فلما دخلت رأيت ما هالني من العبيد ، والخدم ، والشارة الحسنة ، فقلتُ له :

أخوك فلان يسلم عليك .

قال : جئت من عنده ؟

قلت : نعم .

قال : إذا رجعت إليه قل له :

إلى كم اشتغالك بالدنيا ؟ وإلى كم إقبالك عليها ؟ وإلى متى لا تنقطع رغبتك فيها ؟

فقلت : هذا والله أعجب من الأول ، فلما رجعت إلى الشيخ ، قال :

اجتمعت بأخي فلان ؟

قلت : نعم .

قال : فما الذي قال لك ؟

فلت : لا شيء .

فال : لا بد أن تقول لي ؟

فأعدت عليه ما قال ، فبكى طويلا وقال :

صدق أخي فلان ، هو غسل الله قلبه من الدنيا وجعلها في يده ، وعلى ظاهره ، وأنا أخذها من يدي ، وعندي إليها بقايا التطلع » ا هـ .

وفي نهاية هذه الكلمة نورد صورة لشخصية صوفية متكاملة ، وإن كانت مشهورة ، نوردها عن « الطبقات الكبرى » « للشعراني » في اختصار :

يقول الامام « الشعراني » ـ عن هذه الشخصية الصوفية ـ رضي الله عنه :

« ومنهم شيخنا وقدوتنا إلى الله تعالى : الامام الصالح الورع الزاهد « شمس الدين الديروطي » ، ثم « الدمياطي » الواعظ .

كان في الجامع الأزهر أيام السلطان « قانصوه الغوري » ، وكان رضي الله عنه مهاباً عند الملوك ، والأمراء ، ومن دونهم ، زاهداً ورعاً ، مجاهداً ، صائماً قائماً ، آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر . وقد حضرت مجلس وعظه في الجامع الأزهر مرات ، فرأيته مجلساً تفيض فيه العيون ، وكان إذا تكلم أنصتوا بأجمعهم ، وكان يحضرها أكابر الدولة ، وأمراء الألوف فكان كل واحد يقوم من مجلسه ، متخشعاً ، صغيراً ، ذليلا ، رضي الله عنه . . وكان إذا مرّ في شوارع مصر ، يتزاحم الناس على رؤيته ، وكان من لم يحصل ثوبه ، رمى بردائه من بعيد على ثيابه ، ثم يأخذ رداءه فيمسح به على وجهه ؛ رضي الله عنه .

حط مرة على السلطان « الغوري » في ترك الجهاد ، فأرسل السلطان خلفه ، فلما وصل إلى مجلسه ، قال للسلطان : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ـ فلم يرد عليه ـ فقال : إن لم ترد السلام فسقت وعزلت . فقال : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، ثم قال :

علام تحط علينا بين الناس في ترك الجهاد ، وليس لنا مراكب نجاهد فيها ؟ فقال : عندك المال الذي تعمر به . فطال بينهما الكلام ، فقال الشيخ للسلطان :

« قد نسيت نعم الله عليك ، وقابلتها بالعصيان ـ أما تذكر حين كنت نصرانياً ثم أسروك ، وباعوك ، من يد إلى يد ، ثم من الله عليك بالحرية والاسلام ، ورقاك إلى أن صرت سلطاناً على الخلق ؟ وعن قريب يأتيك المرض الذي لا ينجح فيه طب ، ثم تموت وتكفن ، ويحفرون لك قبراً مظلماً ، ثم يدس أنفك هذا في التراب ، ثم تبعث عريان عطشان جوعان ثم توقف بين يدي الحكم العدل ، الذي لا يظلم مثقال ذرة ، ثم ينادي المنادى :

من كان له حق أو مظلمة على « الغوري » فليحضر ، فيحضر خلائق لا يعلم عدتها إلا الله تعالى ، فتغير وجه السلطان من كلامه ، فقال كاتب السر

وجماعة السلطان : الفاتحة يا سيدي الشيخ ، خوفاً على السلطان أن يختل عقله ؛ فلما ولى الشيخ ، وأفاق السلطان ، فال : ائتوني بالشيخ ، فعرض عليه عشرة آلاف دينار يستعين بها على بناء البرج الذي في دمياط ، فردها عليه وقال : أنا رجل ذو مال لا أحتاج إلى مساعدة أحد ، ولكن إن كنت أنت محتاجاً أقرضتك ، وصبرت عليك ؛ فما رؤي أعز من الشيخ في ذلك المجلس ، ولا أذل من السلطان فيه .

هكذا كان العلماء العاملون ؛ وفد صرف على عمارة البرج بدمياط نحو أربعين ألف دينار ؛ ولم يساعده فيها أحد ؛ إنما كان يعقد الأشربة .

ويتاجر « في الخيار شنبر » ونحوه ؛ رضي الله عنه ولم يأخذ فط معلوم وظيفة من وظائف الفقهاء ؛ وكان ينفر طلبته من أكل أوفاف الناس ؛ وفبول صدقاتهم ؛ ويخبرهم أنها تسود وجه فلوبهم ؛ رضي الله عنه . وله مصنفات منها : « شرح منهاج النووي » في الفقه ؛ وشرح « الستين مسألة » ؛ وكتاب « القاموس » في الفقه ؛ وشرح « فطعة من الارشاد » « لابن المقري » رضي الله عنه . وكان متواضعاً مع من فرأ عليهم القرآن وهو صغير ؛ ولم يصده ما وصل إليه من العلوم ، والمعارف ، والشهرة ، عن ذلك ، ولقد رأيته مرة راكباً فنزل ، وفبل يد أعمى تقوده ابنته ، فقلت له : من هذا ؟ فقال : هذا أقرأني وأنا صغير حزبين من القرآن ؛ رضي الله عنه ، فما أفدر قط أن أمر عليه وأنا راكب .

توفي رضي الله عنه في ربيع الأول سنة إحدى وعشرين وتسعمائة ، وله من العمر نيف وخمسون سنة ؛ رضي الله عنه ، ودفن بزاويته بدمياط ودفن عنده الأخ العزيز العارف بالله تعالى سيدي « أبو العباس الحريثي » رضي الله عنه .

وبعد : فلعلنا بذلك فد أزلنا بعض الشبه التي تحوم حول الصوفية بسبب الجهل بهم والله الهادي إلى الصواب . ومن يعتصم بالله فقد هدي الى صراط مستقيم .

القسم الأول

الإمام الغزالي

حياته

كتبه

تحليل كتب الإحياء

نصوص تشرح منهجه

- ١ -

حياته :

هو : « أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي » . ولد « بطوس » : من إقليم « خراسان » عام ٤٥٠ هـ الموافق عام ١٠٥٨م .

وكان والده ـ كما يقول « السبكي » في طبقاته ـ يغزل الصوف ، ويبيعه في دكانه بطوس ، فلما حضرته الوفاة ، أوصى به وبأخيه : « أحمد » ، إلى صديق له متصوف ، وأعطاه ما ادخره من مال يسير ، قائلا :.

« إن لي لتأسفاً عظيماً على عدم تعلم الخط ، واشتهي استدراك ما فاتني ، في ولديّ هذين » .

وأشرف عليهما الوصيّ الصالح ، وعلمهما الخط ، وأدبهما ، إلى أن فني ذلك النزر اليسير ، الذي كان قد خلفه لهما أبوهما ، وتعذر على الصوفيّ القيام بقوتهما ، فقال لهما :

اعلما أني قد أنفقت عليكما ما كان لكما ، وأنا رجل من أهل التجريد ، بحيث لا مال لي فأواسيكما به ، وأصلح ما أرى لكما أن تلجآ إلى مدرسة ، فإنكما من طلبة العلم ، فيحصل لكما قوت ، يعينكما على وقتكما ، ففعلا ذلك ، وكان هو السبب في سعادتهما ، وعلو درجتهما .

وكان « الغزالي » يحكي هذا ، ويقول :
طلبنا العلم لغير الله ، فأبى أن يكون إلا لله[1]

وفي عهد الصبا في « طوس » ، أخذ طرفاً من الفقه ، على « أحمد

(١) من كتاب « إتحاف السادة المتقين » بشرح « أسرار إحياء علوم الدين » ، للعلامة « محمد بن محمد الحسيني الزبيدي » .

الراذكاني » ، ثم سافر إلى « جرجان » ، ليأخذ عن الامام « أبي نصر الاسماعيلي ، فسمع منه ، وكتب عنه ، ثم عاد إلى « طوس » ، فمكث بها ثلاث سنين ، يتأمل ويتدبر ، ويحفظ ما حصله « بجرجان » .

وبعد ذلك ، قدم « نيسابور » ولازم إمام الحرمين ، حتى برع في المذهب[1] . والخلاف ، والجدل ، والأصلين[2] ، والمنطق ، وقرأ الحكمة ، والفلسفة ، وأحكم كل ذلك ، وفهم كلام أرباب هذه العلوم ، وتصدى للرد على مبطليهم وإبطال دعاواهم . . . »[3] .

وكان إمام الحرمين يصفه بأنه : « بحر مغرق » .

ولما انتهت الحياة بإمام الحرمين (عام ٤٧٨ هـ ـ ١٠٠٥ م) خرج « الغزالي » إلى العسكر ، قاصداً الوزير : « نظام الملك » ، « إذ كان مجلسه مجلس أهل العلم ، ومحط رحالهم ،فناظر الأئمة العلماء في مجلسه ، وقهر الخصوم ، وظهر كلامه عليهم ، واعترفوا بفضله ، فتلقاه الصاحب بالتعظيم ، وطار اسمه في الآفاق ، واشتهر في الأقطار » .

ولما أصبح بهذه المثابة ، اختاره نظام الملك للتوجه إلى بغداد ، وذلك للتدريس بالمدرسة النظامية بها ، فقدمها في سنة أربع وثمانين وأربعمائة ، وقد بلغ الرابعة والثلاثين من عمره المبارك ، واستقبل في بغداد ، استقبالا حافلا ، فقد سبقته شهرته إليها .

وفي بغداد نال من الاحترام ، ما يشبه التقديس . لقد غلبت حشمته الأمراء والملوك والوزراء ، على حد تعبير « السبكي » وصار ـ على حد تعبير أحد معاصريه ، وهو « عبد الغافر الفارسي » ـ بعد إمامة خراسان ، إمام العراق » .

---

(١) مذهب الشافعي رضي الله عنه

(٢) يعني أصول الدين وأصول الفقه .

(٣) شرح إحياء علوم الدين للزبيدي .

(٢)

ثم ماذا ؟

ها هو ذا ؛ قد بلغ قمة المجد ، وأتته الدنيا خاضعة ذليلة : أتته من جانبها المالي .

وأتته من جانبها الذي يتصل بالشهرة ، وذيوع الاسم .

وأتته من جانبها الذي يتصل بالجاه والنفوذ ، حتى إنه ليذكر أن من قرب من الولاة :

« كان يشاهد إلحاحهم في التعلق بي والانكباب عليّ ، وإعراضي عنهم وعن الالتفات إلى قولهم[1] » .

واستمتع الامام بكل ذلك فترة ، لعلها لم تكن طويلة الأمد . . .

ثم ماذا ؟

ثم كانت انتفاضته العارمة التي انتزعته قسراً وفي عنف ، من وسط النعيم والأبهة والمجد . . . إلى حيث الانزواء والعزلة . لقد كان ينعم في الترف الدنيوي ، وها هو ذا الآن ذاهب إلى الله . لقد كان يرفل في رياض من النعيم المادي ، وها هو ذا الآن فار إلى ربه ، ومهاجر إليه .

ماذا حدث ؟

هل حدث هذا الانقلاب الكلي فجأة ودون مقدمات ؟

لا شك أن ذلك لم يكن انتفاضة فجائية ، كانتفاضة سيدنا « عمر بن الخطاب » التي اقتلعت ـ في دقائق ـ جذور الشرك من أعماقه ، وغرست ـ في دقائق ـ أصول التوحيد في سويداء فؤاده ، فآمن في لحظة وأناب :

لقد كان الامام « الغزالي » ، طيلة حياته طلعة ، يجري وراء المجهول ، وكان كما يقول عن نفسه :

« ولم أزل في عنفوان شبابي ـ منذ راهقت البلوغ ، قبل بلوغ العشرين إلى

---

(١) المنقذ من الضلال

الآن ، وقد أناف السن على الخمسين ـ أقتحم لجة هذا البحر العميق[1] ، وأخوض غمرته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحذور ، وأتوغل في كل مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة ، وأتقحم على كل ورطة ، وأتفحص عن عقيدة ، كل فرقة ، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميز بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع .

لا أغادر باطنياً إلا وأحب أن أطلع على باطنيته .
ولا ظاهرياً إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته .
ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته .
ولا متكلماً إلا واجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته .
ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على سر صفوته .
ولا متعبداً إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته .
ولا زنديقاً معطلا إلا واتحسس وراءه للتنبه ، لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته » .

ويقول أيضاً :

« قد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور : دأبي وديدني ـ من أول أمري وريعان عمري ـ غريزة ، وفطرة من الله ، وضعتا في جبلتي ، لا باختياري وحيلتي ، حتى انحلت عني رابطة التقليد ، وانكسرت على العقائد الموروثة ، على قرب عهد من الصبا » .

ومن أجل ذلك يقول عنه « دي بور » .

« وقد وهب هذا الفتى عقلا متوثباً ، قويّ الخيال ، لا يرضى بأيّ قيد يغله » .

ولكن هذا النهم في البحث ، وهذا الاستقصاء في الدراسة ، وهذه العقلية الجريئة النافذة ، كل ذلك : انتهى به الى الشك ، في ما يرى ، ويسمع ، ويقرأ وفي ما يقول ويعتقد .

وكان هذا الشك عنيفاً ، حاداً ، شاملا ، عاماً ، طيلة شهرين هو فيهما :

---

(١) يقصد بحر المعرفة .

« على مذهب السفسطة ، بحكم الحال ، لا بحكم النطق والمقال » .

ولكن هذا الشك المطلق الشامل العام تبخر وزال ، لا بنظم دليل ، وترتيب كلام ، « بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر » .

(٣)

زال ذلك الشك ، ليحل محله شك آخر ، هين سهل . وهذا الشك الثاني إنما هو شك في طريق النجاة ، إنه الآن يؤمن بالله وبالرسالة وبالبعث ولكن ما هي الكيفية التي يتكيف بها الايمان ، فيما يتعلق بهذه الجوانب الثلاثة ؟

هذه الكيفية ، إذا وضحت : تحدد النهج الذي يجب أن يسير عليه .

ودراسته المستفيضة : بينت له أن كل فريق من الباحثين ـ عل كثرتهم واختلافهم ـ « يزعم أنه الناجي ، وكل حزب بما لديهم فرحون » .

أيّ هذه الأحزاب محق ، وأيّها مبطل ؟

ذلك هو : ما أخذ الامام « الغزالي » نفسه باستكشافه .

ورأى أن أوضح طريق وأسهله ، أن يحصر أصناف الطالبين للحق ، ويدرسهم صنفاً ، صنفاً ، أو فرقة ، فرقة .

وانحصرت الفرق عنده في أربع :

١ ـ « المتكلمون : وهم يدعون : أنهم أهل الرأي والنظر .

٢ ـ « الباطنية : وهم يزعمون : أنهم أصحاب التعليم ، والمخصوصون بالاقتباس من الامام المعصوم .

٣ ـ « الفلاسفة : وهم يزعمون ، أنهم أهل المنطق والبرهان .

٤ ـ « الصوفية : وهم يدعون أنهم خواص الحضرة ، وأهل المشاهدة والمكاشفة » أ . هـ .

هؤلاء هم السالكون سبل طلب الحق ، والحق إذن ؛ لا يعدو هذه الأصناف الأربعة .

وشمر الامام « الغزالي » عن ساعد الجد ، لدراستها ، وابتدأ بعلم الكلام ، فوجده لا يشفي غلته ، ذلك أن أكثر خوض المتكلمين إنما هو :

« في استخراج مناقضات الخصوم ، ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم ، وهذا قليل النفع في حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئاً أصلا » .

وثنى بدراسة الفلسفة ، وأطلعه الله على منتهى علوم الفلاسفة في أقل من سنتين ، ثم أخذ يفكر فيما انتهى إليه قريباً من سنة ، يعاوده ، ويردده ، ويتفقد غوائله ، وأغواره ، حتى اطلع على ما فيه من خداع وتلبيس ، وتخيل . فرأى أن مجموع ما صح ينحصر في ثلاثة أقسام :

١ ـ قسم يجب التكفير به .
٢ ـ وقسم يجب التبديع به .
٣ ـ وقسم لا يجب إنكاره أصلا .

أما هذا الذي لا يجب إنكاره فمثل :

١ ـ العلوم الرياضية .
٢ ـ المنطقيات .
٣ ـ العلوم السياسية .
٤ ـ العلوم الخلقية .
٥ ـ « أما الطبيعيات : فلا إنكار فيها إلا في مسائل معينة ، ذكرتها في كتاب « تهافت الفلاسفة » وأكثر أغاليطهم إنما هي في :
٦ ـ الالهيات .

ومجموع ما غلطوا فيه : يرجع إلى عشرين أصلا ، يجب تكفيرهم في ثلاثة منها ، وتبديعهم في سبعة عشر » .

وانصرف الامام الغزالي عن الفلسفة ، لأن العقل :
« ليس مستقلا بالاحاطة بجميع المطالب ، ولا كاشفاً للغطاء عن جميع المعضلات » .

فأخذ يدرس مذهب التعليمية ، وهو مذهب يقوم على القول بـ « الحاجة إلى التعليم والمعلم » وأنه : « لا يصلح كل معلم ، بل لا بد من معلم معصوم » .

وقد نقد الامام « الغزالي » مذاهبهم في قوة ، وفي عنف ، وألف كثيراً من

الكتب في الرد عليهم .

ولما انتهى من كل ذلك ، أقبل جهده على طريق الصوفية .

وطريق الصوفية : علم وعمل ، وابتدأ بتحصيل علمهم . من مطالعة كتب أئمتهم ، مثل « قوت القلوب » ، « لأبي طالب المكي » ، رحمه الله . وكتب « الحارث المحاسبي » ، والمتفرقات المأثورة عن « الجنيد » ، « والشبلي » ، « وأبي يزيد البسطامي » ، قدس الله أرواحهم ، وغير ذلك من كلام مشايخهم » أ. هـ .

ولكن طريق الصوفية : لا يتم بالعلم فحسب ، بل إن العلم فيه : أقل جانب من جوانبه ، أما الجانب الذي يصل بالانسان إلى النور ، والاشراق ، واليقين ، إنما هو الجانب العملي ، وهذا النوع يحتاج إلى الاقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، وذلك يقتضي الاعراض عن المال والجاه ؛ والشهرة وذيوع الصيت ، ويقتضي الخلوة فترة تطول ، أو تقصر ، يتفرغ فيها الانسان تفرغاً كاملا إلى الله فاراً مهاجراً إليه .

وكان الامام « الغزالي » : إذ ذاك منغمساً في المال ، والجاه ، والشهرة . وبدأ الصراع في نفسه بين الشهوات والدنيا من جانب ، وبين التجافي عن دار الغرور ، والانابة إلى دار الخلود من جانب آخر .

ولم يزل يتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ، ودواعي الآخرة قريباً من ستة أشهر ، سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، وانتهى الأمر في هذا التجاذب بأن اعتقل لسانه عن التدريس ، وغمر قلبه حزن أثر على صحته ، فضعفت قواه ، ثم يحدثنا هو عما فعل حينئذ :

« ثم أحسست بعجزي ، وسقط بالكلية اختياري فالتجأت إلى الله تعالى ، التجاء المضطر ، الذي لا حيلة له ، فأجابني الذي يجيب المضطر إذا دعاه ، وسهل على قلبي الاعراض عن الجاه ، والمال ، والأولاد ، والأصحاب » أ. هـ .

- ٤ -

تلطف الامام « الغزالي » بلطائف الحيل في الخروج من بغداد ، مظهراً عزم الخروج إلى مكة ، وهو يدبر في نفسه السفر إلى الشام . . وسار يحدوه

الأمل العذب في المعرفة ، ويغمر قلبه الرجاء القويّ في الفتح : يتفضل الله به عليه ، كما تفضل على من سلف من الأولياء والعارفين .

حتى إذا ما وصل إلى الشام ، أقام به قريباً من سنتين ، لاشغل له إلا العزلة ، والخلوة ، والرياضة ، والمجاهدة : اشتغالًا بتزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق ، وتصفية القلب لذكر الله تعالى ، وكان يعتكف في منارة مسجد دمشق ، طول النهار ، ويغلق بابها على نفسه .

ثم رحل من الشام إلى بيت المقدس ، فكان يدخل كل يوم ، الصخرة ويغلق بابها على نفسه ، ثم سار إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ، وزيارة الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه .

ثم عاد إلى وطنه ملازماً بيته ، مشتغلا بالتفكير .

ولقد كان ، في حله وترحاله مؤثراً العزلة ، حرصاً على الخلوة ، وتصفية القلب للذكر . . ودام ذلك كله ما يقرب من عشر سنوات ، انكشف له في خلواته أثناءها ، أمور لا يمكن إحصاؤها : وأفاض الله عليه من النور الإلهي ، وغمرته ألطاف الله ، وترقى به الحال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق ، وكان كتاب الاحياء من ثمار هذه الفترة .

ـ ٥ ـ

كتبه :

ولقد ألف الامام « الغزالي » عشرات الكتب ، عدّ منها صاحب « طبقات الشافعية » ما يقرب من ستين كتاباً .

وعد منها « شارح الاحياء » « الامام الزبيدي » ما يقرب من ثمانين كتاباً ورسالة :

منها في الفقه : الوجيز ، والوسيط ، والبسيط .

ومنها في علم الكلام : « الاقتصاد في الاعتقاد » .

ومنها في الفلسفة : « مقاصد الفلاسفة » ، و« تهافت الفلاسفة » .

ومنها في التصوف : « بداية الهداية » ، و« منهاج العابدين » ، و« كتاب الاحياء » .

بيد أننا ، إذا تصفحنا مؤلفات الامام « الغزالي » ـ سواء منها ما ألف قبل فترة تصوفه ، وما ألف في أثنائها ، فإننا نجد أن أهمها في نظر الباحث الذي يريد أن يحدد شخصيته ، ومنهجه ، واتجاهه ، ثلاثة :

وهي ـ فضلا عن ذلك ـ تعتبر في نظرنا أهم كتبه على الاطلاق .
ولو لم يؤلف الامام « الغزالي » غيرها ، لبقي هو « الغزالي » العملاق ، الصوفي ، الفيلسوف بطابعه وسماته وشخصيته ، لا ينقص شيئاً . . ولكنه لو لم يؤلفها ، لما كان هو الامام « الغزالي » صاحب الأثر الخالد على الدهر .

١ ـ أما أحدها . فإنه : كتاب « المنقذ من الضلال » .

وهو كتاب لا غنى للباحث في تطور حياة « الغزالي » الفكرية عنه ، ففيه يقص الامام حياته الفكرية ، في تطورها : من الدراسة المستفيضة ، إلى الشك ، ثم إلى اليقين .

ويحدد موقفه من علم الكلام ، ومن مذهب التعليمية ، ومن الفلسفة والفلاسفة ثم من التصوف .

وفيه يبين موقفه من مسألة النبوة ، ومن الشكوك التي ترد عليها ، ويبين الطريق الصواب ، لاحياء الشعور الديني ، حينما يفتر عند بعض الناس .

وهو من الكتب التي يندر ما يماثلها في ثقافتنا الشرفية ، إذ إن كبار المفكرين عندنا ، لم يتجهوا إلى تسجيل تدرجهم الفكري ، وانتفاضاتهم الذهنية .

ولم يسبق « الغزالي » ـ فيما نعلم ـ في هذا النهج سوى « الحارث بن أسد المحاسبي » في مقدمة كتاب الوصايا : فإنه فص فيه طرفاً من حيرته ، وشكه الهين السهل ، ثم يقينه الذي انتهى إليه ، وقد قرأ الامام « الغزالي » كتب « الحارث » وانتفع بها ، وربما كانت مقدمة كتاب « الوصايا » : من العوامل التي دفعت الامام « الغزالي » إلى كتابه « المنقذ » .

وقد كتبه الامام « الغزالي » بعد أن أناف سنه على الخمسين ، كما يذكر هو .
٢ ـ وأما ثانيها فإنه : « تهافت الفلاسفة » .

وهو كتاب تدل تسميته على ما يقصد به ، فإن الامام « الغزالي » ، حينما سمى كتابه : « تهافت الفلاسفة» ـ كما يقول « ازين بلاسيوس » ـ كان يريد أن يمثل لنا : أن العقل الانساني ، يبحث عن الحقيقة ، ويريد الوصول إليها ، كما يبحث البعوض عن ضوء النهار ، فإذا أبصر شعاعاً ، يشبه نور الحقيقة ، انخدع به ، فرمى بنفسه عليه ، وتهافت فيه ، ولكنه يخطىء ، مخدوعاً بأقيسة منطقية خاطئة ، فيهلك ، كما يهلك البعض .

فكأن الغزالي يريد أن يقول :

إن الفلاسفة خدعوا بأشياء ، أسرعوا إليها بلا إعمال روية ، فتهافتوا ، وهلكوا الهلاك الأبدي.

وقد حاول « بلاسيوس » ؛ أن يجد في عبارات كتاب :« التهافت » ، وفي استعمال « ابن رشد » ، لهذه الكلمة ، ما يؤيد افتراضه » .[1]

ومما لا شك فيه ، أن كتابه هذا : محاولة جريئة كل الجرأة ، موفقة كل التوفيق .

وما كان المقصد الأول والهدف الأساسي ، لهجومه ، هو هدم الآراء في نفسها ، إذ إن بعضها صحيح ، موافق للدين .

وإنما كان هدف الامام « الغزالي » : هدم المنهج العقلي ، الذي استندت إليه هذه الآراء .

فخلود النفس مثلا : رأي يقول به الامام « الغزالي » ويقول به الفلاسفة ، ولكن الامام حمل معوله ، وأخذ يهدم بيد قوية ؛ المسلك العقلي ، الذي أثبت به الفلاسفة خلود النفس ، فانهارت أدلتهم ، وتهافتت .

لقد فعل ذلك مع إيمانه بخلود النفس .

وهو لم يلتزم في الكتاب إلا تكدير مذهبهم ، والتغيير في وجوه أدلتهم ، بما يبين تهافتهم[2] .

---

(١) من كتاب « تاريخ الفلسفة في الاسلام » ترجمة الدكتور « محمد عبد الهادي ابو ريدة » .

(٢) من كتاب « التهافت »

ومقصوده : تنبيه من حسن اعتقاده في الفلاسفة ، وظن أن مسالكهم نقية عن التناقض ، ببيان وجوه تهافتهم .

ويقول :

« أنا لا أدخل في الاعتراض عليهم ، إلا دخول مطالب منكر ، لا دخول مدع مثبت ، فأبطل عليهم ما اعتقدوه مقطوعاً بإلزامات مختلفة ، فألزمهم تارة ، مذهب المعتزلة ، وأخرى ، مذهب الكرّامية ، وطوراً : مذهب الواقفية ، ولا أنتهض ذاباً عن مذهب مخصوص » .

ولقد وفق الامام « الغزالي » توفيقاً تاماً ، فيما انتدب نفسه إليه في هذا الكتاب ، وهو : إثبات أن العقل ـ إذا لم يتخذ الوحي هادياً ومرشداً ـ عاجز كل العجز ، عن الوصول إلى المعرفة الصحيحة ، فيما وراء الطبيعة .

٣ ـ أما ثالث الكتب فإنه : « الاحياء » .

وهو أهمها ، وأهم كتب الامام « الغزالي » عامة ، ولقد قال فيه الامام « النووي » : « كاد الاحياء يكون قرآناً » .

وقد ألفه الامام « الغزالي » ، في أوائل الفترة التي اصطحب فيها مع العزلة ، ومما يؤيد ذلك ، ما رواه الامام « أبو بكر بن العربي » في كتابه : « القواصم والعواصم » من أنه التقى بالامام بمدرسة السلام ، في جمادى الآخرة ، سنة تسعين وأربعمائة : وكان قد راض نفسه بالطريقة الصوفية ، من سنة ست وثمانين ، إلى ذلك الوقت نحواً من خمسة أعوام . . فقرأت عليه جملة من كتبه ، وسمعت كتابه الذي سماه : « الاحياء لعلوم الدين . . . » .

أما فيما يتعلق بالبواعث التي من أجلها ألف الامام : « كتاب الاحياء » .
وأما فيما يتعلق بالهدف الذي من أجله ألف كتاب « الاحياء » .
وأما فيما يتعلق بجوهر موضوعه . فإن ذلك كله يتلخص في كلمة واحدة هي : الاخلاص .

ولقد روى « ابن الجوزي » : أن بعض أصحاب « أبي حامد » . سأله قبيل الموت قائلا : أوصني . فقال له : « عليك بالاخلاص » ، ولم يزل

يكررها حتى الموت .

عليك بالاخلاص ! لقد تلفت « أبو حامد » يوماً إلى نفسه ، فوجد أنه متجرد من الاخلاص ، وأن كل همه ، إنما هو الشهرة ، والصيت ، والجاه ، والمنزلة عند الناس، وعند الحكام . . . وانتفض « أبو حامد » انتفاضته ، التي وضع بها نفسه في محيط الاخلاص .

وتلفت « أبو حامد » ـ بعد ذلك ـ فيما حوله ، فوجد أن الناس صم ، بكم ، عمي ، عن قوله تعالى :

﴿ ألا للهِ الدّينُ الخالِصُ ﴾

وعن قوله تعالى : ﴿ وما أمِرُوا إلا لِيَعْبُدوا اللهَ ، مخلِصينَ له الدّين ﴾

وقوله تعالى : ﴿ فادعُوا اللهَ ، مُخْلِصين لهُ الدّينَ ﴾ .

وغير ذلك من الآيات الكثيرة ، التي تدعو إلى الاخلاص في الدين ، وإلى إخلاص الدين لله وحده ، وهي في دعوتها إلى الاخلاص ، إنما تدعو إلى التوحيد .

ووجد أن الشيطان : قد استحوذ على أكثر الناس ، واستغواهم الطغيان ، وأصبح الدين ـ في نظر علمائه ، فضلا عن غيرهم ـ فتوى حكومية ، أو جدلا للمباهاة والغلبة والافحام ، أو سجعاً مزخرفاً ، يتوسل به الواعظ إلى استدراج العوام .

لما رأى « أبو حامد » ذلك ، ألف كتابه النفيس .

وألفه ليستعيد الاخلاص إلى القلوب ، ليستعيد ما درج عليه السلف الصالح : من اتخاذ الاخلاص أساساً ، وشعاراً ، وما من شك في أن إخلاص الدين لله وحده ، هو التوحيد ، وما من شك في أن التوحيد : هو جوهر الدين الإسلامي ، وهو طابعه ، وهو هدفه ، وغايته .

وألف الامام كتابه إذن ؛ ليبين فيه الاخلاص أسساً ، ونتائج ، وأسباباً ، وغايات

ورتب الكتاب أقساماً ، والأقسام كتباً ، والكتب أبواباً ، والأبواب

فقرات . . . كل ذلك ليسهل تناوله .

فأما أقسام الكتاب فهي أربعة :

١ ـ قسم العبادات : يذكر فيه من خفايا آدابها ، ودقائق سننها ، وأسرار معانيها ، كل ما يحتاج العالم العامل إلى معرفته : من وجوه الاخلاص فيها ، وإقامتها على الأسس التي يحبها الله ، سبحانه ، ورسوله ، صلى الله عليه وسلم .

٢ ـ قسم العادات : يذكر فيه أسرار المعاملات الجارية بين الخلق ، وأغوارها ، ودقائق سننها ، وخفايا الورع في مجاريها ، وذلك مما لا يستغني عنه متدين .

٣ ـ قسم المهلكات . وهي الأخلاق المذمومة ، التي ورد القرآن بتطهير القلب منها : يعرف بها ، ويذكر أسبابها ، وما ينشأ عنها من مضار ، ثم يذكر طرق العلاج منها .

٤ ـ قسم المنجيات : يذكر فيه كل خلق محمود ، ويشرح الوسائل التي بها يكتسب ، والثمار التي تجنى من التخلق به .

وهو في كل هذه الأقسام : يبتدىء كل موضوع يعالجه بذكر الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، والآثار عن الصحابة والتابعين ، وأخبار الصالحين .

٤ ـ تحليل كتاب « الاحياء » :

ويفتتح كتابه : « بكتاب العلم » فيسير فيه على حسب طريقته المحددة : « شواهد الآيات ، والأخبار ، والآثار » « وشواهد الشرع والعقل » .

لقد (شَهِدَ اللهُ ، أنَّهُ لا إلهَ إلاّ هُوَ ، والملائكةُ ، وأولوا العلمِ ، قائماً بالقِسْطِ) فانظر كيف بدأ سبحانه وتعالى بنفسه ، وثنى بالملائكة ، وثلث بأهل العلم . وناهيك بهذا شرفاً ، وفضلا ، وجلالا ، ونبلا .

ويقول صلوات الله وسلامه عليه : « العلماء ورثة الأنبياء » ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوة ، ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة .

وقال الأحنف رحمه الله : « كاد العلماء يكونون أرباباً » .

والعلم الذي يريده الامام « الغزالي » ، أوسع دائرة وأعم موضوعاً ، مما نسميه العلم الآن : إذ إن العلم الذي يريده الامام « الغزالي » إنما هو : علم الدين والدنيا ، ولا يحرم الامام « الغزالي » منه إلا ما يضر المجتمع ، كعلم السحر مثلا : فإذا أدى العلم إلى ضرر ما ، إما لصاحبه ، أو لغيره كان مذموماً .

والهدف من العلم ، على كل حال : زيادة الهداية ، وغرس الاخلاص . فإن من ازداد علماً ولم يزدد هدى ، لم يزدد من الله إلا بعداً .

ولا بد للاخلاص من معرفة العقائد الصحيحة ، ولذلك يثني الامام « الغزالي » بكتاب : « قواعد العقائد » وقواعد العقائد تدور حول ثلاث مسائل :

١ ـ الله وصفاته ، والأساس فيه . أنه ليس كمثله شيء ، وأنه متصف بكل صفات الكمال : كالحياة والقدرة ، والعلم الشامل ، والارادة الكاملة ، وغير ذلك من صفات الجلال والجمال .

٢ ـ وأنه ، سبحانه : بعث محمداً ، ﷺ ، برسالته إلى كافة العرب والعجم ، فنسخ بشريعته الشرائع ، إلا ما قرره منها ، ومنع كمال الايمان بشهادة التوحيد ـ وهي قولك : لا إله إلا الله . ما لم تقترن بشهادة الرسول ﷺ وهي قولك : محمد رسول الله وألزم الخلق تصديقه في جميع ما أخبر به من أمور الدنيا والآخرة .

٣ ـ والمسألة الثالثة هي الايمان بالآخرة : البعث ، والحساب ، والنعيم ، أو العذاب .

وسواء كنا بصدد معرفة وجوده تعالى ، أو معرفة صفاته ، أو معرفة أحوال الآخرة ، أو معرفة صدق الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه . فإن أول ما يستضاء به من الأنوار ، ويسلك من طريق الاعتبار : ما أرشد إليه القرآن في ذلك : فليس بعد بيان الله سبحانه بيان ، وفي القرآن إرشاد ، واستدلال واضح على كل ذلك .

ويتهيأ الانسان للاخلاص بالطهارة ، والطهارة ظاهرية ، وباطنية ، وقد

أطال الامام « الغزالي » في الطهارة الباطنية ، وسنتحدث عنها فيما بعد إن شاء الله .

أما الطهارة الظاهرية ، فمنها الوضوء فإن : « من توضأ فأحَسن الوضوء ، وصلى ركعتين لم يحدث نفسه فيهما بشيء من الدنيا ، خرج من ذنوبه ، كيوم ولدته أمه » .

« والوضوء على الوضوء : نور على نور » ، بيد أن الوضوء إنما شرع من أجل الصلاة ، والصلاة : إنما هي الباب الذي يدخل منه الانسان إلى الله ، سبحانه وتعالى : يناجيه ، وينغمس في رحابه ، ويستنير بنوره ، وهي من أجل ذلك عماد الدين ، وعصام اليقين ، ورأس القربات ، وغرة الطاعات . « وكانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً » ، وإنها لتنهى عن الفحشاء والمنكر ، وهي كذلك بشرط الخضوع وحضور القلب ، وهذا هو معنى الاقامة في قوله تعالى : « أقم الصلاة » .

أما من لم يكن كذلك في صلاته : فإنه يدخل تحت قوله صلوات الله وسلامه عليه : « كم من قائم حظه من صلاته التعب والنصب » وما أراد ، صلوات الله وسلامه عليه بذلك إلا الغافل ، أما إذا خشع في صلاته ، فإنه يدخل في دائرة قوله تعالى :

(قَدْ أَفْلَحَ المؤمِنونَ ، الّذينَ هُمْ في صَلاتِهِمْ خاشِعُون) .

ويقرن الله ، سبحانه ، الزكاة بالصلاة في غير ما موضع : « أقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة » وقد جعلها الله تزكية ، وبفضلها تزكى من عباد الله من تزكى ، وقد شدد الله الوعيد على المقصرين فيها فقال : (والذين يكنزونَ الذّهَبَ والفضّةَ ، ولا ينفِقُونها في سبيلِ اللهِ ، فبشرْهُم بعذابٍ أليم) ومعنى الانفاق في سبيل الله : إخراج حق الزكاة ، والزكاة نوع من تجريد الانسان عن جزء من المادة بعد امتلاكه ، وذلك من أجل الله :

والصوم : باب العبادة وباب الاخلاص ، فإذا ما صام الانسان إيماناً واحتساباً ، باهى الله به ملائكته ، وكانت كل حركاته عبادة حتى نومه .

• والصوم : ثلاث درجات : صوم العموم : وهو : كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة ، وصوم الخصوص وهو : كف الجوارح عن الآثام وصوم خصوص الخصوص : وهو صوم القلب عن الهمم الدنية ، والأفكار الدنيوية ، وكفه عما سوى الله عز وجل ، بالكلية .

ويكفي في فضل الحج ما رواه الشيخان : البخاري ومسلم : « من حج فلم يرفث ، ولم يفسق ، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » .

والقرآن : كتاب الاسلام المنزل ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، من تمسك به هدي ، ومن عمل به فقد فاز ، ولقد قال صلوات الله وسلامه عليه :

« أهل القرآن أهل الله وخاصته » والقرآن : رسائل أتتنا ، من فبل ربنا ، بعهوده نتدبرها في الصلوات ، ونقف عليها في الخلوات ؛ وننفذها في الطاعات ، والسنن المتبعات ، وهو شفاء ورحمة للمؤمنين ؛ وتلاوته إذن مطلوبة : جلاء للقلوب ، وشفاء لما في الصدور ، وغرساً للاخلاص ، وتثبيتاً للتوحيد .

والقرآن نوع من الذكر والدعاء ، وقد حث الله على الذكر في فوله تعالى : (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ) ، وفي قوله تعالى : (اذْكُروا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً) . والمخلص يذكر الله على الدوام ، مع حضور القلب ، فأما الذكر باللسان ، والقلب لاهٍ فهو قليل الجدوى .

ولقد فضل رسول الله ﷺ قول : « لا إله إلا الله » على سائر الأذكار ، لأنها عنوان الاخلاص ، ودليل التوحيد .

ومن الذكر : الصلاة على سيد المرسلين : (إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ على النَّبِيِّ ، يا أَيُّها الذينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً) .

ومن الذكر : الدعاء والدعاء مخ العبادة ، يقول الله تعالى :

(وإذا سألكَ عبادي عني فإنّي قريبٌ ، أجيبُ دعوةَ الدّاعِ إذا دعانِ) .

ولكن لا بدّ للإجابة من التوبة ، ورد المظالم ، والاقبال بكنه الهمة ، على الله عز وجل ، فذلك هو السبب القريب في الاجابة .

وبعد أن ينتهي الامام « الغزالي » بذلك من ربع العبادات ، يبدأ في ربع العادات ، فيبين فيه آداب الأكل ، وآداب النكاح ، ثم يبين آداب الكسب والمعاش ، ويتحدث عن فضيلة العمل ، وعن الآثار الكثيرة : قرآنية ونبوية في فضل العمل ، وفي استقامة العمال ، والتجار : فمن الذنوب ذنوب ، لا يكفرها إلا الهم في طلب المعيشة ، والتاجر الصدوق يحشر، يوم القيامة مع الصدِّيقين والشهداء .

ويخلص من ذلك إلى كتاب جليل نفيس هو : « كتاب الحلال والحرام » والحلال : كله طيب ، ولكن بعضه أطيب من بعض ؛ والحرام كله خبيث ، ولكن بعضه أخبث من بعض .

ويفصل الامام كل ذلك ؛ لينتهي إلى « كتاب آداب الالفة والأخوة والصحبة . » وأساسه حسن الخلق ، والتأسي فيه بالرسول الذي يقول الله له :

(وإنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيم) وقد بعث ، صلوات الله عليه وسلامه ، ليتمم مكارم الأخلاق .

فإذا ما كان حسن الخلق كانت الأخوة ، وفائدة الأخوة ، كما يريدها الدين عظيمة .

ولقد قال صلوات الله عليه وسلامه في الثناء على الأخوة في الدين : « من أراد الله به خيراً رزقه خليلاً صالحاً ، إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه » .

ومن أروع ما قاله صلوات الله عليه وسلامه في ذلك : « مثل الأخوين ، إذا التقيا مثل اليدين : تغسل إحداهما الأخرى ، وما التقى مؤمنان قط ، إلا أفاد الله أحدهما من صاحبه خيراً »

ثم يتحدث عن العزلة والاختلاط ، مبيناً الآراء في كل منهما لينتهي إلى أن كلام الشافعي ، رحمه الله ، في هذا الموضوع ـ وهو فصل الخطاب ـ إذ قال : « يا يونس ؛ الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة ، والانبساط إليهم : مجلبة لقرناء السوء ، فكن بين المنقبض والمنبسط » فلذلك يجب الاعتدال في المخالطة والعزلة ، ويختلف ذلك بالأحوال ، وبملاحظة الفوائد والآفات يتبين الأفضل ، هذا هو الحق الصراح ، وكل ما ذكر سوى هذا فهو قاصر ، وإنما هو إخبار كل واحد عن حالة خاصة هو فيها ، ولا يجوز أن يحكم على غير المخالف له في الحال .

والسفر للعظة والاعتبار من أعظم ما يفيد الانسان في جانبه الروحي ، ولكن السفر قد يكون بِسَيْرِ القلب عن أسفل السافلين إلى ملكوت السموات ، وهو أشرف من السفر بظاهر البدن ، ويجمع السفرين ويحث عليهما قوله تعالى : (وفي الأرض آياتٌ للموقِنينَ ، وفي أنفُسِكُمْ أفلا تُبْصِرونَ ؟) .

وينتهي الامام في كتاب « السماع والوجد » بالحكم الرزين المنطقيّ ، وهو أن سماع الغناء قد يكون حراماً ، وقد يكون مباحاً ، وقد يكون مكروهاً ، وقد يكون مستحباً .

أما الحرام : فهو لأكثر الناس من الشبان ، ومن غلبت عليهم شهوة الدنيا فلا يحرك السماع منهم ، إلا ما هو الغالب على قربهم من الصفات المذمومة .

وأما المكروه : فهو لمن لا ينزله على صورة المخلوقين ، ولكنه يتخذه عادة له في أكثر الأوقات على سبيل اللهو .

وأما المباح : فهو لمن لاحظ له منه إلا التلذذ بالصوت الحسن .

وأما المستحب : فهو ان غلب عليه حب الله تعالى ، ولم يحرم السماع منه إلا الصفات المحمودة .

ولا بد ـ لاستمرار الدين حياً في النفوس ـ من القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (وَلْتَكُنْ مِنْكُم أمةٌ يدعونَ إلى الخير ويأمرونَ

بالمعروفِ وينهَوْنَ عنِ المُنْكَر ، وأولئكَ هُمُ المفلِحُون) .

وبعد أن بين الامام مواقف العلماء الرائعة ، وجهادهم في سبيل الله ، ختم الفصل بقوله :

فهذه كانت سيرة العلماء وعاداتهم في الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وقلة مبالاتهم بسطوة السلاطين ، لكنهم اتكلوا على فضل الله تعالى ، أن يحرسهم ، ورضوا بحكم الله تعالى ، أن يرزقهم الشهادة ، فلما أخلصوا لله النية ، أثر كلامهم في القلوب القاسية فلينها ، وأزال قسوتها ، وأما الآن فقد قيدت الأطماع ألسن العلماء فكتموا ، وإن تكلموا لم تساعد أقوالهم أحوالهم ، فلم ينجحوا ، ولو صدقوا وقصدوا حق العلم لأفلحوا ، ففساد الرعايا بفساد الملوك وفساد الملوك بفساد العلماء ، وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه .

ويختم الامام « الغزالي » ربع العادات بكتاب : آداب المعيشة وأخلاق النبوة » فيبين ما كان عليه الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، من خلق : هو كما في القرآن ، ويشرح في استفاضة ما يوضح قول الله تعالى لرسوله :

(وإنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عظيم) .

ويبتدىء ربع المهلكات : بكتاب من أنفس الكتب ، لا غنى عنه قط لمن يريد أن يعالج التصوف عملياً ؛ أو أن يقتنع بحقيقته نظرياً ، ذلك هو كتاب : « شرح عجائب القلب » وأهميته ترجع إلى أن القلب : هو العالم بالله ، وهو المتقرب إلى الله ، وهو العامل لله ، وهو الساعي إلى الله ، وهو المكاشف بما عند الله ولديه .

فإذا تساءلت : ما معنى القلب الذي له هذه المنزلة ؟ يأتيك الجواب أنه :

« هو لطيفة ربانية ، روحانية لها بهذا القلب الجسماني تعلق ، وتلك اللطيفة هي حقيقة الانسان ، وهو المدرك ، العالم ، العارف ، وهو المخاطب ؛ والمعاتب والمطالب » .

وفي النصوص التي ذكرناها فيما بعد ما يغني عن تلخيص هذا الكتاب .

ويتلو ذلك : كتاب « رياضة النفس ، وتهذيب الأخلاق » .

ومن هذا العنوان وحده تفهم أن « الغزالي » مزج بين رياضة النفس ، وتهذيب الأخلاق ، أو بتعبير آخر ، جعل رياضة النفس تهذيباً للأخلاق .

والخلق الحسن إنما هو صفة سيد المرسلين ، وأفضل أعمال الصديقين وهو على التحقيق شطر الدين ، وثمرة مجاهدة المتقين ، ورياضة المتعبدين .

ولقد كان صلوات الله وسلامه عليه يقول : « إن أحبكم إليّ ، وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة ، أحاسنكم أخلاقاً » .

وأعظم المهلكات لابن آدم ، شهوة البطن .

فلا بد من كسر هذه الشهوة ، ومما يساعد على كسرها ، ألا يأكل الانسان إلا حلالا ، وألا يجعل الأكل هدفاً وغاية ، والأفضل بالاضافة إلى الطبع المعتدل ، أن يأكل بحيث لا يحس بثقل المعدة ، ولا يحس بألم الجوع ، بل ينسى بطنه فلا يؤثر فيه الجوع أصلا ، فإن مقصود الأكل بقاء الحياة ، والقوة على العبادة ، وثقل المعدة يمنع من العبادة ، وألم الجوع أيضاً يشل القلب ، ويمنع منها .

ثم يبحث الامام عن « آفات اللسان» .

وما من شك في أن اللسان من نعم الله العظيمة ، ولطائف صنعه الغريبة . ولكن الناس تساهلوا في الاحتراز عن آفاته وغوائله ، وهي كثيرة ، وما من شك في أن من أسباب النجاة : ما نصح به الرسول عليه الصلاة والسلام في قوله : « أمسك عليك لسانك » .

والكذب ، والغيبة ، والنميمة ، والاستهزاء ، والسخرية ، كل ذلك : من آفات اللسان . والمثل العربي يقول : « مقتل الرجل بين فكيه » .

والطريقة المثلى : ألا يتحدث الرجل بما يغضب الله .

ومن الآفات التي تفسد على الناس أمورهم « الغضب » . وقد روى أبو هريرة أن رجلا قال : يا رسول الله مُرْني بعمل وأقلل ، فقال له صلوات الله

وسلامه عليه : « لا تغضب » فأعاد الرجل السؤال . فقال له : « لا تغضب » .

ومما يزيل الغضب ، الجلوس إذا كان الانسان قائماً ، والاضطجاع إذا كان جالساً .

ومما يزيل الغضب الوضوء ، والاغتسال .

ومما يزيله السجود .

« ألا إن الغضب جمرة في قلب ابن آدم ، ألا ترون إلى حمرة عينيه ، وانتفاخ أوداجه ؟ فمن وجد من ذلك شيئاً فليلصق خده بالأرض » وهذه إشارة إلى السجود .

وحب الدنيا رأس كل خطيئة ، ولا يزال ابن آدم يجري وراءها في جشع وفي تكالب فتستعبده إلى أن يهلك ، والمؤمن يستعبد الدنيا ، فتذل له ، فيتخذها مطية للآخرة .

ومحب الدنيا بخيل ؛ لأنه متكالب عليها ، وقد روي بسند صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن الله ، عز وجل ، يقول : « **إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ولو كان لابن آدم واد من ذهب ، لأحب أن يكون له ثان ، ولو كان له الثاني ، لأحب أن يكون له ثالث ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب** » .

أما المقياس الصحيح فهو قوله تعالى :

« **وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نفسِهِ ، فأولئكَ هُمُ المفلحون** » .

وحب الجاه ، والرياء والكبر ، والعجب ، والغرور : كلها : من الآفات التي يجب أن يتخلى عنها المؤمن ، إذا أراد أن يخلص لله نيته وقصده .

أما إذا وصلنا إلى ربع المنجيات ، فقد وصلنا إلى درة التاج ، وإلى النور الهادي ، وإلى صفاء الصفاء !

ويبتدىء هذا القسم ، أول ما يبتدىء بـ « التوبة » فإن التوبة عن الذنوب بالرجوع إلى ستار العيوب ، وعلام الغيوب ، مبدأ طريق السالكين ، ورأس مال الفائزين ، وأول اقدام المريدين ، ومفتاح استقامة المائلين ، ومطلع الاستصفاء والاجتباء للمقربين .

ووجوب التوبة : ظاهر بالأخبار والآيات ، وهو واضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته ، وشرح الله بنور الايمان صدره :

(يا أيُّها الذينَ آمنوا توبوا إلى اللهِ تَوْبةً نصوحاً) .

أما وجوب التوبة على الفور ، فلا يستراب فيه .

ومهما يكن من شيء فـ (إنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابينَ ، ويحِبُّ المتَطَهِّرينَ) ، ويقول ، صلوات الله وسلامه عليه :

« للهُ أفرح بتوبة العبد المؤمن من رجل نزل في أرض دوية ، مهلكة ، ومعه راحلته ، عليها طعامه وشرابه ، فوضع رأسه فنام نومة ، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش ، أو ما شاء الله قال : أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت ، فوضع رأسه على ساعده ليموت ، فاستيقظ فإذا راحلته عنده ، عليها زاده وشرابه ، فالله تعالى ، أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته » .

والايمان « نصفان » نصف صبر ، ونصف شكر ، لقد وردت بذلك الآثار وشهدت به الأخبار ، وقد وصف الله الصابرين ، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر ، وجعلها ثمرة له ، فقال تعالى :

« إنَّما يُوَفَّى الصَّابرونَ أجرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ » وقال صلوات الله وسلامه عليه :

« الصبر نصف الايمان » وقال :
« الصبر كنز من كنوز الجنة » .

ونعم الله على المرء لا تحصى ، وواجب الانسان نحو المنعم بهذه النعم هو الشكر ، والشكر نفسه : سبب في زيادة النعم ، يقول تعالى :

(لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأزيدَنَّكُمْ) .

والرجاء والخوف : جناحان بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود ، ومطيتان بهما يقطع من طريق الآخرة كل عقبة كؤود .

ويقرن الأمام « الغزالي » الفقر بالزهد . . . والزهد في الدنيا ، مقام شريف من مقامات السالكين ، وهو تحقيق لقوله تعالى :

(إنَّ اللهَ اشترى مِنَ المؤمنينَ أنفُسَهُمْ ، وأموالَهُمْ ، بأنَّ لهمُ الجنَّة ، يُقاتِلونَ في سبيل اللهِ ، فَيَقْتُلونَ وَيُقْتَلونَ ، وعداً عليهِ حَقّاً ، في التوراةِ والانجيلِ والقرآنِ ، وَمَنْ أوفى بعهدِهِ من اللهِ ؟ فاستبشِروا ببيعِكُمُ الذي بايَعْتُمْ بهِ ، وذلكَ هُوَ الفوزُ العظيم !) .

والزهد إذن قوة ؛ لأنه بيعُ النفس والمال لله ، وتجرد في سبيله .

والتوكل ، منزل من منازل الدين ، ومقام من مقامات المؤمنين ، بل هو من معالي درجات المقربين ، وهو ثمرة من ثمار التوحيد ، فمن وَحَّدَ الله حق توحيده توكل عليه :

(أَلَيْسَ اللهُ بكافٍ عَبْدَهُ ؟) .

أما محبةُ الله ، فإنها الغاية القصوى من المقامات ، والذروة العليا من الدرجات ؛ ومن ثمارها : الشوق ، والأنس ، والرضا ، وليس قبل المحبة مقام ، إلا وهو مقدمة من مقدماتها : « كالتوبة ، والصبر ، والزهد ، وغيرها » . فهي واسطة العقد ، ودرة القلادة :

« والّذِينَ آمَنُوا أشَدُّ حُبّاً للهِ » .

« لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله ، أحب إليه مما سواهما » .

وقد انكشف لأرباب القلوب ، ببصيرة الايمان ، وأنوار القرآن : أن لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة .

« فالناس كلهم : هلكى إلا العالمون ، والعالمون كلهم : هلكى إلا

العاملون ، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون ، والمخلصون : على خطر عظيم » .

فالعمل بغير نية عناء ، والنية بغير إخلاص ، رياء ، وهو للنفاق كفاء . ومع العصيان سواء ، والاخلاص من غير صدق وتحقيق ، هباء . وقد قال الله تعالى في كل عمل كان بإرادة غير الله مشوباً مغموراً :

(وَقَدِمْنا إلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ ، فَجَعَلْناهُ هَبَاءً مَنْثُوراً) .

ويقول صلوات الله وسلامه عليه .

« إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى ؛ فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله : فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

ومن راقب الله فاز ؛ ومن حاسب نفسه نجا .

وقد وردت السنة : بأن تفكر ساعة خير من عبادة سنة . وكثر الحث في كتاب الله تعالى ، على التدبر والاعتبار ، والنظر والافتكار . ولا يخفى أن الفكر هو مفتاح الأنوار ، ومبدأ الاستبصار ، وهو شبكة العلوم ، ومصيدة المعارف والفهوم .

وقد أمر الله تعالى بالتفكر والتدبر في كتابه العزيز في مواضع لا تحصى . وأثنى على المتفكرين ، فقال تعالى :

(إنَّ في خَلْقِ السّموات والأرضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ والنَّهارِ لآيات لأولي الألباب ، الذينَ يَذْكُرونَ اللهَ قياماً وقُعوداً ، وعلى جُنُوبِهِم ، ويتفكَّرونَ في خلق السّمواتِ والأرضِ : رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطلاً ، سبحانَكَ فَقِنا عذابَ النّار) .

وقد روي أن رسول الله ﷺ : بكى حينما نزلت هذه الآية وقال :

« وَيْلٌ لِمَنْ قَرأَها وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فيها » .

ومما يعين ـ على وجه العموم ـ التفكر في الموت وما بعده ، « والكيس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت » ، يقول ، صلوات الله وسلامه عليه :

« كفى بالموت واعظاً » .

ويختم الامام الغزالي كتابه بقوله :

« وروي أنه وقف صبيٌّ في بعض المغازي ينادى عليه ـ لبيعه ـ فيمن يزيد في يوم صائف شديد الحر ، فبصرت به امرأة في خباء القوم ، فأقبلت تشتد ، وأقبل أصحاب خلفها حتى أخذت الصبي ، وألصقته إلى صدرها ، ثم ألقت ظهرها على البطحاء ؛ وجعلته على بطنها تقيه الحر ، وقالت : ابني ، ابني » فبكى الناس وتركوها على ما هم فيه ، فأقبل رسول الله ﷺ ، حتى وقف عليهم ، فأخبروه الخبر فسر برحمتهم ، ثم بشرها فقال :

« أعجبتم من رحمة هذه لابنها ؟ » قالوا : نعم ، قال ﷺ :

« إن الله تبارك وتعالى : أرحم بكم جميعاً من هذه بابنها » .

فتفرق المسلمون على أفضل السرور ، وأعظم البشارة .

فهذه الأحاديث وما أوردناه في « كتاب الرجاء » يبشرنا بسعة رحمة الله تعالى ، فنرجو من الله تعالى ، ألا يعاملنا بما نستحقه ، وأن يتفضل علينا بما هو أهله : بمنه وسعة جوده ورحمته » .

٥ ـ أثر الاحياء :

أما أثر هذا الكتاب في العالم الاسلامي : فقد كان ضخماً ، لقد شرح واختصر عدة مرات ، وانتقده الكثيرون ، ودافع عنه الكثيرون ، وترجم الكثير منه إلى الانجليزية ، والفرنسية ، والاسبانية ، وغير ذلك من اللغات الحية ، شرقية وغربية .

ومخطوطاته ، التي بمكتبات العالم ، لا تكاد تحصر ، وقد طبع في القاهرة وحدها ما يقرب من عشرين طبعة ، وطبع في الهند ، وفي تركيا ، وفي فارس

ولا يزال الكتاب للآن في العالم الاسلامي مصدر إلهام ونور ، ودراسة تختلف نتائجها ، لاختلاف نزعات الدارسين .

ولا يزال في القطر المصري جماعات تعقد حلقات اسبوعية ، تخصصها لقراءة « الاحياء » ، والتعبد بشرح ما فيه من حكم ومواعظ .

٦ ـ تقدير العلماء لكتاب « الاحياء » :

أما تقدير العلماء ، لهذا الكتاب : فتصوره الآراء التالية :

يكاد الناقدون يجمعون على كلمة : « أبي المظفر » سبط « أبي الفرج بن الجوزي » في قوله :

« ووضعه على مذاهب الصوفية ، وترك فيه قانون الفقه ، فأنكروا عليه ما فيه ، من الأحاديث التي لم تصح »

وفكرة الأحاديث التي لم تصح ، أذاع بها كثيرون من أعداء الامام « الغزالي » ، وتحدثوا عنها مقبلين ومدبرين ، قائمين وقاعدين ، ولكن ها هو ذا المولى ، « أبو الخير » يقول :

« أما الأحاديث التي لم تصح ، فلا ينكر عليه إيرادها ، لجوازه في الترغيب والترهيب » .

والواقع ، أن الامام « الغزالي » ، لم يأت بهذه الأحاديث التي لم تصح ، لاثبات حكم ، أو للاستدلال على مبدأ ، ذلك أنه ، يذكر الآيات القرآنية التي يثبت بها ما تؤدي إليه من أحكام ، وقواعد ، وهي على هذا الوضع كافية للاثبات والاستدلال ، ثم يأتي بعد ذلك بالأحاديث ، وبأقوال الصحابة والتابعين .

وإذا كان الأمر كذلك فإننا حينما نستبعد الأحاديث الضعيفة من الاحياء ، فإن كل المبادىء والقواعد والعظات والعبر التي أتى بها الامام « الغزالي » في هذا الكتاب ، تحتفظ بقيمتها ، من ناحية الاثبات ، والاستدلال .

ويتبين من هذا ، أنه لا قيمة لهذا الاعتراض . لا شكلا ولا موضوعاً .

على أنه قد قام العالم الثبت الحجة « الحافظ[1] العراقي » الذي قال فيه شيخه :

« إن ذهنه لا يقبل الخطأ » بتخريج أحاديث هذا الكتاب ، فأصبحت السنة واضحة ، وأصبح الطريق أبلج .

وشيء آخر عن هذا الاعتراض له أهمية ، وهو أن كثيراً من الأحاديث التي قال عنها الامام « العراقي » لا أصل لها ، بين الامام « الزبيدي » شارح الاحياء أصلها ، وكثيراً من الأحاديث التي قال عنها الامام « العراقي » إنها ضعيفة ، بيّن الامام « الزبيدي » أنها ضعيفة ، من الوجه الذي رواها به الامام « العراقي » ولكنها هي نفسها حسنة ، أو قوية من وجه آخر ، وبيّن الامام « الزبيدي » هذا الوجه الآخر .

قال الحافظ « العراقي » عن كتاب « الاحياء » :

« إنه من أجَلِّ كتب الاسلام ، في معرفة الحلال والحرام ، جمع فيه بين ظواهر الأحكام ، ونزع إلى سرائر دقت عن الأفهام ، لم يقتصر فيه على مجرد الفروع والمسائل ، ولم يتبحر في اللجة ، بحيث يتعذر الرجوع إلى

---

(١) الحافظ العراقي : هو زين الدين أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي ولد بمصر في جمادى الأولى سنة ٧٢٥هـ .
أما نسبته إلى العراق : فترجع إلى أن اصل أبيه من العراق .
وتوفي والده وهو في الثالثة من عمره ، ولكن عناية الله أحاطت به ، إذ وهبه الله فطرة ممتازة : ذكاء خارقاً ، وذهناً صافياً ، وهمة عالية في طلب العلم : ويسرت له عناية الله الجو الثقافي ، فاخذ من كل العلوم الاسلامية بحظ وافر ، ولكنه تخصص في « علم الحديث » وظهرت فيه مواهبه ؛ وكان من توفيق الله ؛ أن منحه ذاكرة قوية حافظة . فلقبه شيوخه « بحافظ الوقت » .
ومن أجل الحديث قام « الحافظ العراقي » بعدة رحلات ، سائراً في ذلك على طريق الأئمة السابقين الذين كانوا يقطعون مئات الأميال في طلب الحديث الشريف .
لقد سافر العراقي إلى الشام ، متنقلا بين حواضرها ، وسافر إلى مكة والمدينة وانتهت حياته في شعبان سنة ٨٠٦ هـ وقد بلغ من العمر إحدى وثمانين سنة ، خدم فيها الحديث خدمة جليلة .

الساحل . بل مزج فيه علمي الظاهر والباطن ، ومزج معانيهما في أحسن المواطن . وسبك فيه نفائس : اللفظ وضبطه ، وسلك فيه من النمط أوسطه ، مقتدياً بقول « عليّ » كرم الله وجهه : « خير هذه الأمة النمط الأوسط ، يلحق بهم التالي ، ويرجع إليهم الغالي » .

وقال « الزبيدي » شارح « الاحياء » :

« وأنا لا أعرف له نظيراً ، في الكتب التي صنفها الفقهاء ، الجامعون في تصانيفهم بين النقل ، والنظر ، والفكر ، والأثر » .

وقال « ابن السبكي » :

« وهو من الكتب التي ينبغي للمسلمين الاعتناء بها ، وإشاعتها ، ليهتدي بها كثير من الخلق ، وَقَلَّ من ينظر فيه إلا ويتعظ به في الحال » .

وقال الشيخ « عبد القادر العيدروس » في كتاب « تعريف الاحياء بفضائل الاحياء » .

« اعلم أن فضائل « الاحياء » لا تحصى ، بل كل فضيلة له باعتبار حيثياتها لا تستقصى » .

وكان « عبد الله العيدروس » رضي الله عنه ، يكاد يحفظه ، وروي عنه أنه قال : « مكثت أطالع كتاب « الاحياء » ، كل فصل وحرف منه ، وأعاوده ، وأتدبره ، فيظهر لي منه في كل يوم علوم ، وأسرار عظيمة ، ومفهومات غزيرة ، غير التي قبلها ؛ ولم يسبقه أحد ، ولم يلحقه أحد » ومن كلامه :

« عليكم يا إخواني بمتابعة الكتاب والسنة : أعني الشريعة المشروحة في الكتب الغزالية ، خصوصاً كتاب ذكر الموت ؛ وكتاب الفقر والزهد ؛ وكتاب التوبة ؛ وكتاب رياضة النفس » .

وقد ألزم الشيخ « عبد الله العيدروس » أخاه قراءة الاحياء ، فقرأه عليه مدة حياته خمساً وعشرين مرة .

ونختم هذه التقديرات ، برأي أعتقد أنه فيصل الحق . في موضوع « كتاب الاحياء » وهو رأي فضيلة العالم الجليل الأستاذ الأكبر الشيخ

(محمد الخضر حسين) شيخ الأزهر الأسبق ، وهو عالم لا يتهم بعصبية ، والآراء مجمعة على أنه من العلماء الذين حاولوا جاهدين أن يكون كل ما يصدر عنهم إنما يراد به وجه الله ، يقول :

« وإذا وجد العلماء في كتاب الاحياء مآخذ معدودة ، فإنه من صنع بشر غير معصوم من الزلل ؛ وكفى بكتاب الاحياء ؛ فضلا ، وسمو منزلة ؛ أن تكون درر فوائده فوق ما يتناوله العد ، وأن يظفر منه طلاب العلم ، وعشاق الفضيلة بما لا يظفرون به من كتاب غيره » .

(وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أوتيَ خَيْراً كَثِيراً) .

- ٦ -

النصوص التي تُبيِّن منهج الغزالي وتشرح طريقته في الكتاب

النص الأول [1] : الطريق [2] :

الطريق . تقديم المجاهدة ؛ ومحو الصفات المذمومة ، وقطع العلائق كلها ، والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، ومهما حصل ذلك ، كان الله هو المتولي لقلب عبده ، والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم . وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة ، وأشرق النور في القلب ، وانشرح الصدر ، وانكشف له سر الملكوت ، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة ، وتلألأت فيه حقائق الأمور الالهية ، فليس على العبد إلا الاستعداد بالتصفية المجردة ، وإحضار الهمة ، مع الارادة الصادقة ، والتعطش التام ، والترصد بدوام الانتظار ، لما يفتحه الله تعالى من الرحمة ، فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر ، وفاض على صدورهم النور ، لا بالتعلم والدراسة ، والكتابة للكتب ، بل بالزهد في الدنيا ، والتبري من علائقها ، وتفريغ القلب من شواغلها ، والاقبال بكنه الهمة على الله ، تعالى ، فمن كان لله ، كان الله له .

وزعموا أن الطريق في ذلك . أولا : بانقطاع علائق الدنيا بالكلية ، وتفريغ القلب منها ، وبقطع الهمة عن الأهل ، والمال ، والولد ،

(١) اخذنا هذه النصوص من طبعة « السراوي » . وهي مرقمة بحسب صفحاتها في هذه الطبعة .

(٢) الاحياء ص ١٣٧٧ .

والوطن ، وعن العلم والولاية والجاه ، بل يصير قلبه إلى حالة يستوي فيها وجود كل شيء وعدمه ، ثم يخلو بنفسه في زاوية ، مع الاقتصار على الفرائض والرواتب ، ويجلس فارغ القلب ، مجموع الهمم ، ولا يفرق فكره بقراءة قرآن ، ولا بالتأمل في تفسير ، ولا يكتب حديث ولا غيره بل يجتهد ألا يخطر بباله شيء سوى الله تعالى .

فلا يزال بعد جلوسه في الخلوة قائلا بلسانه : الله ، الله ، على الدوام مع حضور القلب ، حتى ينتهي إلى حالة يترك تحريك اللسان ، ويرى كأن الكلمة جارية على لسانه .

ثم يصبر عليه إلى أن يمحى أثره عن اللسان ، ويصادف قلبه مواظباً على الذكر .

ثم يواظب عليه إلى أن يمحي عن القلب صورة اللفظ وحروفه وهيئة الكلمة ، ويبقى معنى الكلمة مجرداً في قلبه ، حاضراً فيه ، كأنه لازم له ، لا يفارقه . وله اختيار إلى أن ينتهي هذا الحد ، واختيار في استدامة هذه الحالة بدفع الوسواس . وليس له اختيار في استجلاب رحمة الله ، تعالى ، بل هو بما فعله صار متعرضاً ، لنفحات رحمة الله .

فلا يبقى إلا الانتظار ، لما يفتح الله من الرحمة ، كما فتحها على الأنبياء والأولياء بهذه الطريق .

وعند ذلك ، إذا صدقت ارادته ، وصفت همته ، وحسنت مواظبته ، فلم تجاذبه شهواته ، ولم يشغله حديث النفس بعلائق الدنيا ، تلمع لوامع الحق في قلبه .

ويكون في ابتدائه : كالبرق الخاطف ، لا يثبت ، ثم يعود ، وقد يتأخر ، وإن عاد فقد يثبت ، وقد يكون مختطفاً ، وإن ثبت فقد يطول ثباته ، وقد لا يطول ، وقد يتظاهر أمثاله على التلاحق ، وقد يقتصر على فن واحد .

ومنازل أولياء الله تعالى ، فيه لا تحصر ، كما لا يحصى تفاوت خلقهم وأخلاقهم ، وقد رجع هذا الطريق إلى تطهير محض من جانبك ، وتصفية ، وجلاء ، ثم استعداد ، وانتظار فقط .

وأما النظار وذوو الاعتبار : فلم ينكروا وجود هذا الطريق وامكانه ، وإفضاءه إلى هذا المقصد ، على الندور ، فإنه أكثر أحوال الأنبياء ، والأولياء ولكن استوعروا هذا الطريق ، واستبطنوا ثمرته ، واستبعدوا استجماع شروطه ، وزعموا أن محو العلائق إلى ذلك الحد كالمتعذر .

النص الثاني :

بيان شواهد الشرع على صحة طريق أهل التصوف
في
اكتساب المعرفة لا من التعلم ولا من الطريق المعتاد

اعلم : أن من انكشف له شيء ، ولو الشيء اليسير ، بطريق الالهام والوقوع في القلب ، من حيث لا يدري ، فقد صار عارفاً بصحة الطريق ، ومن لم يدرك بنفسه قط . فينبغي أن يؤمن به ، فإن درجة المعرفة فيه عزيزة جداً . ويشهد لذلك شواهد الشرع والتجارب والحكايات .

أما الشواهد فقوله ، تعالى (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا) فكل حكمة تظهر من القلب ، بالمواظبة على العبادة من غير تعلم ، فهي بطريق الكشف والالهام .

وقال ، ﷺ : « من عمل بما علم ، ورثه الله علم ما لم يعلم ، ووفقه فيما يعمل ، حتى يستوجب الجنة ، ومن لم يعمل بما يعلم ، تاه فيما يعلم ولم يوفق فيما يعمل ، حتى يستوجب النار .

وقال الله تعالى(وَمَنْ يَتَّقِ الله يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً) من الاشكالات والشبه (وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ) قيل : يعلمه علماً من غير تعلم ، ويفطنه من غير تجربة .

وقال الله تعالى : (يا أَيُّها الذينَ آمنوا إن تَتَّقُوا الله يَجْعَلْ لَكُمْ فرقاناً) قيل نوراً يفرق به بين الحق والباطل . ويخرج به من الشبهات .

---

(١) الاحياء : ص ١٣٨٥

ولذلك كان ، ﷺ . يكثر في دعائه من سؤال النور ، فقال عليه الصلاة والسلام .

« اللهم أعطني نوراً ، وزدني نوراً ، واجعل لي في قلبي نوراً ، وفي قبري نوراً ، وفي سمعي نوراً ، وفي بصري نوراً) حتى قال (في شعري وفي بشري ، وفي لحمي ، ودمي ، وعظامي » .

وسئل ، ﷺ ، عن قول الله تعالى (أَفَمَنْ شَرَحَ الله صدرَهُ للاسلام ، فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ) : ما هذا الشرح ؟ فقال :

« هو التوسعة . إن النور إذا قذف به في القلب اتسع له الصدر وانشرح ، وقال ﷺ ، لابن عباس « اللهم فقهه في الدين ، وعلمه التأويل » .

وقال علي رضي الله عنه : ما عندنا شيء ، أسره النبي ﷺ ، إلينا إلا أن يؤتي الله تعالى ، عبدا فهما في كتابه . وليس هذا بالتعلم .

وقيل في تفسير قوله تعالى (يُؤتي الحكمةَ مَنْ يشاءُ)إنه الفهم في كتاب الله تعالى .

وقال تعالى : (ففهمناها سليمان) خص ما انكشف باسم الفهم .

وكان « أبو الدرداء » يقول : المؤمن من ينظر بنور الله ، من وراء ستر رقيق ، والله إنه للحق يقذفه الله في قلوبهم ، ويجريه على ألسنتهم .

وقال بعض السلف ، ظن المؤمن كهانة .

وقال ، ﷺ : « اتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله تعالى » .

وإليه يشير قوله تعالى : (إنَّ في ذلكَ لآياتٍ للمتوسمين) : وقوله تعالى : (قَدْ بَيَّنَّا الآياتِ لقوم يُوقِنون) .

وروى « الحسن » عن رسول الله ﷺ انه قال :

« العلم علمان ، فعلم باطن في القلب ، فذلك ، هو العلم النافع . الخ » .

وسئل بعض العلماء عن العلم الباطن : ما هو ؟ فقال هو : سر من أسرار الله تعالى ، يقذفه الله تعالى في قلوب أحبابه ، لم يطلع عليه ملكا ولا بشرا .

وقد قال ، ﷺ : « إن من أمتي محدثين ، ومعلمين ، ومكلمين ، وإن عمر منهم » .

وقرأ « ابن عباس » ، رضي الله عنهما : « وما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ ولاَ نَبيٍّ ولا محدث» يعني الصديقين .

والمحدث هو الملهم،والملهم : هو الذي انكشف له في باطن قلبه من جهة الداخل ، لا من جهة المحسات الخارجة . والقرآن مصرح : بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف ، وذلك علم من غير تعلم .

وقال الله تعالى : « إنَّ في اختلافِ الليلِ والنَّهارِ ومـا خَلَقَ الله في السمواتِ والأرضِ لآياتٍ لقومٍ يَتَّقُون)خصصها بهم .

وقال تعالى : (هذا بيانٌ للنّاسِ وهُدى وموعظة للمتّقِين) .

وكان « أبو يزيد » وغيره يقول : ليس العالم الذي يحفظ من كتاب ، فإذا نسي ما حفظه صار جاهلا ، وإنما العالم يأخذ علمه من ربه أي وقد شاء ، بلا حفظ ولا درس ، وهذا هو العلم الرباني ، وإليه الاشارة بقوله تعالى (وَعَلَّمناهُ مِنْ لَدُنّا علماً) مع أن كل علم من لدنه ؛ ولكن بعضه بوسائط تعليم الخلق ، فلا يسمى ذلك علما لدنياً ، بل اللدني : الذي ينفتح في سر القلب من غير سبب مألوف من خارج . فهذه شواهد النقل . .

ولو جمع كل ما ورد فيه من الآيات والأخبار والآثار لخرج عن الحصر . وأما مشاهدة ذلك بالتجارب ، فذلك أيضاً خارج عن الحصر . وظهر ذلك على الصحابة والتابعين ومن بعدهم .

وقال « أبو بكر الصديق » رضي الله عنه ، « لعائشة » رضي الله عنها ، عند موته إنما هما أخواك وأختاك . وكانت زوجته حاملا ، فولدت بنتاً . فكان قد عرف قبل الولادة أنها بنت . وقال « عمر » ، رضي الله عنه في أثناء خطبته : يا سارية الجبل . إذ انكشف له : أن العدو قد أشرف عليه ، فحذره لمعرفته

ذلك ، ثم بلوغ صوته إليه من جملة الكرامات العظيمة .

وعن « أنس بن مالك » رضي الله عنه قال : دخلت على « عثمان » رضي الله عنه ـ وكنت قد لقيت امرأة في طريقي ، فنظرت إليها شزراً ، وتأملت محاسنها ـ فقال عثمان رضي الله عنه ، لما دخلت : يدخل عليّ احدكم ، وأثر الزنا ظاهر على عينيه ! أما علمت أن زنا العينين النظر ؟ لتتوبنّ او لأعزرنّك ، فقلت : أوحيٌ بعد النبيّ ، فقال لا ، ولكن بصيرة وبرهان ، وفراسة صادقة .

« وعن أبي « سعيد الخراز » قال : دخلت المسجد الحرام ، فرأيت فقيراً عليه خرقتان : فقلت في نفسي :

هذا واشباهه كلّ على الناس ، فناداني وقال :

(والله يَعْلَمُ ما في أَنْفُسِكُم فاحذروه) فاستغفرت الله في سرّي ، فناداني وقال : (وَهُو الذي يقبلُ التوبةَ عَنْ عبادِهِ) ثم غاب عني ولم أره .

وقال « زكريا بن داود » دخل « أبو العباس بن مسروق » على « أبي الفضل الهاشمي » وهو عليل ، وكان ذا عيال ، ولم يعرف له سبب يعيش به ، قال : فلما قلت في نفسي : من أين يأكل هذا الرجل ؟ قال فصاح بي ، « يا أبا العباس » . رد هذه الهمة الدنية ، فان لله تعالى ألطافاً خفية .

النص الثالث : دليل الكشف [1]

والدليل القاطع (على الكشف) الذي لا يقدر على جحده امران :

أحدهما : عجائب الرؤيا الصادقة ، فانه ينكشف بها الغيب ، وإذا جاز ذلك في النوم ، فلا يستحيل أيضاً في اليقظة . فلم يفارق النوم اليقظة الا في ركود الحواس ، وعدم اشتغالها بالمحسات ، فكم من مستيقظ غائص ، لا يسمع ولا يبصر ، لاشتغاله بنفسه .

الثاني : إخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيب ، وأمور في

(١) الاحياء ص ١٣٨٩ .

المستقبل ، كما اشتمل عليه القرآن . . وإذا جاز ذلك للنبي ، ﷺ ، جاز لغيره : إذ النبي عبارة عن شخص كوشف بحقائق الأمور ، وشغل باصلاح الخلق ، فلا يستحيل ان يكون في الوجود شخص مكاشف بالحقائق ، ولا يشتغل باصلاح الخلق ، وهذا لا يسمى نبياً ، بل يسمى ولياً .

فمن آمن بالأنبياء ، وصدق بالرؤيا الصحيحة ، لزمه لا محالة ، أن يقر بأن القلب له بابان : باب إلى الخارج ، وهو الحواس ، وباب إلى الملكوت من داخل القلب : وهو باب الالهام ، والنفث في الروع ، والوحي .

فإذا أقر ، بهما جميعاً لم يمكنه أن يحصر العلوم في التعلم ، ومباشرة الأسباب المألوفة ، بل يجوز أن تكون المجاهدة سبيلا إليه .

فهذا ما ينبه على حقيقة ما ذكرناه . من عجيب تردد القلب بين عالم الشهادة وعالم الملكوت .

وأما السبب في انكشاف الأمر في المنام بالمثال المحوج إلى التعبير ، وكذلك تمثل الملائكة للأنبياء والأولياء بصور مختلفة ، فذلك أيضاً من أسرار عجائب القلب ، ولا يليق إلا بعلم المكاشفة ، فلنقتصر على ما ذكرناه ، فانه كاف للاستحثاث على المجاهدة ، وطلب الكشف منها ، فقد قال بعض المكاشفين :

ظهر لي الملك ، فسألني أن أملي عليه شيئاً من ذكري الخفي ، عن مشاهدتي من التوحيد ، وقال : ما نكتب لك عملا ، ونحن نحب أن نصعد لك بعمل تتقرب به الى الله عز وجل ، فقلت : ألستما تكتبان الفرائض ؟ قالا : بلى ، قلت : فيكفيكما ذلك .

وهذه إشارة الى أن الكرام الكاتبين ، لا يطلعون ، على أسرار القلب ، وانما يطلعون على الأعمال الظاهرة .

النص الرابع : الفرق بين العلم النظري والعلم الكشفي [1] .

فمهما ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ ، رأى الأشياء فيه ،

---

(١) الاحياء ص ١٣٨١

وتفجر اليه العلم منه ، فاستغنى على الاقتباس من داخل الحواس ، فيكون ذلك كتفجر الماء من عمق الأرض . ومهما أقبل على الخيالات الحاصلة من المحسات ، كان ذلك حجاباً له عن مطالعة اللوح المحفوظ . كما أن الماء اذا اجتمع في الأنهار ، منع ذلك من التفجر في الأرض ، وكما أن من نظر إلى الماء الذي يحكي صورة الشمس لا يكون ناظراً إلى نفس الشمس .

فإذن للقلب بابان : باب مفتوح إلى عالم الملكوت ، وهو اللوح المحفوظ ، وعالم الملائكة . وباب مفتوح الى الحواس الخمس ، المتمسكة بعالم الملك والشهادة.وعالم الشهادة والملك أيضاً ، يحاكي عالم الملكوت نوعاً من المحاكاة .

فأما انفتاح باب القلب الى الاقتباس من الحواس ، فلا يخفى عليك .

وأما انفتاح بابه الداخل إلى عالم الملكوت ، ومطالعة اللوح المحفوظ : فتعلمه علما يقينيا : بالتأمل في عجائب الرؤيا ، واطلاع القلب في النوم على ما سيكون في المستقبل . أوكان في الماضي ، من غير اقتباس من جهة الحواس .

وإنما ينفتح ذلك الباب لمن انفرد بذكر الله تعالى .

قال : ﷺ : « سبق المفردون »

قيل : ومن هم المفردون يا رسول الله ؟

قال : « المتنزهون بذكر الله تعالى ، وضع الذكر عنهم اوزارهم ، فوردوا القيامة خفافاً » .

ثم قال في وصفهم إخباراً عن الله تعالى : « ثم أقبل بوجهي عليهم ، أترى من واجهته بوجهي يعلم أحد أي شيء أريد أن أعطيه ؟ » .

ثم قال تعالى : « أول ما اعطيهم ، أن أقذف النور في قلوبهم فيخبرون عني كما أخبر عنهم » .

ومدخل هذه الأخبار هو الباب الباطن .

فإذن الفرق بين علوم الأولياء والأنبياء ، وبين علوم العلماء والحكماء هذا ، وهو أن علومهم ، تأتي من داخل القلب ، من الباب المنفتح إلى الملكوت وعلم الحكمة يأتي من أبواب الحواس ، المفتوحة إلى عالم الملك .

النص الخامس : الجود الالهي

علوم الله ـ سبحانه ـ لا نهاية لها ، وأقصى الرتب رتبة النبي ، الذي تنكشف له الحقائق ، من غير اكتساب ولا تكلف ، بل بكشف الهي في أسرع وقت .

وبهذه السعادة يقرب العبد من الله تعالى ، قرباً بالمعنى والحقيقة والصفة ، لا بالمكان والمسافة .

ومراقي هذه الدرجات : هي منازل السائرين إلى الله تعالى ، ولا حصر لتلك المنازل ، وإنما يعرف كل سالك منزله الذي بلغه وسلوكه ، فيعرفه ويعرف ما خلفه من المنازل ، فأما ما بين يديه ، فلا يحيط بحقيقته علماً ، لكن قد يصدق به إيماناً بالغيب ، كما أنا نؤمن بالنبوة والنبي ، ونصدق بوجوده ، ولكن لا يعرف حقيقة النبوة إلا النبي .

وكما لا يعرف الجنين حال الطفل ، ولا الطفل حال المميز ، وما يفتح له من العلوم الضرورية ، ولا المميز ، حال العاقل ، وما اكتسبه من العلوم النظرية ، فكذلك لا يعرف العاقل ما افتتح الله على أوليائه من مزايا لطفه ورحمته :
(ما يَفْتَحِ اللهُ للنّاسِ مِنْ رَحمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا) .

وهذه الرحمة مبذولة بحكم الجود والكرم ، من الله سبحانه وتعالى غير مضنون بها على أحد ، ولكن إنما تظهر في القلوب المتعرضة ، لنفحات رحمة الله تعالى ، كما قال ، ﷺ :

(١) الاحياء : ١٣٥٩ .

« إن لربكم في أيام دهركم لنفحات ، ألا فتعرضوا لها » .

والتعرض لها بتطهير القلب ، وتزكيته من الخبث والكدورة ، الحاصلة من الأخلاق المذمومة ، كما سيأتي بيانه :

وإلى هذا الجود الاشارة ، بقوله ﷺ :

« ينزل الله كل ليلة إلى سماء الدنيا فيقول هل من داع ، فأستجيب له ؟» وبقوله عليه الصلاة والسلام ، حكاية عن ربه عز وجل :

« لقد طال شوق الأبرار الى لقائي : وأنا إلى لقائهم أشد شوقاً » .

وبقوله تعالى في الحديث القدسي : « من تقرب إليّ شبراً ، تقربت إليه ذراعاً » .

كل ذلك إشارة إلى ان أنوار العلوم لم تحتجب عن القلوب ، لبخل ، ومنع من جهة المنعم ، تعالى عن البخل والمنع علواً كبيراً .

ولكن حجبت لخبث وكدورة ، وشغل من جهة القلوب ، فإن القلوب كالأواني ، فما دامت ممتلئة بالماء لا يدخلها الهواء ، فالقلوب المشغولة بغير الله ، لا تدخلها المعرفة بجلال الله تعالىٰ . وإليه الاشارة بقوله ، ﷺ : « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء » .

ومن هذه الجملة يتبين أن خاصية الانسان : العلم والحكمة .
وأشرف انواع العلم : هو العلم بالله وصفاته وأفعاله ، فيه كمال الانسان ، وفي كماله سعادته وصلاحه لجوار حضرة الجلال والكمال .

النص السادس [١] : شواهد الشرع في حب العبد لله تعالى :

اعلم أن الأمة مجمعة على أن الحب لله تعالى ، ولرسوله صلى الله عليه وسلم فرض ، وكيف يفرض ما لا وجود له ؟ وكيف يفسر الحب بالطاعة ، والطاعة تبع الحب وثمرته ، فلابد وأن يتقدم الحب ، ثم بعد ذلك يطيع من أحب .

---

(١) الاحياء ص ٢٥٨١

ويدل على اثباته لله تعالى ، قوله عز وجل : « يُحِبّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ » وقوله تعالى « وَالّذِينَ آمَنُوا أشدُّ حبّاً لله » .

وهو دليل على إثبات الحب ، وإثبات التفاوت فيه .

وقد جعل رسول الله ﷺ ، الحب لله من شرط الايمان في أخبار كثيرة ، إذ قال « أبو رزين العقيلي » : يا رسول الله ، ما الايمان ؟ قال : « أن يكون الله ورسوله ، احب إليك مما سواهما » .

وفي حديث آخر :

« لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما » .

وفي حديث آخر :

« لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين » .

وفي رواية « ومن نفسه » .

كيف وقد قال الله تعالى : (قَلْ إنْ كانَ ، آباؤكُم وأبناؤكُمْ وإخوانُكُمْ وأزواجُكُم ، وعشيرَتُكُمْ ، وأموالٌ اقترفْتُمُوها وتجارةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَها ، ومساكِنُ تَرْضَوْنها أحبَّ إلَيْكُمْ مِنَ الله ورسولهِ وجهادٍ في سبيلهِ ، فتربَّصُوا حتَّى يأتي الله بأمره ، والله لا يهدِي القومَ الفاسِقين)[١] .

وإنما جرى ذلك في معرض التهديد والانكار . وقد أمر رسول الله ﷺ ، بالمحبة فقال :

« أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه ، وأحبوني لحب الله إياي » .

ويروى ، أن رجلا قال يا رسول الله ، اني أحبك فقال ﷺ « استعد للفقر » فقال إني احب الله تعالى . فقال : « استعد للبلاء » .

وعن « عمر » رضي الله عنه ، قال : نظر النبي ﷺ ، إلى « مصعب بن عمير » مقبلا وعليه إهاب كبش قد تمنطق به ، فقال النبي ﷺ : « انظروا إلى هذا الرجل الذي نوَّرَ الله قلبه لقد رأيته بين أبويه يغذوانه بأطيب الطعام والشراب ، فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون » .

---

(١) التوبة ٢٤

وفي الخبر المشهور ، أن « ابراهيم » عليه السلام ، فال لملك الموت إذ جاءه لقبض روحه :

« هل رأيت خليلا يميت خليله ؟ فأوحى الله تعالى ، إليه : هل رأيت محباً يكره لقاء حبيبه ؟ فقال يا ملك الموت الآن فاقبض .

وهذا لا يجده إلا عبد يحب الله بكل قلبه . فإذا علم أن الموت سبب اللقاء انزعج قلبه إليه . ولم يكن له محبوب غيره حتى يلتفت إليه .

وفد فال نبيناﷺ في دعائه :

« اللهم ارزقني حبك ، وحب من أحبك ، وحب ما يقربني إلى حبك ، واجعل حبك أحب إلي من الماء البارد » .

وجاء أعرابي إلى النبيﷺ فقال : يا رسول الله ، متى الساعة ؟ فال : « ما أعددت لها ؟ » فقال : ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام الا أني أحب الله ورسوله . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المرء مع من أحب » فال « أنس » فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الاسلام فرحهم بذلك »

وقال « أبو بكر الصديق » رضي الله عنه : « من ذاق من خالص محبة الله تعالى : شغله ذلك عن طلب الدنيا : وأوحشه عن جميع البشر » .

وقال « الحسن » « من عرف ربه أحبه ، ومن عرف الدنيا زهد فيها ، والمؤمن لا يلهو ، حتى يغفل ، فاذا تفكر حزن » .

وقال أبو سليمان الداراني : « إن من خلق الله خلقاً ما يشغلهم الجنان وما فيها من النعيم عنه ، فكيف يشتغلون عنه بالدنيا ؟ » .

ويروى : أن (عيسى) عليه السلام مر بثلاثة نفر ، وفد نحلت أبدانهم ، فقال : ما الذي بلغ بكم ما أرى ؟ فقالوا : الخوف من النار فقال : حق على الله أن يؤمن الخائف ، ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين ، فإذا هم أشد نحولا وتغيراً ، فقال : ما الذي بلغ بكم ما ارى ؟ قالوا : الشوق إلى الجنة ، فقال : حق على الله أن يعطيكم ما ترجون ، ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين .

فإذا هم أشد نحولا وتغيراً كأن على وجوههم المرائي من النور ، فقال ما الذي بلغ بكم ما أرى ؟ قالوا : نحب الله عز وجل ، فقال : أنتم المقربون ، أنتم المقربون ، أنتم المقربون .

وقال عبد الواحد بن زيد : « مررت برجل قائم في الثلج ، فقلت : أما تجد البرد فقال : من شغله حب الله ، لم يجد البرد » .

وعن سري السقطي قال : « تدعى الأمم يوم القيامة بأنبيائها عليهم السلام ، فيقال يا أمة موسى ، ويا أمة عيسى ويا أمة محمد ، غير المحبين لله تعالى ، فإنهم ينادون يا أولياء الله ، هلموا إلى الله سبحانه ، فتكاد قلوبهم تنخلع فرحاً » .

وقال هرم بن حيان : « المؤمن إذا عرف ربه عز وجل ، أحبه وإذا أحبه أقبل إليه ، وإذا وجد حلاوة الاقبال اليه لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة ، ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفترة ، وهي تحسره في الدنيا ، وتروحه في الآخرة » .

وقال يحيى بن معاذ : « عفوه يستغرق الذنوب فكيف رضوانه !؟ ورضوانه يستغرق الآمال ، فكيف حبه ؟ وحبه يدهش العقول ، فكيف وده ؟ ووده ينسي ما دونه فكيف لطفه ؟» .

وفي بعض الكتب : « عبدي : أنا ـ وحقك ـ لك محب ، فبحقي عليك كن لي محباً » .

وقال يحيى بن معاذ « مثقال خردلة من الحب أحب اليّ من عبادة سبعين سنة بلا حب » .

وقال يحيى بن معاذ أيضاً « الهي إني مقيم بفنائك ، مشغول بثنائك ، صغيراً أخذتني اليك ، وسربلتني بمعرفتك ، وأمكنتني من لطفك ، ونقلتني في الأحوال ، وقلبتني في الأعمال : ستراً وتوبة ، وزهداً ، وشوقاً ، ورضا ، وحباً . . تسقيني من حياضك ، وتهملني في رياضك . . ملازماً لأمرك ، ومشغوفاً بقولك ، ولما طر شاربي ، ولاح طائري ، فكيف انصرف

اليوم عنك كبيرا ، وقد اعتدت هذا منك صغيراً ، فلي ما بقيت حولك دندنة ، وبالضراعة إليك همهمة ، لأني محب وكل محب بحبيبه مشغوف وعن غير حبيبه مصروف ». وقد ورد في حب الله تعالى ، من الأخبار والآثار ، ما لا يدخل في حصر حاصر ، وذلك أمر ظاهر ، وإنما الغموض في تحقيق معناه . فلنشتغل به

القسم الثاني

المنقذ من الضلال

لحجة الإسلام الغزالي

بسم الله الرحمن الرحيم

توطِئَـة

الحمد لله ، الذي يفتتح بحمده كل رسالة ومقالة ، والصلاة والسلام على محمد المصطفى ، صاحب النبوة والرسالـة ، وعلـى آلـه ، وأصحابـه ، الهادين من الضلالة .

أما بعد . فقد سألتني [1] أيها الأخ في الدين ، أن أبث إليك غاية العلوم ، وغائلة المذاهب اغوارها .

---

(١) كتب احد المعاصرين للغزالي الذين اتصلوا به وصاحبوه وهو عبد الغافر بن اسماعيل الفارسي المتوفى سنة ٥٢٩ هـ مؤرخاً للامام « الغزالي » فقال : قال « ابو الحسن عبد الغافر ابن إسماعيل الخطيب الفارسي » ، خطيب نيسابور :

« محمد بن محمد بن محمد أبو حامد الغزالي » ، حجة الاسلام والمسلمين ، إمـام أئمـة الدين ، لم تر العيون مثله لساناً وبياناً ، ومنطقاً وخاطراً ، وذكاء وطبعاً ، أخذ طرفاً في صباه بطوس ، من الفقه على الامام « أحمد الراذكاني » ثم قدم نيسابور مختلفاً إلى درس إمام الحرمين في طائفة من الشبان من طوس ، وجدّ ، واجتهد حتى تخرج في مدة قريبة ، وبز الأقران وحمل القرآن ، وصار أنظر أهل زمانه ، وأوحد أقرانه ، في أيام إمام الحرمين ، وكان الطلبة يستفيدون منه ، ويدرس لهم ، ويرشدهم ويجتهد في نفسه ، وبلغ الأمر به إلى أن أخذ في التصنيف .

وكان الامام ـ مع علو درجته . وسمو عبارته ، وسرعة جريه في النطق والكلام ـ لا يصفي نظره إلى « الغزالي » سراً لابائه عليه في سرعة العبارة ، وقوة الطبع ، ولا يطيب له تصديه للتصانيف ، وإن كان متخرجاً به منتسباً إليه ، وهذا لا يخفى من طبع البشر ، ولكنه يظهر التبجح به ، والاعتداد بمكانه ، مظهراً خلاف ما يضمره ، ثم بقي كذلك إلى انقضاء أيام الامام .

خرج من « نيسابور » ، وصار إلى « المعسكر » ، واحتل من نظام الملك محل القبول وأقبل عليه الصاحب لعلو درجته وظهور اسمه ، وحسن مناظرته ، وجريء عبارته . وكانت تلك

الحضرة محط رحال العلماء ، ومقصد الأئمة والفصحاء ، فوقعت « للغزالي » إتفاقات حسنة ، من الاحتكاك بالأئمة ، وملاقاة الخصوم اللدّ ، ومناظرة الفحول ، ومناقدة الكبار ، وظهر اسمه في الآفاق وارتفق بذلك أكمل الارتفاق ، حتى أدت به الحال إلى أن رسم للمصير إلى بغداد ، للقيام بالتدريس في المدرسة الميمونة النظامية بها ، فصار إليها : وأعجب الكل تدريسه ومناظرته ، وما لقي مثل نفسه ، وصار بعد إمامة خراسان ، إمام العراق .

ثم نظر في علم الأصول ـ وكان قد أحكمه ـ فصنف فيه تصانيف ، وجدد المذهب في الفقه ، فصنف فيه تصانيف ، وسبك الخلاف ، فجدد فيه أيضاً تصانيف . وعلت حشمته ودرجته في بغداد حتى كانت تغلب حشمة الأكابر ، والأمراء ودار الخلافة؛ فانقلب الأمر من وجه آخر ظهر عليه بعد مطالعة العلوم الدقيقة ، وممارسة الكتب المصنفة فيها ، وسلك طريق الزهد والتأله ، وترك الحشمة وطرح ما نال من الدرجة ، للاشتغال بأسباب التقوى ، وزاد الآخرة ، فخرج عما كان فيه ، وقصد بيت الله وحج ، ثم دخل الشام ، وأقام في تلك الديار قريباً من عشر سنين : يطوف ، ويزور المشاهد المعظمة ، وأخذ في التصانيف المشهورة ، التي لم يسبق إليها ، مثل : « إحياء علوم الدين » . والكتب المختصرة منه ، مثل الأربعين وغيرها : من الرسائل التي من تأملها علم محل الرجل من فنون العلم .

وأخذ في مجاهدة النفس ، وتدبير الأخلاق ، وتحسين الشمائل ، وتهذيب المعاش ، فانقلب شيطان الرعونة ، وطلب الرياسة والجاه ، والتخلق بالأخلاق الذميمة ، إلى سكون النفس ، وكرم الاخلاق ، والفراغ عن الرسوم والترتيبات ، وتزيا بزيّ الصالحين ، وقصر الأمل ، ووقف الأوقات على هداية الخلق ، ودعائهم إلى ما يعنيهم من أمر الآخرة ، وتبغيض الدنيا والاشتغال بها على السالكين ، والاستعداد للرحيل إلى الدار الباقية ، والانقياد بكل من يتوسم فيه أو يشم منه رائحة المعونة أو التيقظ بشيء من أنوار المشاهدة ، حتى مرن على ذلك ولان .

ثم عاد إلى وطنه ملازماً بيته مشتغلا بالتفكير ، ملازماً للوقت ، مقصوداً تقياً ، وذخراً للقلوب لكل من يقصده ويدخل عليه ، إلى أن أتى على ذلك مدة ، وظهرت التصانيف وفشت الكتب ، ولم تبد في أيامه مناقضة لما كان فيه ، ولا اعتراض لأحد على أمره . حتى انتهت نوبة الوزارة إلى الأجل ، فخر الملك « جمال الشهداء » تغمده الله برحمته ، وتزينت « خراسان » بحشمته ودولته ، وقد سمع وتحقق بمكان « الغزالي » ودرجته ، وكمال فضله وحالته ، وصفاء عقيدته ومعاشرته . فتبرك به وحضره ، وسمع كلامه ، فاستدعى منه : أن لا يبقى نفائسه وفوائده عقيمة ، لا استفادة منها ، ولا اقتباس من أنوارها ، والح عليه كل الالحاح ، وشدد في الاقتراح ، إلى ان أجاب إلى الخروج ، وحمل إلى « نيسابور » ،

وكان الليث غائباً عن عرينه ، والامر خافياً في مستور قضاء الله ومكنونـه ، فأشـير عليه بالتدريس في المدرسة الميمونة النظامية ، عمرها الله ، فلم يجـد بداً من الاذعـان لمولاه ! ونوى بإظهار ما اشتغل به : هداية الشداة ، وإفادة القاصدين ، دون الرجوع إلى ما انخلع عنه ، وتحرر عن رقه ، من طلب الجاه ، ومماراة الأقران ، ومكابرة المعاندين ، وكم قرع عصاه بالخلاف والوقوع فيه والطعن فيما يذريه ويأتيه . والسعاية به والتشنيع عليه ! فما تأثر به . ولا اشتغل بجواب الطاعنين . ولا أظهر استيحاشاً بغميزة المخلطين . ولقـد زرتـه مراراً ، وما كنت أحدث نفسي ما عهدته في سالف الزمان عليه : من الزعارة . وإيحاش الناس . والنظر إليهم بعين الازدراء . والاستخفاف بهم ، كبراً أو خيلاء . واغتراراً بما رزق : من البسطة في النطق ، والخاطر والعبادة . وطلب الجاه ، والعلو في المنزلة . إنه صار على الضد . وتصفى عن تلك الـكدورات . وكنـت أظـن : أنـه متلفـع بجلبـاب التكلف ، متيمن بما صار إليه ، فتحققت ، بعد التروي والتنقير : أن الأمر على خلاف الظنون ، وأن الرجل أفاق بعد الجنون ، وحكى لنا في ليال كيفية أحواله : من ابتداء ما ظهر له : من سلوك طريق التأله ، وغلبة الحالة عليه ، بعد تبحره في العلوم ، واستطالته على الكل بكلامه ، والاستعداد الذي خصه الله به ، في تحصيل أنواع العلوم ، وتمكنه من البحث والنظر ، حتى تبرم من الاشتغـال بالعلـوم الغريبـة ، عن المعاملـة ، وتفـكر في العاقبة ، وما يجدي وما ينفع له في الآخرة . فابتدأ بصحبة « الفارمدى » وأخذ منه استفتاح الطريقة ، وأمثل ما كان يشير به عليه من القيام بوظائف العبادات والامعان في النوافل ، واستدامة الأذكار ، والجد والاجتهاد ، وطلباً للنجاة إلى أن جاز تلك العقبات ، وتكلف تلك المشاق ، وما تحصل على ما كان يطلبه من مقصوده .

ثم حكى أنه راجع العلوم ، وخاض في الفنون ، وعاود الجد والاجتهاد ، في كتب العلوم الدقيقة ، واقتفى تأويلها ، حتى انفتح له أبوابها ، وبقي مدة في الوقائع وتكافؤ الأدلة ، وأطراف المسائل ، ثم حكى : أنه فتح عليه باب من الخوف ، بحيث شغله عن كل شيء ، وحمله على الاعراض عما سواه ، حتى سهل ذلك ، وهكذا إلى ان ارتاض كل الرياضة ، وظهرت له الحقائق ؛ وصار ما كنا نظن به ، تمرساً وتخلقاً ، طبعاً وتحققاً ، وإن ذلك أثر السعادة ، المقدرة له من الله .

ثم سألنـا عن كيفية رغبتـه في الخـروج من بيتـه ، والرجـوع إلى ما دعـي إليه من أمـر « نيسابور » ، فقال معتذراً عنه .

ما كنت أجوز في ديني إلى أن أقف عن الدعوة ، ومنفعة الطالبين بالافادة . وقد حق عليّ أن أبوح بالحق ، وأنطلق به ، وأدعو إليه . وكان صادقاً في ذلك . ثم ترك قبل أن يترك ، وعاد إلى بيته ، واتخذ في جواره مدرسة لطلبة العلم ، وخانقاه للصوفية . وكان قد وزع

أوقاته على وظائف الحاضرين : من ختم القرآن ، ومجالسة أهل القلوب ، والقعود للتدريس ، بحيث لا تخلو لحظة من لحظاته ، ولحظات من معه عن فائدة ، إلى أن أصابته عين الزمان ، وضنت به الأيام على أهل عصره فنقله إلى كريم جواره ، بعد مقاساة أنواع من التقصد والمناوأة من الخصوم ، والسعي به إلى الملوك ، وكفاه الله وحفظه ، وصانه من أن تنوشه أيدي النكبات ، أو ينتهك ستر دينه بشيء من الزلات ، وكانت خاتمة أمره : إقباله على حديث المصطفى ﷺ ، ومجالسة أهله ، ومطالعة الصحيحين : البخاري ومسلم ، اللذين هما حجة الاسلام ، ولو عاش لسبق الكل في ذلك الفن بيسير من الأيام يستفرغه في تحصيله . ولا شك ، أنه سمع الأحاديث في الأيام الماضية ، واشتغل بآخر عمره بسماعها ولم تتفق له الرواية ، ولاضرر فيما خلفه من الكتب المصنفة في الأصول والفروع ، وسائر الأنواع التي تخلد ذكره ، وتقرر عند المطالعين المستفيدين منها : أنه لم يخلف مثله بعده .
مضى إلى رحمة الله ، يوم الاثنين الرابع عشرمن جمادى الآخرة ، سنة خمس وخمسمائة ، ودفن بظاهر قصبة طاران ، والله تعالى يخصه بانواع الكرامة في آخرته ، كما خصه الله بفنون العلم في دنياه بمنه .

ولم يعقب إلا البنات ، وكان له من الأسباب إرثاً وكسباً : ما يقوم بكفايته ، نفقة أهله ، وأولاده ، فما كان يباسط أحداً في الأمور الدنيوية ، وقد عرضت عليه أموال فما قبلها ، وأعرض عنها ، واكتفى بالقدر الذي يصون دينه ولا يحتاج معه إلى التعرض لسؤال ومنال من غيره .

ومما كان يعترض به عليه : وقوع خلل من وجهة النحو يقع في أثناء كلامه ، ورجع فيه فأنصف من نفسه ، وأعترف بأنه مارس ذلك الفن ، واكتفى بما يحتاج إليه في كلامه ، مع أنه كان يؤلف الخطب ، ويشرح الكتب بالعبارات التي تعجز الأدباء والفصحاء عن أمثالها ، وأذن للذين يطالعون كتبه فيعثرون على خلل فيها من جهة اللفظ أن يصلحوه ويعذروه ، فما كان قصده إلا المعاني وتحقيقها ، دون الألفاظ وتلفيقها .

ومما نقم عليه : ما ذكر من الألفاظ المستبشعة بالفارسية في كتاب « كيمياء السعادة والعلوم » ، وشرح بعض الصور والمسائل ، بحيث لا يوافق مراسم الشرع وظاهر ما عليه قواعد الاسلام ، وكان الأولى به والحق أحق ما يقال : ترك ذلك التصنيف والاعراض عن الشرح به ، فإن العوام ربما لا يحكمون أصول القواعد بالبراهين والحجج ، فإذا سمعوا شيئاً من ذلك ، تخيلوا منه ما هو المضر بعقائدهم ، وينسبون ذلك إلى مذهب الأوائل ، على أن المصنف اللبيب إذا رجع إلى نفسه علم أن أكثر ما ذكره : مما رمز إليه إشارة الشرع . وإن لم يبح به ويوجد أمثاله في كلام مشايخ الطريقة مرموزة ، ومصرح بها متفرقة ، وليس لفظ منها إلا وكما يشعر أحد وجوهه بكلام موهم ، فإنه يشعر سائر وجوهه بما وافق عقائد

وأحكي له ما قاسيته في استخلاص الحق ، من بين اضطراب الفرق ، مع تباين المسالك والطرق . وما استجرأت عليه ، من الارتفاع عن حضيض التقليد ، إلى بقاع [1] الاستبصار .

وما استفدته أولا من علم الكلام .

وما اجتويته[2] ثانياً : من طريق أهل التعليم ، القاصرين لدرك الحق على تقليد الامام .

أهل الملة فلا يجب إذن حمله إلا على موافق ، ولا ينبغي أن يتعلق به في الرد متعلق ، إذا أمكنه أن يبين له وجهاً في الصحة ، يوافق الأصول . على أن هذا القدر يحتاج إلى من يظهره ، ويقوم به ، وكان الأولى أن يترك الافصاح بذلك كما تقدم ذكره وليس كل ما ينفرد ويتمشى لأحد تقديره ينبغي أن يظهره ، بل أكثر الأشياء فيما يدرى يطوى ولا يحكى . فعلى ذلك درج الأولون من السلف الصالح ، إبقاء على مراسم الشرع ، وصيانة الدين ، عن طعن الطاعنين . وغيرة المارقين الجاحدين والله الموفق للصواب .

وقد ثبت أنه سمع سنن « أبي داود السجستاني » . عن « الحاكم أبي الفتح الحاكمي الطوسي » . وما عثرت على سماعه ، وسمع من الأحاديث المتفرقة آلافاً من الفقهاء . فما عثرت عليه ما سمعه من كتاب ، مولد النبي ﷺ ، من تأليف « أبي بكر أحمد بن عمرو بن أبي عاصم الشيباني » . رواية الشيخ « أبي بكر أحمد بن الحارث الاصبهاني » الامام عن « أبي محمد : عبد الله بن محمد بن جعفر : بن حيان . ابن المصنف ، وقد سمعه الامام « الغزالي » من الشيخ : « أبي عبد الله محمد بن أحمد الخواري » : خوار طابران ؛ مع ابنيه : الشيخين « عبد الجبار » وعبد الحميد ؛ وجماعة من الفقهاء .

ومن ذلك ما قال : أخبرنا الشيخ « أبو عبد الله بن محمد أحمد الخواري » ؛ أخبرنا « أبو بكر ابن الحارث الاصبهاني » . أخبرنا أبو محمد بن حيان » ؛ أخبرنا « أبو بكر احمد بن عمرو بن أبي عاصم بن إبراهيم بن المنذر الخوارزمي » حدثنا « عبد العزيز بن أبي ثابت » حدثني « الزبير بن موسى » . عن « ابن الحويرث » قال : سمعت « عبد الملك بن مروان » . سأل « قتات بن أشيم الكناني » : أنت أكبر أم رسول الله ﷺ ؟ فقال : رسول الله ﷺ . أكبر مني . وانا أسن منه . ولد رسول الله ﷺ . عام الفيل . وتمام الكتاب في جزء مسموع له (نقله الأستاذ « عبد الكريم عثمان » ، عن الطبقات الكبرى للسبكي ، في كتابه النفيس « سيرة الغزالي ») .

(١) البقاع : ما ارتفع من الأرض .

(٢) تقول : اجتويت البلد إذا كرهت المقام به ، وإن كنت في نعمة .

وما ازدريته ، ثالثاً من طريق التفلسف .

وما ارتضيته ، آخراً : من طريقة التصوف .

وما انجلى لي في تضاعيف تفتيشي عن أقاويل الخلق ، من لباب الحق .

وما صرفني عن نشر العلم ببغداد ، مع كثرة الطلبة .

وما ردني إلى معاودتي ، « بنيسابور » بعد طول المدة .

فابتدرت لاجابتك الى مطلبك ، بعد الوقوف على صدق رغبتك ، وقلت مستعيناً بالله ، ومتوكلا عليه ، ومستوفقاً منه ، وملتجئاً إليه :

اعلموا ـ أحسن الله ، تعالى ، ارشادكم ، وألان للحق قيادكم : ان اختلاف الخلق في الأديان والملل ، ثم اختلاف الأمة في المذاهب ، مع كثرة الفرق ، وتباين الطرق ، بحر عميق ، غرق فيه الأكثرون ، وما نجا منه الا الأقلون ، وكل فريق يزعم أنه الناجي ، و« كل حزب بما لديهم فرحون » وهو الذي وعدنا به سيد المرسلين ، صلوات الله وسلامه عليه ، وهو الصادق المصدوق ، حيث قال : « ستفترق أمتي ثلاثاً وسبعين فرقة الناجية منها واحدة[1] فقد كان ما وعد أن يكون .

ولم أزل في عنفوان شبابي ـ منذ راهقت البلوغ ، قبل بلوغ العشرين ،

---

(١) روي هذا الحديث على اختلاف في متنه ، في عدة كتب ، بعدة أسانيد ولكنه لم يرو في « صحيح البخاري » ولا في « صحيح مسلم » .

وقد قال « ابن حزم » عنه ، إنه لا يصح أصلا من جهة الاسناد .

وقال ابن الوزير « في العواصم والقواصم » : إياك أن تغتر بزيادة كلها في النار إلا واحدة ، فإنها زيادة فاسدة ، ولا يبعد أن تكون من دسيس الملاحدة .

على أنه قد روي هذا الحديث بالخاتمة الآتية ، اثنتان وسبعون في الجنة . وواحدة في النار ، وقال المقدسي في « أحسن التقاسيم » : إن الحديث على هذا الوضع ، أصح إسناداً .

ومع ذلك ، فقد أخذ مؤرخو الأديان أمثال « الشهرستاني » يعدون الفرق التي في النار ، ويتكلفون الوصول بها إلى اثنتين وسبعين فرقة ، مع ان تشعب الفرق واختلاف المذاهب والآراء لا تنتهي حتى تقوم الساعة .

انظر مقدمة كتاب « التبصير في الدين » التي كتبها « الشيخ زاهد الكوثري » رحمه الله تعالى .

الى الآن ، وقد أناف السن على الخمسين : افتحم لجة هذا البحر العميق ، وأخوض غمرته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحذور ، أتوغل في كل مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة ، واتقحم كل ورطة ، واتفحص عن عقيدة كل فرقة ، واستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميز بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع .

لا أغادر باطنياً إلا وأحب أن أطلع على بطانته .
ولا ظاهرياً إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته .
ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته .
ولا متكلما إلا واجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته .
ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على سر صفوته .
ولا متعبداً إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته .
ولا زنديقاً معطلا إلا وأتحسس وراءه ، للتنبه لأسباب جرأته . في تعطيله وزندقته .

وقد كان التعطش الى درك حقائق الأمور ـ دأبي ـ وديدني ؛ من أول امري . وريعان عمري ـ غريزة . وفطرة من الله . وضعتا في جبلتي ، لا باختياري وحيلتي حتى انحلت عني رابطة التقليد ، وانكسرت علي العقائد الموروثة ، على قرب عهد سن الصبا ، إذ رأيت :

صبيان النصارى : لا يكون لهم نشوء إلا على التنصر ؛ وصبيان اليهود ، لا نشوء لهم الا على التهود ، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم الا على الاسلام ، سمعت الحديث المروي عن رسول الله ﷺ حيث قال :

« كل مولود يولد على الفطرة : فأبواه يهودانه . وينصرانه . ويمجسانه » .
فتحرك باطني الى حقيقة الفطرة الأصلية . وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين والأستاذين ، والتمييز بين هذه التقليدات ، واوائلها تلقينات . وفي تمييز الحق منها عن الباطل اختلافات .

فقلت في نفسي : أولا ، إنما مطلوبي ، العلم بحقائق الأمور ، فلا بد من طلب حقيقة العلم : ما هي ؟

فظهر لي : أن العلم اليقيني : هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب . ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم . ولا يتسع القلب لتقدير ذلك . بل الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارنا لليقين ، مقارنة أو تحديا باظهار بطلانه ـ مثلا ـ من يقلب الحجر ذهباً والعصا ثعباناً . لم يورث ذلك شكا وإنكاراً ، فاني إذا علمت . أن العشرة : أكثر من الثلاثة فلو قال لي قائل ، لا بل الثلاثة أكثر . بدليل أني أقلب هذه العصا ثعباناً . وقلبها . وشاهدت ذلك منه . لم أشك ـ بسببه ـ في معرفتي . ولم يحصل لي منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه .

فأما الشك فيما علمته . فلا .

ثم علمت : أن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه . ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين . فهو علم لا ثقة به . ولا أمان معه . وكل علم لا أمان معه ، فليس بعلم يقينيّ .

مدخل السفسطة وجحد العلوم

ثم فتشت عن علومي ، فوجدت نفسي : عاطلا من علم موصوف بهذه الصفة ، الا في الحسيات والضروريات .

فقلت : الان بعد حصول اليأس ، لا مطمع في اقتباس المشكلات الا من الجليات ، وهي الحسيات ، والضروريات : فلا بد من احكامها اولا ، لأتيقن ان ثقتي بالمحسات ، واماني من الغلط في الضروريات : من جنس اماني الذي كان من قبل في التقليدات ، ومن جنس امان اكثر الخلق في النظريات ، ام هو امان محقق لا غدر فيه ، ولا غائلة له .

فاقبلت بجد بليغ ، اتأمل في المحسات والضروريات ، وانظر : هل يمكنني ان اشكك نفسي فيها ؟ فانتهى بي طول التشكيك ، الى ان لم تسمح نفسي بتسليم الامان في المحسات ايضا ، واخذ يتسع هذا الشك فيها ، ويقول : من اين الثقة بالحواس ؟ واقواها حاسة البصر ، وهي تنظر الى الظل ، فتراه واقفا غير متحرك ، وتحكم بنفي الحركة ، ثم بالتجربة والمشاهدة ـ بعد ساعة ـ تعرف : انه متحرك ، وانه لم يتحرك دفعة بغتة ، بل على التدريج ذرة ، ذرة ، حتى لم تكن له حالة وقوف .

وتنظر الى الكوكب ، فتراه صغيرا في مقدار دينار ، ثم الادلة الهندسية تدل على انه اكبر من الارض في المقدار .

هذا ، وامثاله من المحسات يحكم فيها حاكم الحس ، باحكامه ، ويكذبه حاكم العقل ، ويخونه ، تكذيبا لا سبيل الى مدافعته .

فقلت : فد بطلت الثقة بالمحسات ايضا ، فلعله لا ثقة الا بالعقليات ،

التي هي من الاوليات ، كقولنا : العشرة اكثر من الثلاثة ، والنفي والاثبات لا يجتمعان في الشيء الواحد ، والشيء الواحد لا يكون حادثا قديما ; موجودا معدوما ، واجبا محالا .

فقالت الحواس : بم تأمن ان تكون ثقتك بالعقليات : كثقتك بالمحسات وقد كنت واثقاً بي : فجاء حاكم العقل فكذبني ، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقي ، فلعل وراء ادراك العقل حاكما آخر ، اذا تجلى كذب العقل في حكمه ، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس في حكمه ، وعدم تجلي ذلك الادراك ، لا يدل على استحالته !

فتوقفت النفس في جواب ذلك قليلاً ، وايدت اشكالها بالمنام ، وقالت : اما تراك تعتقد في النوم امورا ، وتتخيل احوالا ، وتعتقد لها ثباتا ، واستقرارا ولا تشك في تلك الحالة فيها ، ثم تستيقظ فتعلم : انه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك اصل ، وطائل ؟

فبم تأمن ان يكون جميع ما تعتقده في يقظتك ، بحس او عقل ، هو حق بالاضافة الى حالتك التي انت فيها ، لكن يمكن ان تطرأ عليك حالة تكون نسبتها الى يقظتك : كنسبة يقظتك الى منامك ، وتكون يقظتك نوما بالاضافة اليها ، فاذا وردت تلك الحالة ، تيقنت ان جميع ما توهمت بعقلك خيالات لا حاصل لها .

ولعل تلك الحالة ما تدعيه الصوفية : انها حالتهم ، اذ يزعمون انهم يشاهدون في احوالهم التي لهم اذا غاصوا في انفسهم . وغابوا عن حواسهم ، احوالا لا توافق هذه المعقولات .

ولعل تلك الحالة هي الموت اذ قال رسول الله ﷺ :
« الناس نيام ، فاذا ماتوا انتبهوا » .

فلعل الحياة الدنيا نوم بالاضافة الى الاخرة ، فاذا مات ظهرت له الاشياء على خلاف ما يشاهده الان ، ويقال له عند ذلك :

« فَكَشَفْنا عَنْكَ غطاءكَ فَبَصَرُكَ اليوم حَدِيْدٌ » .

فلما خطرت لي هذه الخواطر ، وانقدحت في النفس ، حاولت لذلك

علاجا فلم يتيسر ، اذ لم يكن دفعه الا بالدليل ، ولم يمكن نصب دليل الا من تركيب العلوم الأولية ، فاذا لم تكن مسلمة ، لم يمكن تركيب الدليل .

فأعضل هذا الداء ، ودام تقريباً من شهرين ، انا فيهما على السفسطة بحكم الحال ، لا بحكم النطق والمقال .

حتى شفى الله تعالى ، من ذلك المرض ، وعادت النفس الى الصحة والاعتدال ، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة ، موثوقا بها على امر ويقين .

ولم يكن ذلك بنظم دليل . وترتيب كلام . بل بنور قذفه الله ، تعالى ، في الصدر . وذلك النور هو مفتاح اكثر المعارف . فمن ظن ان الكشف : موقوف على الادلة المحررة ، فقد ضيق رحمة الله الواسعة : ولما سئل رسول الله ، عليه الصلاة والسلام ، عن « الشرح » ومعناه في قوله تعالى :

« فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صدرَهُ للإسلامِ » . قال :

« هو نور يقذفه الله تعالى في القلب » .

فقيل : « وما علامته ؟ » .

قال : « التجافي عن دار الغرور . والانابة الى دار الخلود » وهو الذي قال عليه الصلاة والسلام ، فيه :

« ان الله تعالى : خلق الخلق في ظلمة . ثم رش عليه من نوره » .

فمن ذلك النور : ينبغي ان يطلب الكشف .

وذلك النور ينبجس من الجود الالهي في بعض الاحايين . ويجب الترصد له . كما قال عليه الصلاة والسلام : « ان لربكم في ايام دهركم نفحات . ألا فتعرضوا لها » .

والمقصود من هذه الحكايات : ان يعمل في كمال الجد في الطلب ، حتى ينتهي الى طلب ما لا يطلب . فان الاوليات ليست مطلوبة ، فانها حاضرة . والحاضر اذا طلب نفر . واختفى : ومن طلب ما لا يطلب لا يتهم بالتقصير في طلب ما يطلب .

اصناف الطالبين

ولما شفاني الله تعالى ، من هذا المرض بفضله . وسعة جوده . انحصرت اصناف الطالبين عندي في اربع فرق :

١ ـ المتكلمون : وهم يدعون انهم : اهل الرأي ، والنظر .

٢ ـ الباطنية : وهم يزعمون انهم : اصحاب التعليم ، والمخصوصون بالاقتباس من الامام المعصوم .

٣ ـ الفلاسفة : وهم يزعمون انهم : اهل المنطق والبرهان .

٤ ـ والصوفية : وهم يدعون انهم : خواص الحضرة . واهل المشاهدة والمكاشفة .

فقلت في نفسي : الحق . لا يعدو هذه الاصناف الاربعة . فهؤلاء هم السالكون سبل طلب الحق . فان شذ الحق عنهم . فلا يبقى في درك الحق مطمع . اذ لا مطمع في الرجوع الى التقليد بعد مفارقته . اذ من شرط المقلد ان لا يعلم انه مقلد . فاذا علم ذلك انكسرت زجاجة تقليده . وهو شعب[1] لا يرأب[2]. وشعث[3] لا يلم بالتلفيق والتأليف . الا ان يذاب بالنار وتستأنف له صنعة اخرى مستجدة .

فابتدرت لسلوك هذه الطريق . واستقصاء ما عند هذه الفرق :

مبتدئا بعلم الكلام .

ومثنياً بطريق الفلسفة .

ومثلثاً بتعليم الباطنية .

ومربعا بطريق الصوفية .

---

(١) الشعب : من الأضداد وهو هنا بمعنى الشق .

(٢) يرأب : يصلح

(٣) شعث : متفرق

١- عِلمُ الكَلامِ
مَقصُودُهُ وَحَاصِلُهُ

مقصوده اني ابتدأت بعلم الكلام ، فحصلته ، وعقلته ، وطالعت كتب المحققين منهم .

وصنفت فيه ما اردت ان اصنف .

فصادفته علما وفيا بمقصوده ، غير واف بمقصودي .

وانما مقصوده ، حفظ عقيدة اهل السنة ، وحراستها عن تشويش البدعة[١] .

---

(١) نرى أن الامام « الغزالي » ـ مع هدمه في النهاية لعلم الكلام ـ كان مجاملا للمتكلمين ، ويسرنا أن نذكر هنا رأي السلف في شيء من الاستفاضة .

قال « ابن عبد البر » ، المتوفى سنة ٤٦٣ في كتاب « جامع بيان العلم وفضله » : نهي السلف ـ رحمهم الله ـ عن الجدال في الله ، جل ثناؤه ، في صفاته ، وأسمائه ، وأما الفقه ، فأجمعوا على الجدال فيه ، والتناظر لأنه علم يحتاج فيه إلى رد الفروع إلى الأصول : للحاجة إلى ذلك ، وليس الاعتقادات كذلك ، لأن الله عز وجل : لا يوصف عند الجماعة : « أهل السنة » إلا بما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسول ﷺ ، أو أجمعت الأمة عليه ، وليس كمثله شيء فيدرك بقياس أو إنعام نظر ، وقد نهينا عن التفكير في الله ، وأمرنا بالتفكير في خلقه الدال عليه .

وعن « مصعب بن عبد الله الزبيري » قال : « كان « مالك بن أنس » يقول : الكلام في الدين أكرهه ، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه ، وينهون عنه ، نحو الكلام في رأي « جهم » ، والقدر ، وما أشبه ذلك ، ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل » .

وقال أيضاً في الكتاب نفسه : « وقال « أحمد بن حنبل » : لا يفلح صاحب كلام أبداً ، ولا نكاد نرى أحداً نظر في الكلام إلا وفي قلبه دغل » .

وقال « مالك » أرأيت إن جاءه من هو أجدل منه ، أيدع دينه كل يوم ، لدين جديد ؟ » .

قال « أبو بكر » : تناظر القوم وتجادلوا في الفقه . ونهوا عن الجدال في الاعتقاد لأنه يؤدي إلى

فقد القى الله تعالى ، الى عباده على لسان رسوله عقيدة هي : الحق ، على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم ، كما نطق بمعرفته القرآن والاخبار .

الانسلاخ من الدين ، الا ترى إلى مناظرة بشر في قوله ، عز وجل : « ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم » حين قال : هو بذاته ، في كل مكان ، فقال له خصمه : فهو في قلنسوتك ، وفي حشك ، وفي جوف حمار ، تعالى الله عما يقول . حكى ذلك « وكيع » رحمه الله ، وأنا والله أكره أن أحكي كلامهم . . . فمن هذا وشبهه نهي العلماء » .

من كتاب « التمهيد » للمرحوم الشيخ « مصطفى عبد الرازق » :

وقد جاء فيه أيضاً عن شيخ الاسلام « الهروي » المتوفى سنة ٤٨١ هـ :

« واخرج عن طريق « عمرو بن شعيب » ، عن أبيه ، عن جده قال : خرج رسول الله ﷺ ، على أصحابه ذات يوم ، وهم يتراجعون في القدر ، فخرج مغضباً حتى وقف عليهم ، فقال : « يا قوم ! بهذا ضلت الأمم قبلكم ، باختلافهم على انبيائهم ، وضربهم الكتاب بعضه ببعض ! وإن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض . ولكن نزل القرآن ، فصدق بعضه بعضاً ، ما عرفتم منه فاعملوا به وما تشابه فآمنوا به » .

وأخرج عن أبي هريرة ، قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ، ونحن نتنازع في القدر ، فغضب ، حتى احمر وجهه ، ثم قال : أبهذا أمرتم ؛ أم بهذا أرسلت إليكم ؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر ، عزمت عليكم ألا تنازعوا .

وأخرج عن « أبي الدرداء » ؛ « وأبي أمامة » ؛ « وأنس بن مالك » ؛ « وواثلة بن الأسقع » قالوا : خرج إلينا رسول الله ﷺ ؛ ونحن نتنازع في شيء من الدين ؛ فغضب غضباً شديداً ؛ لم يغضب مثله . ثم انتهرنا ؛ قال : يا أمة « محمد » ! لا تهيجوا على أنفسكم ثم قال : أبهذا أمرتكم ؛ أو ليس عن هذا نهيتكم ؟ إنما هلك من كان قبلكم بهذا . ثم قال ذروا المراء لقلة خيره ؛ ذروا المراء ؛ فان نفعه قليل ؛ ويهيج العداوة بين الاخوان ؛ ذروا المراء ؛ فان المراء لا تؤمن فتنته ، ذروا المراء ، فان المراء يورث الشك ، ويحبط العمل ، ذروا المراء فان المؤمن لا يماري ، ذروا المراء ، فكفى بك إثماً ، ألا تزال ممارياً ، ذروا المراء فان المماري لا أشفع له يوم القيامة ، ذروا المراء ، فأنا زعيم بثلاثة أبيات في الجنة : في وسطها ، وربضها ، وأعلاها لمن ترك المراء ، وهو صادق ذروا المراء فانه أول ما نهاني الله عنه بعد عبادة الاوثان ، وشرب الخمر ، ذروا المراء فان الشيطان قد يئس من أن يعبد ، ولكن رضي بالتحريش ، وهو المراء في الدين ، ذروا المراء ، فان بني إسرائيل : افترقوا على إحدى وسبعين فرقة ، والنصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وإن أمتي ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلهم على الضلالة ، إلا السواد الأعظم ، قالوا : يا رسول الله ، ومن السواء الاعظم ؟ قال : من كان على ما أنا عليه وأصحابي ، ثم قال : إن الاسلام بدأ غريباً ، وسيعود غريباً ، فطوبى للغرباء ، قالوا : يا رسول الله ، ومن الغرباء ؟ قال : الذين يصلحون إذا فسد الناس ، ولا يمارون في دين الله » ا. هـ .

ثم القى الشيطان في وساوس المبتدعة امورا مخالفة للسنة ، فلهجوا بها ، وكادوا يشوشون عقيدة الحق على اهلها .

فأنشأ الله تعالى ، طائفة المتكلمين ، وحرك دواعيهم لنصرة السنة بكلام مرتب ، يكشف عن تلبيسات اهل البدعة المحدثة على خلاف السنة المأثورة ، فمنه نشأ علم الكلام واهله [1] .

فلقد قام طائفة منهم بما ندبهم الله تعالى اليه ، فاحسنوا الذبّ عن السنة ، والنضال عن العقيدة المتلقاة بالقبول من النبوة ، والتغيير في وجه ما احدث من البدعة .

---

(١) تحدث الامام « الغزالي » عن علم الكلام غير مرة في كثير من كتبه . وتحدث في « الاحياء » عن الآراء في كونه حلالا أم حراماً ، ثم قال :

وإلى التحريم ذهب « الشافعي » و « مالك » و « أحمد بن حنبل » و « سفيان » وجميع أهل الحديث من السلف .

قال « ابن عبد الأعلى » رحمه الله : سمعت « الشافعي » رضي الله عنه ، يوم ناظر « حفصا الفرد » ، وكان من متكلمي « المعتزلة » يقول : لأن يلقى الله عز وجل ، العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير له من أن يلقاه بشيء من علم الكلام . ولقد سمعت من « حفص » كلاماً لا أقدر أن أحكيه .

وقال أيضاً : قد اطلعت من أهل الكلام على شيء ما ظننته قط ، ولأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه ما عدا الشرك ، خير له من أن ينظر في الكلام :

وحكى « الكرابيسي » : أن « الشافعي » رضي الله عنه سئل عن شيء من الكلام ، فغضب ، وقال : سل عن هذا « حفصا الفرد » وأصحابه أخزاهم الله .

ولما مرض « الشافعي » رضي الله عنه ، دخل « حفص الفرد » : فقال له من أنا ؟ فقال « حفص الفرد » : « لا حفظك الله ، ولا رعاك حتى تتوب مما أنت فيه .

وقال أيضاً : « لو علم الناس ما في الكلام من الأهواء ، لفروا منه فرارهم من الأسد » .

وقال أيضاً : « إذا سمعت الرجل يقول : الاسم هو المسمى أو غير المسمى فاشهد بأنه من أهل الكلام ، ولا دين له » .

قال « الزعفراني » : قال « الشافعي » : « حكمي في أصحاب الكلام ، أن يضربوا بالجريد ويطاف بهم في القبائل والعشائر ، ويقال : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة ، وأخذ الكلام » .

ولكنهم اعتمدوا في ذلك على مقدمات تسلموها من خصومهم ، واضطرهم الى تسليمها : اما التقليد ، او اجماع الامة ، او مجرد القبول من القرآن والاخبار .

وكان اكثر خوضهم في استخراج مناقضات الخصوم ، ومؤاخذاتهم بلوازم مسلماتهم ، وهذا قليل النفع في حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئا اصلا .

وقال « أحمد بن حنبل » : لا يفلح صاحب الكلام أبداً ، ولا تكاد ترى أحداً نظر في الكلام إلا وفي قلبه دغل » وبالغ في ذمه حتى هجر « الحارث المحاسبي » مع زهده وورعه ، بسبب تصنيفه كتاباً في الرد على المبتدعة ، وقال له : الست تحكي بدعتهم أولا ، ثم ترد عليهم ؟ ألست تحمل الناس بتصنيفك على مطالعة البدعة ، والتفكر في تلك الشبهات ، فيدعوهم ذلك إلى الرأي والبحث .

وقال « أحمد » ، رحمه الله : « علماء الكلام زنادقة » .

وقال « مالك » ، رحمه الله : أرأيت إن جاءه من هو أجدل منه ، أيدع دينه كل يوم لدين جديد ؟ يعني أن أقوال المتجادلين تتفاوت .

وقال « مالك » رحمه الله أيضاً : « لا تجوز شهادة أهل البدع والأهواء » .

فقال بعض أصحابه في تأويله : إنه أراد بأهل الأهواء أهل الكلام ، على أي مذهب كانوا .

وقال « أبو يوسف » . « من طلب العلم بالكلام تزندق » .

وقال الحسن : « لا تجادلوا أهل الأهواء ، ولا تجالسوهم ، ولا تسمعوا منهم » . وقد اتفق أهل الحديث من السلف على هذا .

ولا ينحصر ما نقل عنهم من التشديدات فيه .

وقالوا : « ما سكت عنه الصحابة ـ مع أنهم أعرف بالحقائق ، وافصح بترتيب الألفاظ من غيرهم ـ إلا لعلمهم بما يتولد منه من الشر ، لذلك قال النبي ﷺ :

« هلك المتنطعون ، هلك المتنطعون ، هلك المتنطعون » أي المتعمقون في البحث والاستقصاء جدلا .

واحتجوا أيضاً ، بان ذلك لو كان من الدين ، لكان ذلك أهم ما يأمر به رسول الله ﷺ ، ويعلم طريقه ، ويثني عليه وعلى أربابه : فقد علمهم الاستنجاء ، وندبهم إلى علم الفرائض ، وأثنى عليهم ، ونهاهم عن الكلام في القدر وقال : « امسكوا عن القدر » وعلى هذا استمر الصحابة رضي الله عنهم . فالزيادة على الأستاذ طغيان وظلم ، وهم الأستاذون والقدوة ، ونحن الأتباع ، والتلامذة .

فلم يكن الكلام في حقي كافيا . ولا لدائي الذي كنت اشكوه شافيا [1] .

نعم ، لما نشأت صنعة الكلام ، وكثر الخوض فيه . وطالت المدة تشوق المتكلمون الى محاولة الذبّ عن السنة بالبحث عن حقائق الامور . وخاضوا في البحث عن الجوهر والاعراض واحكامها . لكن لما لم يكن ذلك مقصود علمهم لم يبلغ كلامهم فيه الغاية القصوى . فلم يحصل منه ما يمحو ـ بالكلية ـ ظلمات الحيرة في اختلافات الخلق .

ولا ابعد ان يكون قد حصل ذلك لغيري ، بل لست اشك في حصول ذلك لطائفة ، ولكن حصولا مشوبا بالتقليد في بعض الامور التي ليست من الاوليات .

والغرض الان : حكاية حالي ، لا الانكار على من استشفى به . فان ادوية الشفاء تختلف باختلاف الداء . وكم من دواء ينتفع به مريض . ويستضر به آخر .

---

(١) وتحدث الامام « الغزالي » في « الاحياء » أيضاً عن منفعة علم الكلام وفائدته معبراً بهذا النص عن رأيه الخاص فقال :

وأما منفعته فقد يظن أن فائدته ، كشف الحقائق ، ومعرفتها على ما هي عليه . وهيهات ، فليس في الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف ، ولعل التخبط والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف ، وهذا إذا سمعته من محدث ، أو حشوي ربما خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا ، فاسمع هذا ممن خبر الكلام ، ثم قلاه بعد حقيقة الخبرة ، وبعد التغلغل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين وجاوز ذلك إلى التعمق في علوم أخر تناسب نوع الكلام ، وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود .

٢ـ الفَلْسَفَـة

أحاصيلها : ما يذم منها ، وما لا يذم . وما يكفر قائله ، ولا يكفر ، وما يبدع فيه ، وما لا يبدع ، وبيان ما سرقـوه من كلام أهـل الحـق ، ومزجـوه بكلامهم لترويج باطلهم في درج ذلك ، وكيفية حصول نفـرة النفـوس من ذلك الحـق ، وكيفية استخـلاص صراف الحـق الخـالص ، من الـزيف والبهرج : من جملة كلامهم .

ثم إني ابتدأت ـ بعد الفراغ من علم الكلام ـ بعلم الفلسفـة ، وعلمت يقيناً : أنه لا يقف على فساد نوع من العلوم ، من لا يقف على منتهى ذلك العلم ، حتى يساوي أعلمهم في أهل ذلك العلم ، ثم يزيد عليه ، ويجاوز درجته ، فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم ، من غوره وغائله ، وإذ ذاك يمكن أن يكون ما يدعيه من فساده حقاً .

ولم أر أحداً من علماء الاسلام صرف عنايته وهمته إلى ذلك .

ولم يكن في كتب المتكلمين من كلامهم ـ حيث اشتغلوا بالرد عليهم ـ إلا كلمات معقدة ، مبددة ، ظاهرة التناقض والفساد ، لا يظن الاغترار بها بعاقل علمي ، فضلا عمن يدعي دقائق العلوم . فعلمت : أن رد المذهب قبل فهمه والاطلاع على كنهه : رمي في عماية .

فشمـرت عن ساق الجـد في تحصيل ذلك العلـم . من الكتـب ، بمجـرد المطالعة ، من غير استعانة بأستاذ ، وأقبلت على ذلك في أوقات فراغـي من التصنيف والتدريس في العلوم الشرعية ، وأنا ممنوٌّ بالتدريس والافادة لثلاثمائة نفس من الطلبة ببغداد .

فأطلعني الله سبحانه وتعالى ، بمجرد المطالعة في هذه الأوقات المختلسة على منتهى علومهم ، في أقل من سنتين ، ثم لم أزل أواظب على التفكير فيه بعد فهمه ، قريباً من سنة ، أعاوده وأردده ، وأتفقد غوائله ، وأغواره ، حتى اطلعت على ما فيه : من خداع ، وتلبيس ، وتحقيق ، وتخييل ، اطلاعاً لم أشك فيه .

فاسمع الآن حكايته ، وحكاية حاصل علومهم : فإني رأيتهم أصنافاً ، ورأيت علومهم أقساماً ، وهم - على كثرة أصنافهم - يلزمهم - وصمة الكفر والإلحاد ، وإن كان بين القدماء منهم والأقدمين ، وبين الأواخر منهم والأوائل تفاوت عظيم ، في البعد عن الحق ، والقرب منه .

---

(١) مبتلى

أصناف الفلاسفة

وشمول وصمة الكفر كافتهم

اعلم : أنهم على كثرة فرقهم ، واختلاف مذاهبهم - ينقسمون إلى ثلاثة أقسام :

الدهريون .

والطبيعيون .

والالهيون .

الصنف الأول : الدهريون[1] وهم طائفة من الأقدمين : جحدوا الصانع

---

(١) بعد أن ذكر « سنتلانا » كلام « اليعقوبي » « والغزالي » عن الدهرية قال : « فإنا لو حاولنا استنباط الأصول التي اعتمدها « اليعقوبي » « والغزالي » فيما ذكراه في حق الدهرية وجدنا « أرسطو » يقول في كتاب : « السماء والعالم » حاكياً عن « أنباذوقليس » :

(إن هذا العالم لم يحدثه أحد من الآلهة ، ولا من البشر ، بل كان أبداً . ا هـ .

ثم قال (أرسطو) في المقدمة الثالثة من كتاب (السماء) ما نصه :

(أما من ذهب إلى قول (أنبا ذوقليس) (وديموقريطس) فإنه قال : إن الأركان لم تحدث باستحالة بعضها في بعض ، بل لا حدوث إلا في الظاهر ، فإنها موجودة على حدتها . فتفرق بعد الاجتماع . ا هـ

ثم قال في كتاب : (الفساد والتكوين) في المقالة الأولى : وعندهم . أن الأركان إذا اجتمعت فقد تحدث الأجسام ، وإذا افترقت فسدت الأجسام . وعندهم أيضاً : أن الوجود لا يصير أبداً إلى العدم . ا هـ .

وقال (ديوجانس) في تاريخ الحكماء : ورأيهم أن العدم لا يحدث منه شيء وأن الوجود لا يصير إلى العدم . ا هـ .

فإذا ما قابلنا هذه النصوص بما في تاريخ (اليعقوبي) ، وجدناها مطابقة ، فصلا فصلا ،

المدبر[1] العالم القادر ، وزعموا : أن العالم : لم يزل موجوداً ، كذلك

لما ذكره من مذهب الدهريين .
فتقرر حينئذ : أن الدهرية عند العرب : هم شيعة (ديموقريطس) و (أنباذوقليس) وأن الطبيعيين : هم بقية الأقدمين من الفلاسفة .
ومذهب (ديموقريطس) : هو الغاية القصوى في فلسفة اليونان أواخر العصر الأول .
اقتبس منه الأشاعرة قولهم بالجزء الذي لا يتجزأ .
ومنه اخذ (النظام) من متكلمي (المعتزلة) قوله بالكون . .
ومنه أخذ جم غفير من الملاحدة والطبيعيين قولهم في إنكار الباري ووحدة الوجود .

فمن طابق قول (ديموقريطس) بما عليه الطبيعيون من الفلاسفة في عصرنا هذا لما وجد بين القولين تفاوتاً ، اللهم إلا ما نشأ عن تقدم العلوم في زماننا .
والحق : أن من اقتصر على الطبيعيات ، ولم يقل بغير المحسات : لا يسعه إلا الاقتفاء والتحلي بشعائرهم . مع أن من تبصر في عواقب الأمور تحقق : ان مثل هذا الرأي : لا يفضي ، في كل زمان ، إلا لانكار الحقائق وهدم دعائم العقل . . ا هـ (سنتلانا) المذاهب الفلسفية ، مخطوط مكتبة الجامعة) .

(١) إن الحقيقة التي لا جدال فيها هي : أن الأغلبية العظمى من الفلاسفة ومن العلماء في جانب الايمان .
والالحاد في جو الفلاسفة ، وجو العلماء شذوذ .
ومما لا شك فيه أن عباقرة الفلسفة : القدماء منهم والمحدثين : مؤلهون .
(فسقراط) . و (أفلاطون) . و (أرسطو) . و (أفلوطين) . و (ديكارت) من المؤلهين .
وإذا كان الالحاد الفلسفي شذوذاً . فإن ذلك لا ينفي أنه حقيقة موجودة ، وأن له ممثلين باستمرار ، وهم ـ على حد تعبير الامام « الغزالي ـ » « جحدوا الصانع المدبر » العالم القادر وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه ، وبلا صانع ، ولم يزل الحيوان من النطفة ، والنطفة من الحيوان ، كذلك كان . وكذلك يكون أبداً »
و (ديموقريطس) في العهد اليوناني هو الذي حاول بكل جهده أن يقيم من الالحاد مذهباً ! وكانت فكرته هي :

أن المادة قديمة ، وهي مركبة من أجزاء لا تتجزأ . وهذه الأجزاء ، أو الذرات ؛ دائمة التحرك في الفضاء (اللانهائي) . ومن اجتماعها تتكون الأجسام وباقترافها تفنى . وهكذا استمر الأمر من الأزل ، وسيبقى إلى الأبد ، بدون غاية ولا هدف : إنها الآلية البحتة .
وهذه الفكرة : وإن كانت قديمة ، فإنها فكرة كل من يتخذ الالحاد مذهباً في العصور

بنفسه ، وبلا صانع ، ولم يزل الحيوان من النطفة ، والنطفة من الحيوان ،

الحديثة ، وإن اختلفت كيفيات التعبير عنها .

إنها فكرة الماديين المحدثين ، كما كانت فكرة الماديين القدماء ، ولم يغير من جوهرها تحطيم الذرة أو تفتيتها ، اللهم إلا في كيفية التعبير عنها .

وقد رد القدماء في سهولة وفي قوة على هذا المذهب : وكذلك فعل المحدثون وكانت حجتهم ، من الدقة ومن الاحكام ، بحيث تجعل المتأمل فيها لا يتأتى له أن يقول بغيرها .

وقد لخص حجج القدماء الأستاذ (سانتلانا) في المخطوط المعنون بعنوان : (المذاهب الاسلامية) . . ونحن نورد تلخيصه الرائع فيما يلي :

(ا) وأما القول بالطبيعة . وأن لا شيء غيرها : فهو لا يرضي العاقل المتبصر ! كأنه يقول :

نعم أنا لا أنازع في كون الطبيعة والحركة : من أصول الموجودات ، وإنما توقفت في كيفية صدور الفعل منها .

فلو لم يكن هناك مادة تتحرك من الأبد إلى الأبد ، فمن أين حصل لهذا العالم هذا النظام العجيب ، والترتيب الغريب ، الذي حاولت فيه العقول ، وقصرت عن إدراكه الفحول .

كيف ينسب ذلك إلى الاتفاق والصدفة ، ومجرد البحث ؟ ليت شعري ، كيف اجتمعت تلك الأجزاء ؟ وكيف تألفت على اختلاف أشكالها وتباين موادها وقواها ؟!! وكيف بقيت على تألفيها ؟! وكيف تجددت على نمط واحد المرة بعد المرة ؟!

وقد شهدت المعاينة : بأن حركات أجزاء لا نهاية لها ولا محرك لا تفضي إلا إلى غاية الالتباس وعدم القيام !

هذا لعمري ، كمثل من وضع حروف المعجم في ظروف ، أو صندوق ، ثم جعل يحركها يوماً بعد يوم ، طمعاً منه أنها تتألف من تلقاء نفسها ، فيتركب منها قصيدة بليغة ، أو رسالة عميقة في المنطق أو كتاب في الهندسة دقيق !!

أليس ذلك من السفه البين ، فإنه لو دام على تحريكها السنين والدهور لما حصل من كده إلا على حروف !!

فكيف يتصور حدوث هذا الوجود (العالم) بما هو عليه من الاتقان والاحكام وتصافر الاجزاء . وعجيب مناسباتها بعضها لبعض . من حركات إتفاقية في خلاء لا نهاية له ؟!!

قال (أرسطو) في كتاب : (سمع الكيان)

« إن كل نظام يدل على وجود العقل » .

(ب) وفضلا عن هذا فإن ما يحصل اتفاقاً لا يحصل إلا مرة واحدة . ولا يتكرر ولا يسوغ بناء حكم عقلي عليه ، ولا يقبل القياس ، بخلاف ما شهدت به التجربة في عالمنا من الثبوت . ولولا هذا لما أمكن إنشاء علم من العلوم الرياضية والطبيعة .

كذلك كان ، وكذلك يكون أبداً . وهؤلاء هم الزنادقة[1]

(ح) هذا ، وإذا فرضنا وجود مجرد الطبيعة ، ولا شيء سواها فمن أين هذه القوة العقلية التي يجدها كل واحد من نفسه ؟!

وهي ـ مع ما فيها ، من العجز ، والقصور وكثرة الخطأ ـ من أظهر هذه الشواهد على وجود ما يخالف مجرد المادة في هذا العالم .

ولا سبيل من المادة إلى الأفعال العقلية ، لما بينهما من المغايرة الأصلية .

فوجود هذه القوة يستدعي وجود جوهر يجانسها ، ويماثلها ، ليكون أصلا لها ومركزاً .

هل يحتمل ، ما نشاهده من تصور المعقولات ، والكشف عن الكليات وتفريق القضايا وتركيب القياسات ، ليس هو ، في نفس الأمر ، إلا اصطكاك جزء من المادة بجزء آخر !

هل يحتمل ، أن ما تضمنته عقولنا ، من الأبحاث الدقيقة ، والمآخذ العميقة كالمنطق ، والرياضيات ، والالهيات ، وما فتنت به القلوب ، من الشعر الرائق والمطرب من الألحان ، وسحر البيان ، أصله من تلك الأجزاء .

وكانبعاث النار من اصطكاك الحجر بالحجر وذلك في خصوص النار ، إذ ليس بين مادة النار ومادة الحجر فرق كبير .

(د) إن المادة غير قادرة على أن تكون علة نفسها . فمن باب أحرى وأولى أنها لا تكون علة لما هو أعلى منها مكاناً ؛ وأهم شأناً ، في درجة الوجود ، وإلا كان الأخس أصلا لما هو أرفع ، وهذا ما تبعده وتأنفه الفطرة السليمة .

(١) يقول « سنتلانا » أيضاً .

(من تبصر في عواقب الأمور تحقق ، أن مثل هذا الرأي لا يفضي في كل زمان إلا إلى إنكار الحقائق ، وهدم دعائم العقل ، كيف لا ومن قال : إنه ليس في الوحود إلا المحس ولا شيء سواه ، كيف يمكن له أن يحكم بالوجود ؟

وقد أصاب المحقق « ناصر الدين الطوسي » في شرح « المحصل » حيث قال نقلا عن « أرسطو » وغيره :

الحس إدراك فقط .

والحكم تأليف بين مدركات بالحس ، أو بغير الحس .

وليس من شأن الحس التأليف الحكمي ، لأنه إدراك فقط ، فلا شيء من الأحكام محسة أصلا ، فإذن كل ما هو محس لا يمكن أن يوصف من حيث كونه محساً ، بكونه يقينياً أو غير يقيني ، أو حقاً ، أو باطلا ، أو صواباً أو خلطاً ، فإن جميع هذه الأوصاف من لواحق الاحكام اهـ . وهو واضح لمن تحقق ما هية الحس . وأنه مقصور بالضرورة على خصوص المدرك لا يتعداه

والصنف الثاني : الطبيعيون : وهم قوم أكثروا بحثهم : عن عالم الطبيعة وعن عجائب الحيوان والنبات .

وأكثروا الخوض في علم تشريح أعضاء الحيوانات .

فرأوا فيها من عجائب صنع الله تعالى ، وبدائع حكمته ، ما اضطروا معه الى الاعتراف بفاطر حكيم . مطلع على غايات الأمور ومقاصدها . ولا يطالع التشريح وعجائب منافع الأعضاء مطالع إلا ويحصل له هذا العلم الضروري بكمال تدبير الباقي لبنية الحيوان . لاسيما بنية الانسان .

إلا أن هؤلاء لكثرة بحثهم عن الطبيعة ـ ظهر عندهم ـ لاعتدال المزاج ـ تأثير عظيم في قوام قوى الحيوان به . فظنوا أن القوة العاقلة من الانسان تابعة لمزاجه أيضاً ، وأنها تبطل ببطلان مزاجه فينعدم . ثم اذا انعدم . فلا يعقل إعادة المعدوم ، كما زعموا . فذهبوا الى أن النفس تموت ولا تعود . فجحدوا الآخرة . وأنكروا الجنة والنار ، والحشر ، والنشر ، والقيامة ، والحساب فلم يبق عندهم للطاعة ثواب ، ولا للمعصية عقاب . فانحل عنهم اللجام وانهمكوا في الشهوات إنهماك الأنعام .

وهؤلاء أيضاً زنادقة . لأن أصل الايمان هو : الايمان بالله . واليوم الآخر وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر . وإن آمنوا بالله وصفاته .

الصنف الثالث : الالهيون : وهم المتأخرون منهم مثل « سقراط »[1] وهو

على أن المدرك والمدرك لا زالا يتغيران فكيف يحكم به على غيره ؟ وكيف نبني عليه حكماً عقلياً ؟ وكيف نبني على حقيقته ؟ إذ كل ذلك موقوف على ما هو غير الحس . فاني إذا تصورت مثلا أني قد سمعت الصوت فقد تجاوزت حد الادراك الحسي ، وأدخلت فيه حكماً عقلياً ليس له بالحس تعلق .

فكل فلسفة مقصورة على مجرد الحس لا يكون منها حينئذ إلا الشك في الحقائق ، كما وقع في « اليونان » أثناء القرن الرابع قبل الميلاد .

(١) « سقراط » من أشهر فلاسفة الاغريق ومؤسس فلسفة الأخلاق ، وإلى مدارسه الأخلاقية التي شادها تلاميذه من بعده ترجع أكثر الفكر الاخلاقية التي عرفتها فلسفات العصور حتى عصرنا هذا .

عاش في القرن الخامس قبل الميلاد وجاهد في سبيل الحق حتى لقي مصرعه على أيدي

أستاذ « أفلاطون » و « أفلاطون » أستاذ « ارسطاطاليس » .

و « ارسطاطاليس » هو الذي رتب لهم المنطق ، وهذب لهم العلوم . وحرر لهم ما لم يكن محرراً من قبل ، وأنضج لهم ما كان فجاً من علومهم .

وهم بجملتهم . ردوا على الصنفين الأولين من الدهرية ، والطبيعية .

حاسديه ، من انصار الباطل . فكان مصرعه مأساة دامية ، لا تزال حتى اليوم تثير أشجان أنصار الحق في كل زمان ، ومكان ، وتوحي الى أنفسهم بأسمى مثل البطولة والشجاعة والثبات على الحق .

ومنهجه في البحث مشهور . والحديث التالي يعطينا صورة منه ، وقد جرى بينه وبين (أرسطو ديموس) الذي كان ينكر الاله . ومنه نستبين أيضاً بعض أفكاره .

قال سقراط أفي الناس من يعجبك براعته في الصنائع ؟ فقال :

نعم . وسمى من الشعراء والمصورين ممن كان يعده أبرع من غيره .

فقال « سقراط » : أيهما عندك أرفع شأناً ؟ أمن يصنع التماثيل العارية عن الحركة والعقل ؟ أم من يصور الأشباح الحية المتحركة ؟

فقال : من يصنع الصور الحية . اللهم إلا إذا كانت تلك الصور من عمل المصادفة والاتفاق ، لا من عمل العقل .

قال سقراط : إذا فرضنا أشياء لا يظهر المقصود منها ، وأشياء أخرى بينة القصد والمنفعة ، فما قولك في تلك الاشياء ؟ ما هي التي عندك من فعل العقل ، وما هي التي عندك من فعل الاتفاق ؟

قا : لا شك أن ما ظهر قصده ومنفعته من فعل العقل .

قال « سقراط » أو لست ترى أن صانع الانسان في أول نشأته جعل له آلات الحس . لما في تلك الآلات من المنفعة الظاهرة ؟ : فأعطاه البصر ، والاذنين : ليبصر ويسمع ما يكون لعيشه صادقاً . وما فائدة الروائح لو لم تكن لنا الخياشيم . وكيف ندرك المطاعم ونفرق بين المر والحلو والمز ، لو لم يكن لنا لسان نذوق به . إن عصرنا معرض للآفات : أو لست ترى كيف اعتنت القدرة الالهية بذلك ؟ فجعلت الاجفان كالابواب لتمنع ما يصيب البصر ، وجعلت الاهداف كالمناخل . لتقيها من أضرار الرياح . وما قولك في آلة السمع ، وهي تقبل جميع الاصوات ولا تمتلىء أبداً ، أما رأيت الحيوانات ، كيف رتبت اسنانها المقدمة ، وأعدت لقطع الاشياء فتلقيها إلى الاضراس فتدقها دقاً .

فاذا تأملت في ترتيب ذلك أيمكنك أن تشك : هل هي من فعل الاتفاق أم مَن فعل العقل ؟

قال « أرسطو ديموس » : نعم إذا تفكرنا في ذلك ، لا نشك في أنها من فعل صانع حكيم كثير العناية بمصنوعاته (من مخطوط « سنتلانا ») .

وأوردوا في الكشف عن فضائحهم ما أغنوا به غيرهم . وكفى الله المؤمنين القتال بتقاتلهم .

ثم رد « أرسطاطاليس » على « أفلاطون[1] » و « سقراط » ومن كان قبله من الالهيين . رداً لم يقصر فيه حتى تبرأ عن جميعهم . إلا أنه استبقى أيضاً من رذائل كفرهم وبدعتهم بقايا . لم يوفق للنزوع عنها . فوجب تكفيرهم . وتكفير شيعتهم من المتفلسفة الاسلاميين « كابن سينا » و « الفارابي » وأمثالهما .

على أنه لم يقم بنقل علم : « أرسطاطاليس »[2] أحد من متفلسفة الاسلاميين كقيام هذين الرجلين ، وما نقله غيرهما ليس يخلو عن تخبيط وتخليط ، يتشوش فيه قلب المطالع ، حتى لا يفهم : وما لا يفهم : كيف يرد أو يقبل ؟ ومجموع ما صح عندنا من فلسفة « أرسطاطاليس » بحسب نقل هذين الرجلين ، ينحصر في ثلاثة أقسام :

١ ـ قسم يجب التكفير به .
٢ ـ وقسم يجب التبديع به .
٣ ـ وقسم لا يجب إنكاره أصلا ، فلنفصله .

---

(١) فيلسوف يوناني ولد ٤٢٩ ، وتوفي سنة ٤٧٣ ق . م . ويطلق عليه (أفلاطون الالهي) ذلك لأن الروحانية : تحتل من فلسفته المركز الرئيسي .

ونظريته في (المثل) وعلى رأسها (مثال الخير) مشهورة وقد ترجم من كتبه إلى العربية حديثاً بعض المحاورات ، وكتاب (الجمهورية) .

(٢) « أرسطو » (٣٨٤ ـ ٢٢٢ ق . م) هو اعلم فلاسفة اليونان الأقدمين ، ويعده بعض الناس أعظم شخصية فلسفية وجدت حتى الآن ، وهو مقدوني الأصل : رحل إلى « أثينا » وتتلمذ على (أفلاطون) ولازمه ويسمى أتباعه (بالمشائين) ويلقب هو بـ (المعلم الأول) لأنه أول من رتب المنطق ونظمه ، وكونه علماً ، له حدوده وأهدافه وقد طلب إليه (الملك فليبس المقدوني) تعليم ابنه (الاسكندر) فأخذ يعلمه ثلاث سنوات ، وقد ترجم إلى العربية حديثاً من كتبه كتاب (الأخلاق) ، و (الكون والفساد) و « السياسة » ترجمها الأستاذ « أحمد لطفي السيد » وترجم له الأستاذ « الاهواني » كتاب « النفس » .

أقسام علومهم

اعلم أن علومهم ـ بالنسبة إلى الغرض الذي نطلبه ـ ستة أقسام ، رياضية ، ومنطقية ، وطبيعية ، وإلهية ، وسياسية ، وخلقية .

١ ـ أما الرياضية : فتتعلق بعلم الحساب ، والهندسة ، وعلم هيئة العالم ، وليس يتعلق شيء منها بالأمور الدينية نفياً وإثباتاً ، بل هي أمور برهانية ، لا سبيل إلى مجاحدتها بعد فهمها ، ومعرفتها .

وقد تولدت منها آفتان :

الأولى : إن من ينظر فيها يتعجب من دقائقها ، ومن ظهور براهينها : فيحسن بسبب ذلك اعتقاده في الفلاسفة ، فيحسب أن جميع علومهم في الوضوح ، وفي وثاقة البرهان ، كهذا العلم ، ثم يكون قد سمع من كفرهم ، وتعطيلهم ، وتهاونهم بالشرع ، ما تداولته الألسنة ، فيكفر بالتقليد المحض ، ويقول ، ولو كان الدين حقاً ، لما اختفى على هؤلاء مع تدقيقهم في هذا العلم ! فإذا عرف بالتسامع ، كفرهم وجحدهم ، فيستدل على أن الحق : هو الجحد والانكار للدين وكم رأيت من يضل عن الحق بهذا القدر ولا مستند له سواه .

وإذا قيل له : الحاذق في صناعة واحدة ليس يلزم أن يكون حاذقاً في كل صناعة ، فلا يلزم أن يكون الحاذق في الفقه ، والكلام ، حاذقاً في الطب ، ولا أن يكون الجاهل بالعقليات جاهلا بالنحو ، بل لكل صناعة أهل ، بلغوا فيها رتبة البراعة والسبق . وإن كان الحمق والجهل قد يلزمهم في غيرها ، فكلام الأوائل في الرياضيات برهاني ، وفي الالهيات تخميني ، لا يعرف ذلك إلا من جربه ، وخاض فيه . فهذا إذا قرر على هذا الذي انخدع بالتقليد لم يقع منه موقع القبول ، بل تحمله غلبة الهوى وشقوة البطالة ، وحب التكايس على أن يصر على تحسين الظن بهم في العلوم كلها .

فهذه آفة عظيمة ، لأجلها يجب زجر كل من يخوض في تلك العلوم[1] ، فإنها وإن لم تتعلق بأمر الدين ، ولكن لما كانت من مبادىء علومهم ، يسري إليه شرهم ، وشؤمهم ، فقل من يخوض فيها ، إلا وينخلع من الدين ، وينحل عن رأسه لجام التقوى .

الآفة الثانية نشأت من صديق للاسلام جاهل ، ظن أن الدين ينبغي أن ينصر بإنكار كل علم منسوب إليهم : فأنكر جميع علومهم ، وادعى جهلهم فيها ، حتى أنكر قولهم في الكسوف والخسوف ، وزعم أن ما قالوه على خلاف الشرع ، فلما قرع ذلك سمع من عرف ذلك بالبرهان القاطع ، لم يشك في برهانه ، لكن اعتقد أن الاسلام مبني على الجهل ، وإنكار البرهان القاطع ، فازداد للفلسفة حباً ، وللاسلام بغضاً .

ولقد عظمت على الدين جناية من ظن أن الاسلام ينصر بإنكار هذه العلوم ، وليس في الشرع تعرض لهذه العلوم بالنفي ، والاثبات ، ولا في هذه العلوم تعرض للأمور الدينية . وقوله عليه السلام :

« إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله تعالى : لا ينخسفان لموت أحد ، ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله تعالى ، وإلى الصلاة » .

ليس في هذا إنكار علم الحساب ، المعرف بسير الشمس ، والقمر ، واجتماعهما ، أو مقابلتهما على وجه مخصوص .

أما قوله ، عليه السلام : « لكن الله إذا تجلى لشيء خضع له » فليس توجد هذه الزيادة في الصحاح أصلا .

فهذا حكم الرياضيات وآفتها .

٢ ـ وأما المنطقيات : فلا يتعلق شيء منها بالدين ، نفياً وإثباتاً ، بل هو

---

(١) إن الرياضيات الآن لم تعد تابعة للفلسفة ، أو علماً من علومها ، وإنما هي مادة مستقلة لا غنى عنها للمجتمع الانساني ، وهي حينما تدرس لا يفكر الدارس لها في أمور الدين ، ولا في مبادئه ، ولعل وضعها في أيام الامام« الغزالي » كان على غير وضعها الآن . وما من شك في أن الامام « الغزالي ـ وهو واسع الأفق مستنير ـ لو عاش بيننا الآن لما قال ذلك .

النظر في طرق الأدلة والمقاييس ، وشروط مقدمات البرهان ، وكيفية تركيبها .

وشروط الحد الصحيح ، وكيفية ترتيبه .

وأن العلم : إما تصور ، وسبيل معرفته الحد ، وإما تصديق ، وسبيل معرفته البرهان .

وليس في هذا ما ينبغي أن ينكر ، بل هو من جنس ما ذكره المتكلمون ، وأهل النظر في الأدلة ، وإنما يفارقونهم بالعبارات ، والاصطلاحات ، وبزيادة الاستقصاء في التعريفات ، والتشعيبات .

ومثال كلامهم فيها قولهم : إذا ثبت أن كل (ا) (ب) ، لزم أن بعض (ب) (ا) أي : إذا ثبت أن كل إنسان حيوان ، لزم أن بعض الحيوان إنسان ، ويعبرون عن هذا بأن الموجبة الكلية ، تنعكس موجبة جزئية . وأي تعلق هذا بمهمات الدين ، حتى يجحد وينكر ؟ فإذا أنكر لم يحصل من إنكاره ـ عند أهل المنطق ـ إلا سوء الاعتقاد في عقل المنكر ، بل في دينه الذي يزعم أنه موقوف على هذا الانكار .

نعم لهم نوع من الظلم في هذا العلم ، وهو أنهم يجمعون للبرهان شروطاً يعلم أنها تورث اليقين ، لا محالة ، لكنهم عند الانتهاء إلى المقاصد الدينية ، ما أمكنهم الوفاء بتلك الشروط ، بل تساهلوا غاية التساهل .

وربما ينظر في المنطق أيضاً ، من يستحسنه ، ويراه واضحاً فيظن أن ما ينقل عنهم من الكفريات مؤيدة بمثل تلك البراهين ، فاستعجل بالكفر قبل الانتهاء إلى العلوم الالهية .

فهذه الآفة أيضاً متطرقة إليه .

٣ ـ وأما علم الطبيعيات فهو بحث عن عالم السموات ، وكواكبها ، وما تحتها من الأجسام المفردة : كالماء ، والهواء ، والتراب ، والنار ، ومن الأجسام المركبة : كالحيوان ، والنبات ، والمعادن ، وعن أسباب تغيرها ، واستحالتها ، وامتزاجها ، وذلك يضاهي بحث الطب عن جسم الانسان ، وأعضائه الرئيسية والخادمة ، وأسباب استحالة مزاجه ، وكما أنه ليس من شرط الدين إنكار علم الطب ، فليس من شرطه أيضاً إنكار ذلك العلم ، إلا

في مسائل معينة ، ذكرناها في كتاب : « تهافت الفلاسفة » وما عداها مما يجب المخالفة فيها . فعند التأمل يتبين أنها مندرجة تحتها .

وأصل جملتها : أن تعلم أن الطبيعة مسخرة لله تعالى ، لا تعمل بنفسها ، بل هي مستعملة من جهة فاطرها ، والشمس والقمر ، والنجوم ، والطبائع مسخرات بأمره ، لا فعل لشيء منها بذاته عن ذاته .

٤ ـ وأما الالهيات : ففيها أكثر أغاليطهم ، فما قدروا على الوفاء بالبراهين على ما شرطوه في المنطق ، ولذلك كثر الاختلاف بينهم فيها .

ولقد قرب مذهب « أرسطاطاليس » فيها من مذاهب الاسلاميين ، على ما نقله الفارابي[1] .

وابن سينا[2] .

ولكن مجموع ما غلطوا فيه يرجع إلى عشرين أصلا يجب تكفيرهم في ثلاثة منها ، وتبديعهم في سبعة عشر .

---

(١) « الفارابي » : (٢٦٠ ـ ٣٢٩) ولد في (فاراب) . وهو إقليم فارسي في تخوم بلاد (الترك) رحل إلى (بغداد) ثم استقر به المقام في كنف (سيف الدولة) يعيش عيشة الزهد ، موجهاً كل همه إلى الدراسة والتأمل . يقول (ابن خلكان) : وكان مدة مقامه بـ (دمشق) لا يكون ـ غالباً ـ إلا عند مجتمع ماء ، أو مشتبك رياض ، ويؤلف هناك كتبه ، ويتناوبه المشتغلون عليه .

وكان (الفارابي) يحسن (الموسيقى) تلحيناً وتوقيعاً ، حتى ليحكي (ابن خلكان) أن (الآلة الموسيقية) : (القانون) إنما هي من وضعه ، وقد أطلق عليه المسلمون : (المعلم الثاني) ، كما أطلق على (أرسطو) : (المعلم الأول) .

وتقدير المؤرخين له متفاوت ، فمنهم من يقدمه على (ابن سينا) ومنهم من يقدم (ابن سينا عليه .

(٢) « ابن سينا » : (٣٧٠ ـ ٤٢٨ هـ) كان فيلسوفاً عظيماً من فلاسفة الاسلام كما كان له في الطب قدم راسخة ، وفهم دقيق ، وقد ألف فيه كتاب : (القانون) الذي كان يدرس في معاهد (أوربا) عدة قرون .

اما كتبه الفلسفية فكثيرة ومتداولة ، ومن أشهرها كتاب : (الاشارات) وكتاب (الشفاء) وكتاب (النجاة) .

ولابطال مذهبهم في هذه المسائل العشرين ، صنفنا كتاب (التهافت) .

أما المسائل الثلاث ، فقد خالفوا فيها كافة المسلمين ، وذلك في قولهم :

١ ـ إن الأجساد لا تحشر[1] ، وإنما المثاب ، والمعاقب هي الأرواح المجردة والمثوبات والعقوبات روحانية لا جسمانية :

---

(١) لعل من الانصاف ، الذي يدعو إليه دائماً الامام « الغزالي » ، أن نذكر رأي « ابن رشد » في المسائل الثلاث التي كفر بها الامام « الغزالي » الفلاسفة .

نذكر رأي « ابن رشد » ، مختصراً عن كتابي : (فصل المقال) و : (الكشف عن مناهج الأدلة) .

يقول ابن رشد :

والمعاد : مما اتفقت على وجوده الشرائع ، وقامت عليه البراهين عند العلماء ، وإنما اختلفت الشرائع في صفة وجوده ، ولم تختلف في الحقيقة في وجوده ، وإنما اختلفت في المشاهدات التي مثلت بها للجمهور تلك الحال الغائبة : وذلك أن من الشرائع من جعله روحانياً ، أعني للنفوس . ومنها من جعله للأجسام والنفوس معاً ، والاتفاق في هذه المسألة مبني على اتفاق الوحي في ذلك واتفاق قيام البراهين الضرورية عند الجميع في ذلك . أعني انه قد اتفق الكل على أن للانسان سعادتين : أخروية ودنيوية ، وانبنى ذلك عند الجميع على أصول يعترف بها عند الكل .

ثم أخذ « ابن رشد » في بيان هذه الأصول ، من العقل والنقل ، ثم قال : فالشرائع كلها كما قلنا : متفقة على أن للنفس من بعد الموت أحوالا من السعادة . أو الشقاء ، ولكنها مختلفة في تمثيل هذه الأحوال ، وتفهيم وجودها للناس ويشبه أن يكون التمثيل الذي في شريعتنا هذه أتم إفهاماً لأكثر الناس ، وأكثر تحريكاً لنفوسهم إلى ما هنالك . والأكثرون هم المقصود الأول بالشرائع .

وأما التمثيل الروحاني فيشبه أن يكون أقل تحريكاً لنفوس الجمهور إلى ما هنالك ، والجمهور أقل رغبة فيه ، وخوفاً له ، منهم في التمثيل الجسماني . ولذلك يشبه أن يكون التمثيل الجسماني : أشد تحريكاً إلى ما هنالك من الروحاني . والروحاني أشد قبولا عند المتكلمين المجادلين من الناس ، وهم الأقل .

ولهذا المعنى : نجد أهل الاسلام في فهم التمثيل الذي جاء في ملتنا في أحوال المعاد ـ ثلاث فرق :

فرقة رأت أن ذلك الوجود هو بعينه هذا الوجود الذي ههنا ، من النعيم واللذة . أعني

ولقد صدقوا في إثبات الروحانية ، فإنها كائنة أيضاً ، ولكن كذبوا في إنكار الجسمانية ، وكفروا بالشريعة فيما نطقوا به .

أنهم رأوا أنه واحد بالجنس : وأنه إنما يختلف الوجودان بالدوام والانقطاع ، أعني أن ذلك دائم وهذا منقطع .

وطائفة رأت أن الوجود متباين ، وهذه انقسمت قسمين : طائفة رأت أن الموجود الممثل بهذه المحسات : هو روحاني ، وأنه إنما مثل به إرادة البيان. ولهؤلاء حجج كثيرة ، من الشريعة مشهورة ، فلا معنى لتعديدها .

وطائفة رأت أنه جسماني ، لكن اعتقدت أن تلك الجسمانية ـ الموجودة هنالك ـ مخالفة لهذه الجسمانية لكون هذه بالية وتلك باقية ، ولهذه أيضاً حجج من الشرع .

ويشبه أن « ابن عباس » يكون ممن يرى هذا الرأي لأنه روي عنه ، أنه قال :

ليس في الدنيا من الآخرة إلا أسماء .

ويشبه أن يكون هذا الرأي هو أليق بالخواص .

وذلك أن إمكان هذا الرأي : ينبني على أمور ليس فيها منازعة عند الجميع .

أحدها : أن النفس باقية .

والثاني : أنه يلحق عن عودة النفس إلى أجسام أخر المحال الذي يلحق عن عودة تلك الأجسام بعينها .

وذلك : أنه يظهر أن مواد الأجسام التي ههنا توجد متعاقبة ، ومنتقلة من جسم إلى جسم ، أعني : أن المادة الواحدة بعينها توجد لأشخاص كثيرة ، وفي أوقات مختلفة ، وأمثال هذه الأجسام ليس يمكن أن توجد كلها بالفعل ، لأن مادتها هي واحدة .

مثال ذلك أن إنساناً مات ، واستحال جسمه إلى التراب ، واستحال ذلك التراب إلى نبات ، فاغتذى إنسان آخر من ذلك النبات ، فكان منه مني حين تولد منه إنسان آخر .

وأما إذا فرضت أجسام أخر ، فليس تلحق هذه الحال .

والحق في هذه المسألة أن فرض كل إنسان فيها هو ما أدى إليه نظره فيها بعد أن يكون نظراً لا يفضي إلى إبطال الأصل جملة ، وهو إنكار الوجود جملة ، فإن هذا النحو من الاعتقاد ، يوجب تكفير صاحبه لكون العلم بوجود هذه الحال للانسان معلوماً للناس ، بالشرائع والعقول .

٢ ـ ومن ذلك قولهم : إن الله تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات[١] .

وهذا أيضاً كفر صريح ، بل الحق أنه : « لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ، ولا في الأرض » .

٣ ـ ومن ذلك قولهم بقدم العالم وأزليته[٢] فلم يذهب أحد من المسلمين إلى شيء من هذه المسائل .

٤ ـ وأما ما وراء ذلك من نفيهم الصفات ، وقولهم : إنه عليم بالذات ، لا بعلم زائد على الذات ، وما يجري مجراه ، فمذهبهم فيها : قريب من مذهب المعتزلة ، ولا يجب تكفير المعتزلة بمثل ذلك .

---

(١) يذكر « ابن رشد » عن الامام « الغزالي » قوله : إن الفلاسفة يرون أنه سبحانه ، لا يعلم الجزئيات ثم يقول : « وليس الأمر كما توهم عليهم ، بل يرون أي ـ الفلاسفة ـ أنه لا يعلم الجزئيات بالعلم المحدث الذي من شرطه الحدوث بحدوثها إذ كان (علم الله)علة لها ، لا معلولا عنها ، كالحال في العلم المحدث .

وهذا هو غاية التنزيه الذي يجب أن يعترف به ، فإنه قد اضطر البرهان إلى أنه عالم بالأشياء ، لأن صدورها عنه إنما هو من جهة أنه عالم ، لا من جهة أنه موجود فقط ، أو موجود بصفة كذا ، بل من جهة أنه عالم ، كما قال تعالى : (ألا يعلم من خلق ، وهو اللطيف الخبير) ، وقد اضطر البرهان إلى أنه غير عالم بها بعلم هو على صفة العلم المحدث ، فواجب أن يكون هنالك للموجودات علم آخر ، لا يكيف ، وهو علم الله القديم سبحانه ، وكيف يمكن أن يتصور أن المشائين من الحكماء ، يرون أن العلم القديم لا يحيط بالجزئيات ، وهم يرون أنه سبب الانذارات في المنامات ، والوحي ، وغير ذلك من أنواع الالهامات » .

(٢) يقول « ابن رشد » : وأما مسألة قدم العالم . أو حدوثه ، فإن الاختلاف فيها ـ عندي ـ بين المتكلمين من الأشعرية ، وبين الحكماء المتقدمين ، يكاد يكون راجعاً للاختلاف في التسمية ، وبخاصة عند بعض القدماء ، وذلك أنهم اتفقوا على أن ههنا ثلاثة أصناف من الموجودات ، طرفان ، وواسطة بين الطرفين ، فاتفقوا في تسمية الطرفين ، واختلفوا في الواسطة .

فأما الطرف الواحد ، فهو موجود ، وجد من شيء غيره وعن شيء ، أعني عن سبب فاعل ، ومن مادة ، والزمان متقدم عليه ـ اعني على وجوده ـ وهذه هي حال الأجسام التي يدرك تكوينها بالحس ، مثل تكون : الماء ، والهواء ، والأرض والحيوان ، والنبات ، وغير ذلك . فهذا الصنف من الموجودات اتفق الجميع من القدماء ، والأشعريين على تسميتها محدثة .

وقد ذكرنا في كتاب : « فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة » ما يتبين فيه فساد رأي من يسارع إلى التكفير في كل ما يخالف مذهبه .

٥ ـ وأما السياسات : فمجموع كلامهم فيها يرجع إلى الحكم المصلحية ، المتعلقة بالأمور الدنيوية ، والايالة السلطانية . وإنما أخذوها من كتب الله المنزلة على الأنبياء ، ومن الحكم المأثورة عن سلف الأنبياء .

٦ ـ وأما الخلقية فجميع كلامهم فيها يرجع إلى حصر صفات النفس وأخلاقها ، وذكر أجناسها ، وأنواعها ، وكيفية معالجتها ، ومجاهدتها .

وإنما أخذوها من كلام الصوفية ، وهم المتأهلون ، المثابرون على ذكر الله ،

وأما الطرف المقابل لهذا : فهو موجود لم يكن من شيء ، ولا عن شيء ، ولا تقدمه زمان . وهذا أيضاً اتفق الجميع من الفرقتين على تسميته قديماً . وهذا الموجود مدرك بالبرهان ، وهو الله تبارك وتعالى ، الذي هو فاعل الكل ، وموجده ، والحافظ له ، سبحانه وتعالى قدره .

وأما الصنف من الموجود ، الذي بين هذين الطرفين ، فهو موجود لم يكن من شيء ، ولا تقدمه زمان ، ولكنه موجود عن شيء ، أعني عن فاعل ـ وهذا هو العالم باسره . والكل منهم متفق على وجود هذه الصفات الثلاث للعالم ، فإن المتكلمين يسلمون أن الزمان غير متقدم عليه ، أو يلزمهم ذلك ، إذ الزمان عندهم شيء مقارن للحركات ، والأجسام ، وهم أيضاً متفقون مع القدماء على أن الزمان المستقبل غير متناه ، وكذلك الوجود المستقبل ،وإنما يختلفون في الزمان الماضي ، والوجود الماضي :

فالمتكلمون يرون أنه متناه ، وهذا هو مذهب (أفلاطون) وشيعته .

و (أرسطو) وفرقته يرون أنه : غير متناه ، كالحال في المستقبل . فهذا الموجود الآخر ، الأمر فيه بين أنه قد أخذ شبهاً من الوجود الكائن المحدث ، ومن الوجود القديم . فمن غلب عليه ما فيه من شبه القديم ، على ما فيه من شبه المحدث ، سماه قديماً ، ومن غلب عليه ما فيه من شبه المحدث ، سماه محدثاً . وهو في الحقيقة ليس محدثاً حقيقياً ، ولا قديماً حقيقياً ، فإن المحدث الحقيقي فاسد ضرورة والقديم الحقيقي ليس له علة .

ومنهم من سماه محدثاً أزلياً ، وهو « أفلاطون » وشيعته لكون الزمان متناهياً عندهم من الماضي . فالمذاهب في العالم ليست تتباعد كل التباعد حتى يكفر بعضها ، ولا يكفر ، فإن الآراء التي شأنها هذا ، يجب أن تكون في الغاية من التباعد ، أعني أن تكون متقابلة ، كما ظن المتكلمون في هذه المسألة ، أعني أن اسم القدم والحدوث في العالم بأسره هو من المتقابلة ، وقد تبين من قولنا : إن الأمر ليس كذلك .

تعالى ، وعلى مخالفة الهوى ، وسلوك الطريق إلى الله تعالى ، بالاعراض عن ملاذ الدنيا . وقد انكشف لهم في مجاهدتهم من أخلاق النفس وعيوبها ، وآفات أعمالها ، ما صرحوا بها ، فأخذها الفلاسفة ، ومزجوها بكلامهم ، توسلاً وبالتجمل بها الى ترويج باطلهم .

ولقد كان في عصرهم ، بل في كل عصر ، جماعة من المتأهلين ، يخلي الله سبحانه العالم عنهم ، فإنهم أوتاد الأرض ، ببركاتهم تنزل الرحمة إلى أهل الأرض ، كما ورد في الخبر حيث قال عليه السلام : « بهم تمطرون ، وبهم ترزقون ، ومنهم كان أصحاب الكهف » .

وكانوا في سالف الأزمنة ، على ما نطق به القرآن .

فثولد من مزجهم كلام النبوة وكلام الصوفية بكتبهم آفتان :

وهذا كله ، مع أن هذه الآراء في العالم ليست على ظاهر الشرع ، فان ظاهر الشرع إذا تصفح ظهر من الآيات الواردة ، ففي الأنباء عن إيجاد العالم أن صورته محدثة بالحقيقة ، وأن نفس الوجود والزمان مستمر من الطرفين ، أعني غير منقطع - وذلك أن قوله تعالى : (وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ، وكان عرشه على الماء) يقتضي بظاهره أن وجوداً قبل هذا الوجود - وهو العرش - والماء - وزماناً قبل هذا الزمان ، أعني المقترن بصورة هذا الوجود ، الذي هو عدد حركات الفلك ، وقوله تعالى : (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) يقتضي بظاهره أن وجوداً ثانياً بعد هذا الوجود ، وقوله تعالى : (ثم استوى إلى السماء وهي دخان) يقتضى بظاهره أن السموات والأرض خلقت من شيء .
والمتكلمون : ليسوا في قولهم أيضاً في العالم ، على ظاهر الشرع ، بل متأولون ، فانه ليس في الشرع أن الله كان موجوداً مع العدم المحض ، ولا يوجد هذا في نص أبداً ، فكيف يتصور في تأويل المتكلمين في هذه الآيات ، أن الاجماع انعقد عليه ؟ والظاهر الذي قلناه عن الشرع في وجود العالم ، قد قال به فرقة من الحكماء ، ويشبه أن يكون المختلفون في هذه المسائل العويصة إما مصيبين مأجورين . وإما مخطئين معذورين . فإن التصديق بالشيء من قبل الدليل القائم في النفس ، هو شيء اضطراري ، لا اختياري ، أعني أنه ليس لنا أن نصدق ، أو لا نصدق كما لنا أن نقوم اولا نقوم ، وإذا كان من شرط التكلف الاختيار ، فالمصدق بالخطأ من قبل شبهة عرضت له ؛ إذا كان من أهل العلم معذور . ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ؛ وإن أخطأ فله أجر » .
وأي حاكم أعظم من الذي يحكم على الوجود بأنه كذا ، أو ليس بكذا ؟ وهؤلاء الحكماء هم العلماء خصهم الله بالتأويل .

١ ـ آفة في حق القابل .
٢ ـ آفة في حق الرادّ .

١ ـ أما الآفة التي في حق الرادّ فعظيمة ؛ إذ ظنت طائفة الضعفاء أن ذلك الكلام إذا كان مدوناً في كتبهم ، وممزوجاً بباطلهم ، ينبغي أن يهجر ولا يذكر ، بل ينكر على كل من يذكره ، إذ لم يسمعوه أولا إلا منهم ، فسبق إلى عقولهم الضعيفة أنه باطل ، لأن قائله مبطل ، كالذي يسمع من النصراني قول : « لا إله إلا الله ، عيسى رسول الله » فينكره ويقول : « هذا كلام النصراني » ولا يتوقف ريثما يتأمل أن النصراني : كافر ؛ باعتبار هذا القول ، أو اعتبار إنكاره نبوة محمد ـ عليه السلام ـ فإن لم يكن كافراً إلا باعتبار إنكاره ، فلا ينبغي أن يخالف في غير ما هو به كافر ، مما هو حق في نفسه ، وإن كان أيضاً حقاً عنده . وهذه عادة ضعفاء العقول : يعرفون الحق بالرجال ، لا الرجال بالحق .

والعاقل يقتدي بقول أمير المؤمنين « علي بن أبي طالب » رضي الله عنه ، حيث قال : لا تعرفِ الحق بالرجال ، بل اعرفِ الحق ، تعرفْ أهله » .

والعاقل يعرف الحق ثم ينظر في نفس القول ، فإن كان حقاً قبله سواء كان قائلا مبطلا ، أو محقاً ، بل ربما يحرص على انتزاع الحق من أقاويل أهل الضلال ، عالماً بأن معدن الذهب : الرغام[1] . ولا بأس على الصراف إن أدخل يده في كيس القلاب ، وانتزع الابريز الخالص ، من الزيف والبهرج ، مهما كان واثقاً ببصيرته . وإنما يزجر عن معاملة القلاب القروي ، دون الصيرفي البصير ، ويمنع من ساحل البحر الأخرقُ ، دون السباح الحاذق . ويصد عن مس الحية الصبيّ ، دون المعزم البارع .

ولعمري ، لما غلب على أكثر الخلق ظنهم بأنفسهم الحذاقة والبراعة ، وكمال العقل ، في تمييز الحق عن الباطل ، والهدى عن الضلالة ، وجب حسم الباب في زجر الكافة ، عن مطالعة كتب أهل الضلالة ما أمكن ؛ إذ لا يسلمون من الآفة الثانية التي سنذكرها ، وإن سلموا عن الآفة التي ذكرناها .

---

(١) الرغام : التراب .

ولقد اعترضَ على بعض الـكلمات المبثوثـة في تصانيفنـا ، في أسرار علـوم الدين ، طائفة « من الذين لـم تستحكم في العلوم سرائرهم ، ولـم تتفتح إلى أقصى غايات المذاهب بصائرهم » .

وزعمـت : أن تلك الـكلمات من كلام « الأوائـل »[1] مع أن بعضهـا من مولدات الخواطر ، ولا يبعد أن يقع الحافر على الحافر .

وبعضها يوجد في الكتُب الشرعية .
وأكثرها موجود معناه في كتب الصوفية .

وهب أنها لم توجد إلا في كتبهم ، فإذا كان ذلك الكلام معقولاً في نفسه مؤيداً بالبرهان ، ولم يكن على مخالفة الكتاب والسنة ، فلم ينبغي أن يهجر ، أو ينكر ؟

فلو فتحنا هذا الباب ، وتطرقنا إلى أن نهجر كل حق سبق إليه خاطر مبطل ، لزمنا أن نهجر كثيراً من الحق ، ولزمنا أن نهجر جملة آيات من القرآن ، وأخبار الرسول ، وحكايات السلف ، وكلماتْ الحكماء ، والصوفية : لأن صاحب كتاب « إخوان الصفا » أوردها في كتابه ، مستشهداً بهـا ومستدرجـاً قلـوب الحمقى بواسطتها إلى باطله ، ويتداعى ذلك إلى أن يستخرج المبطلون الحق من أيدينا ، بإيداعهم إياه في كتبهم .

وأقل درجات العالم : أن يتميز عن العامي الغمر[2] ، فلا يعاف العسل ، وإن وجده في محجمة الحجام ، ويتحقق أن المحجمة لا تغير ذات العسل ، فإن نفرة الطبع منه ، مبنية على جهل عاميّ ، منشؤه أن المحجمة إنما صنعت للدم المستقذر ، فيظن أن الدم مستقذر لكونه في المحجمـة . ولا يدري أنـه مستقذر لصفة في ذاته ، فإذا عدمت هذه الصفة في العسل ، فكونه في ظرفه ، لا يكسبه تلك الصفة ، فلا ينبغي أن يوجب له الاستقذار .

وهذا وهم باطل ، وهو غالب على أكثر الخلق ، فمهما نسبـت الـكلام ،

---

(١) يقصد بـ « الأوائل » . الفلاسفة القدماء .

(٢) رجل غمر : لم يجرب الأمور .

وأسندته إلى قائل حسن فيه اعتقادهم ، قبلوه ، وإن كان باطلا ، وإن أسندته إلى من ساء فيه اعتقادهم ، ردوه ، وإن كان حقاً .

فأبداً يعرفون الحق بالرجال ، ولا يعرفون الرجال بالحق ؛ وهو غاية الضلال !!

هذه آفة الرد .

٢ ـ آفة القبول : فإن من نظر في كتبهم : كإخوان الصفا ، وغيره ، فرأى ما مزجوه بكلامهم ، من الحكم النبوية ، والكلمات الصوفية . ربما استحسنها ، وقبلها ، وحسن اعتقاده فيها ، فيسارع إلى قبول باطلهم الممزوج به ، لحسن ظن حصل فيما رآه . واستحسنه .

وذلك نوع استدراج إلى الباطل .

ولأجل الآفة : يجب الزجر عن مطالعة كتبهم ، لما فيها من الغدر ، والخطر .

وكما يجب صون من لا يحسن السباحة عن مزالق الشطوط ؛ يجب صون الخلق عن مطالعة تلك الكتب .

وكما يجب صون الصبيان عن مس الحيات ، يجب صون الأسماع عن مختلط تلك الكلمات .

وكما يجب على المعزم ألا يمس الحية بين يدي ولده الطفل . إذا علم أنه سيقتدي به . ويظن أنه مثله . بل يجب عليه أن يحذره : بأن يحذر هو نفسه ، ولا يمسها بين يديه . فكذلك يجب على العالم الراسخ مثله .

وكما أن المعزم الحاذق إذا أخذ الحية . وميز بين الترياق والسم ، فاستخرج منه الترياق ، وأبطل السم . فليس له أن يشح بالترياق على المحتاج إليه . وكذلك الصراف الناقد البصير : إذا أدخل يده في كيس القلاب . وأخرج منه الابريز الخالص . واطرح الزيف والبهرج . فليس له أن يشح بالجيد المرضي على من يحتاج إليه . كذلك العالم .

وكما أن المحتاج إلى الترياق . إذا اشمأزت نفسه منه ، حيث علم أنه ستخرج من الحية ؛ التي هي مركز السم : وجب تعريفه .

والفقير المضطر الى المال اذا نفر عن قبول الذهب المستخرج من كيس القلاب ، وجب تنبيهه على أن نفرته : جهل محض ، هو سبب حرمانه من الفائدة التي هي مطلبه ، وتحتم تعريفه أن قرب الجوار بين الزيف والجيد : لا يجعل الجيد زيفاً ، كما لا يجعل الحق باطلا ، كما لا يجعل الباطل حقاً .

فهذا مقدار ما أردنا ذكره من آفة الفلسفة وغائلتها .

٣- مذهب التعليم وغائلته

ثم اني لما فرغت من علم الفلسفة ، وتحصيله ، وتفهيمه ، وتزييف ما يزيف منه ، علمت ان ذلك ايضا غير واف بكمال الغرض ، وان العقل ليس مستقلا بالاحاطة بجميع المطالب ، ولا كاشفا للغطاء عن جميع المعضلات .

وكانت قد نبغت نابغة التعليمية ، وشاع بين الخلق ، تحدثهم بمعرفة معنى الامور ، من جهة الامام المعصوم ، القائم بالحق ، عنَّ لي : ان ابحث عن مقالاتهم ، لأطلع على ما في كتبهم .

ثم اتفق : ان ورد عليَّ امر جازم من حضرة الخلافة ، بتصنيف كتاب ، يكشف عن حقيقة مذهبهم ، فلم يسعني مدافعته ، وصار ذلك مستحثا من خارج ضميمة للباعث الاصلي من الباطن .

فابتدأت بطلب كتبهم ، وجمع مقالاتهم . وكان قد بلغني بعض كلماتهم المستحدثة ، التي ولدتها خواطر اهل العصر ، لا على المنهاج المعهود من سلفهم . فجمعت تلك الكلمات ، ورتبتها ترتيبا محكما ، مقارنا للتحقيق ، واستوفيت الجواب عنها ، حتى انكر بعض اهل الحق مبالغتي في تقرير حججهم ، وقال : « هذا سعي لهم ، انهم كانوا يعجزون عن نصرة مذهبهم لمثل هذه الشبهات ، لولا تحقيقك لها ، وترتيبك اياها » . وهذا الانكار من وجهة حق ؛ فلقد انكر (احمد بن حنبل) على (الحارث المحاسبي)[1] ، رحمهما الله ، تصنيفه في الرد على المعتزلة ؛ فقال (الحارث) :

---

(١) يقول عنه القشيري : « عديم النظر في زمانه : علماً ، وورعاً ، ومعاملة ، وحالاً ، بصري الأصل . مات بـ« بغداد » سنة ثلاث وأربعين ومائتين . قال « أبو عبد الله بن خفيف » : اقتدوا بخمسة من شيوخنا . والباقون سلموا لهم حالهم . ((الحارث بن أسد المحاسبي) و (الجنيد بن محمد) و (أبو محمد رويم) و (أبو العباس بن عطاء) و (عمر ابن عثمان المكي) . لأنهم جمعوا بين العلم والحقائق .

« الرد على البدعة فرض » .

فقال « احمد » :

نعم ، ولكن حكيت شبهتهم اولا ؛ ثم اجبت عنها ، فبم تأمن ان يطالع الشبهة من يعلق ذلك بفهمه ، ولا يلتفت الى الجواب ، او ينظر الى الجواب ولا يفهم كنهه ؟ .

وما ذكره « احمد » حق ، ولكن في شبهة لم تنتشر ولم تشتهر ، فاما اذا انتشرت فالجواب عنها واجب ، ولا يمكن الجواب عنها الا بعد الحكاية .

نعم . . ينبغي الا يتكلف لهم شبهة ، ولم اتكلف انا ذلك ، بل كنت قد سمعت تلك الشبهة من واحد من اصحابي المختلفين اليَّ ، بعد ان كان قد التحق بهم ، وانتحل مذهبهم ، وحكى انهم يضحكون على تصانيف المصنفين ، في الرد عليهم ! فانهم لم يفهموا بعد حجتهم . وذكر تلك الحجة ، وحكاها عنهم ، فلم ارض لنفسي ان يظن بي الغفلة عن اصل حجتهم ، فلذلك اوردتها ولا ان يظن بي اني ، وان سمعتها فلم افهمها ، فلذلك قررتها .

والمقصود اني قررت شبهتهم الى اقصى الامكان ، ثم اظهرت فسادها بغاية البرهان .

والحاصل : انه لا حاصل عند هؤلاء ، ولا طائل لكلامهم .

ولولا سوء نصرة الصديق الجاهل ، لما انتهت البدعة ـ مع ضعفها ـ الى هذه الدرجة .

ولكن شدة التعصب ، دعت الذابين عن الحق الى تطويل النزاع معهم في مقدمات كلامهم ، والى مجاحدتهم في كل ما نطقوا به ، فجاحدوهم في

ومما يروى عنه : قوله « من صحح باطنه بالمراقبة والاخلاص ، زين الله ظاهره بالمجاهدة واتباع السنة » .

وقد ألف كتباً كثيرة ، يوجد بعضها مخطوطاً في (دار الكتب المصرية) وفي (مكتبة جامعة القاهرة) .

وأنفس ما نعرف من كتبه : (كتاب الرعاية لحقوق الله) وقد طبعته الآنسة « مرجريت سميث » ، وطبعناه في القاهرة طبعة متقنة . وقد طبع له كتاب (التوهم) بالقاهرة .

دعواهم « الحاجة الى التعليم والمعلم » ودعواهم انه « لا يصلح كل معلم ، بل لا بد من معلم معصوم » . وظهرت حجتهم في اظهار الحاجة الى التعليم والمعلم ، وضعف قول المنكرين في مقابلته : فاغتر بذلك جماعة ، وظنوا ان ذلك من قوة مذهبهم ، وضعف مذهب المخالفين لهم ، ولم يفهموا ان ذلك لضعف ناصر الحق ، وجهله بطريقه ؛ بل الصواب الاعتراف بالحاجة الى المعلم ؛ وانه لا بد وان يكون المعلم معصوما ، ولكن معلمنا المعصوم هو : محمد عليه الصلاة والسلام .

فاذا قالوا : « هو ميت » .

فنقول : « فمعلمكم غائب » .

فاذا قالوا : « معلمنا علم الدعاة ، وبثهم في البلاد ، وهو ينتظر مراجعتهم ان اختلفوا ، او اشكل عليهم مشكل » .

فنقول : « ومعلمنا قد علم الدعاة ، وبثهم في البلاد ، واكمل التعليم ؛ اذ قال الله تعالى : « اليومَ أكْمَلْتُ لَكُمْ دِينكُمْ وأتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي » وبعد كمال التعليم ، لا يضر موت المعلم ، كما لا تضر غيبته » .

فبقي قولهم : « كيف تحكمون فيما لم تسمعوه ؟ ابالنص ؟ ولم تسمعوه ؟ ام بالاجتهاد والرأي ، وهو مظنة الخلاف ؟ » .

فنقول : نعمل ما فعله « معاذ » ؛ اذ بعثه رسول الله ، عليه الصلاة والسلام ، الى اليمن[1] . ان نحكم بالنص ، عند وجود النص ، وبالاجتهاد

(١) حينما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم آن يبعث (معاذاً) قاضياً بـ (اليمن) قال له :
بم تقضي يا (معاذ) ؟
فقال : بما في كتاب الله .
قال : فإن لم تجد ؟
قال : بما في سنة رسول الله
قال : فإن لم تجد ؟
قال : أجتهد رأيي .
فقال رسول الله : الحمد لله الذين وفق رسول رسول الله لما يحب رسول الله .

عند عدمه ، بل كما يفعله دعاتهم ، اذ بعدوا عن الامام ، الى اقاصي البلاد ، اذ لا يمكنهم ان يحكموا بالنص . فان النصوص المتناهية لا تستوعب الوقائع غير المتناهية ، ولا يمكنه الرجوع في كل واقعة الى بلدة الامام ، والى ان يقطع المسافة ويرجع فيكون المستفتى قد مات ، وفات الانتفاع بالرجوع .

فمن اشكلت عليه القبلة ، ليس له طريق الا ان يصلي بالاجتهاد ، اذ لو سافر الى بلدة الامام لمعرفة القبلة ، لفات وقت الصلاة ، فاذن جازت الصلاة الى غير القبلة بناء على الظن . ويقال : « ان المخطىء في الاجتهاد له اجر واحد ، وللمصيب اجران » فكذلك في جميع المجتهدات .

وكذلك امر صرف الزكاة الى الفقير . وربما يظنه فقيرا باجتهاده ، وهو غني باطنا باخفاء ماله ، ولا يكون مؤاخذا به وان أخطأ ، لانه لم يؤاخذ الا بموجب ظنه .

فان قال : « ظن مخالفه كظنه » .

فنقول : « هو مأمور باتباع ظن نفسه ، كالمجتهد في القبلة ، يتبع ظن نفسه ، وان خالفه غيره » .

وان قال : فالمقلد يتبع « ابا حنيفة » ، و« الشافعي » ـ رحمهما الله ـ ام غيرهما ؟

فأقول : « فالمقلد في القبلة عند الاشتباه ، اذا اختلف عليه المجتهدون ، كيف يصنع ؟ »

فسيقول : « له مع نفسه اجتهاد في معرفة الافضل الاعلم بدلائل القبلة ، فيتبع ذلك الاجتهاد ، فكذلك في المذاهب » .

فرد الخلق الى الاجتهاد ـ ضرورة ـ الانبياء ، والأئمة مع العلم انهم قد يخطئون ، بل قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : « انا احكم بالظاهر ، والله يتولى السرائر » اي ، انا احكم بغالب الظن الحاصل من قول الشهود ، وربما اخطأوا فيه ، ولا سبيل الى الامن من الخطأ للانبياء في مثل هذه المحتهدات فكيف نطمع في ذلك ؟

ولهم ها هنا سؤالان .

أحدهما : قولهم : هذا وإن صح في المجتهدات ، فلا يصح في قواعد العقائد اذ المخطىء غير معذور ، فكيف السبيل اليه ؟

فأقول : قواعد العقائد ، يشتمل عليها الكتاب والسنة ، وما وراء العقائد إذ المخطىء غير معذور ، فكيف السبيل اليه ؟

فأقول : قواعد العقائد ، يشتمل عليها الكتاب والسنة ، وما وراء ذلك من التفصيل ، والمتنازع فيه يعرف الحق فيه بالوزن بالقسطاس المستقيم ، وهي الموازين التي ذكرها الله تعالى في كتابه ، وهي خمسة ، ذكرتها في كتاب « القسطاس المستقيم » .

فإن قال : خصومك يخالفون في ذلك الميزان :

فأقول : لا يتصور ان يفهم ذلك الميزان ثم يخالف فيه أهل التعليم ، لأني استخرجته من القرآن وتعلمته منه .

ولا يخالف فيه أهل المنطق : لأنه موافق لما شرطوه في المنطق ، غير مخالف له .

ولا يخالف فيه المتكلم : لأنه موافق لما يذكره في أدلة النظريات ، وبه يعرف الحق في الكلاميات .

فإن قال : فان كان في يدك مثل هذا الميزان فلم لا ترفع الخلاف بين الخلق ؟

فأقول : لو أصغوا اليّ لرفعت الخلاف بينهم .

وذكرت طريق رفع الخلاف في كتاب « القسطاس المستقيم » فتأمله ، لتعلم انه : حق ، وانه يرفع الخلاف قطعا لو اصغوا ؛ ولا يصغون باجمعهم .

بل قد أصغى إلي طائفة ، فرفعت الخلاف بينهم ، وإمامك يريد رفع الخلاف بينهم مع عدم إصغائهم ، فلم لم يرفع إلى الآن ؟

ولم لم يرفع « علي » رضي الله عنه ، وهو رأس الأئمة ؟ او يدعي انه يقدر على حمل كافتهم على الإصغاء قهراً ، فلم لم يحملهم إلى الآن ؟

ولأي يوم أجله ؟ وهل حصل بين الخلق ، بسبب دعوتـه إلا زيادة خلاف وزيادة مخالف ؟ نعم ! كان يخشى من الخلاف نوع من الضرر ولا ينتهي الى سفك الدماء ، وتخريب البلاد ، وإيتام الاولاد ، وقطع الطرق ، والاغـارة على الاموال وقد حدث في العالم من بركات رفعكم الخلاف ما لم يكن بمثله عهد .

فإن قال : ادّعيت : أنك ترفع الخلاف بين الخلق ، ولـكن المتحـير بـين المذاهب المتعارضة ، والاختلافات المتقابلة ، لـم يلزمه الاصغاء اليك دون خصمك واكثر الخصوم يخالفونك ، ولا فرق بينك وبينهـم ؟

وهذا هو سؤالهم الثاني :

فأقول : هذا اولا : ينقلب عليك ، فانك إذا دعوت هذا المتحير إلى نفسك فيقول المتحير : بم صرت أولى من مخالفيك ، واكثر أهل العلـم يخالفونـك فليت شعري ! بماذا تجيب ؟ أتجيب بان تقول : امامي منصوص عليه ، فمن يصدقك في دعوى النص ، وهو لم يسمع النص من الرسول ؟ وانما يسمع دعواك مع تطابق أهل العلم على اختراعك وتكذيبك .

ثم هب انه سلم لك النص ، فان كان متحيراً في أصل النبوة ، فقال : هب أن إمامك يدلي بمعجزة « عيسى » فيقول : الدليل على صدقي ، أنـي أحيي أباك فأحياه ، فناطقني بانه محق ، فبماذا أعلم صدقه ؟ ولم يعرف كافة الخلق صدق « عيسى » بهذه المعجزة ، بل عليه من الأسئلة المشكلة مالا يدفـع الا بدقيق النظر العقلي ، والنظر العقلي لا يوثـق به عنـدك ، ولا يعـرف دلالـة المعجزة على الصدق ما لم يعرف أن الله لا يضل عباده ـ وسـؤال الاضـلال وعسر تحرير الجواب عنه مشهور، فبماذا تدفع جميع ذلك ؟ ولم يكون إمامك أولى بالمتابعة من مخالفه ؟ فيرجع إلى الأدلة النظرية التي ينكرها ، وخصمـه يدلي بمثل تلك الادلة ؟ واوضح منها ، وهذا السؤال قد انقلب عليهم انقلاباً عظيما ، ولو اجتمع اولهم وآخرهم على أن يجيبوا جواباً لـم يقدروا عليه .

وإنما نشأ الفساد من جماعة من الضعفة ، ناظروهم ، فلم يشتغلوا بالقلب ، بل يالجواب ، وذلك مما يطول فيه الكلام ، ولا يسبق سريعا إلى الأفهام ، فلا يصلح للإفحام .

فإن قال قائل : فهذا هو القلب ، فهل عنه جواب ؟

فاقول : نعم ! جوابه : أن المتحير لو قال أنا متحير ، ولم يعين المسألة التي هو متحير فيها ، يقال له أنت كمريض يقول : أنا مريض : ولا يذكر عين مرضه ، ويطلب علاجه . فيقال له ليس في الوجود علاج للمرض المطلق ، بل لمرض معين : من صداع ، او اسهال ، أو غيرهما ، فكذلك المتحير ينبغي أن يعين ما هو متحير فيه فإن عين المسألة عرفته الحق فيها بالـوزن بالموازين الخمسة التي لا يفهمها أحد إلا ويعترف بأنه الميزان الحق ، الذي يوثق بكل ما يوزن به فيفهم الميزان ، ويفهـم أيضاً صحة الـوزن ، كما يفهـم متعلـم الحساب ، نفس الحساب وكون المحاسب المعلم عالما بالحسـاب ، وصادقـاً فيه

وقد أوضحت ذلك في كتاب : « القسطاس المستقيم » في مقـدار عشرين ورقة ، فليتأمل .

وليس المقصـود الآن بيان فسـاد مذهبهـم فقـد ذكرت ذلك في كتـاب : « المستظهري » أولا .

وفي كتـاب « حجـة البيان » ثانيا ، وهـو جواب كلام لهـم عرض عليّ « ببغداد » وفي كتاب : « مفصل الخلاف » الذي هو إثنا عشر فصلا ، ثالثا ، وهو جواب كلام عرض عليّ « بهمدان » .

وفي كتاب « الدرج » المرقوم « بالجداول » رابعا ، وهو من ركيك كلامهم الذي عرض عليّ « بطوس » .

وفي كتاب « القسطاس المستقيم » خامساً ، وهو كتـاب مستقـل بنفسـه ، مقصوده : بيان ميزان العلوم ، واظهار الاستغناء عن الامام المعصـوم ، لمن أحاط به .

بل المقصود : أن هؤلاء ليس معهـم شيء من الشفـاء المنجي من ظلمات الآراء ، بل هم من عجزهـم عن اقامـة البرهـان على تعـين الامـام ، طالما جاريناهم فصدقناهم في الحاجة إلى التعليم ، والى المعلم المعصوم ، وأنه الذي عينوه ، ثم سألناهم عن العلم الـذي تعلمـوه من هذا المعصـوم . وعرضنـا

عليهم اشكالات فلم يفهموها ، فضلا عن القيام بحلها ! فلما عجزوا احالوا عن الإمام الغائب ، وقالوا : إنه لا بد من السفر إليه .

والعجب أنهم ضيعوا عمرهم في طلب العلم ، وفي التبجح بالظفر به ، ولم يتعلموا منه شيئاً أصلا ، كالمتضمخ بالنجاسة ، يتعب في طلب الماء ، حتى اذا وجده لم يستعمله ، ووجد متضمخاً بالخبائث .

ومنهم من ادعى شيئاً من علمهم ، فكان حاصل ما ذكره شيئاً من ركيك فلسفة « فيثاغورس » وهو رجل من قدماء الأوائل ، ومذهبه أرك مذاهب « الفلاسفة » وقد رد عليه « أرسطاطاليس » بل استرك كلامه ، واسترذله ، وهو المحكي في كتاب « اخوان الصفا » وهو على التحقيق حشو الفلسفة .

فالعجب ممن يتعب طول العمر ، في طلب العلم ، ثم يقنع بمثل ذلك العلم الركيك المستغيث ، ويظن بأنه ظفر باقصى مقاصد العلوم !

فهؤلاء أيضاً جربناهم ، وسبرنا ظاهرهم ، وباطنهم ، فرجع حاصلهم إلى استدراج العوام ، وضعفاء العقول : ببيان الحاجة إلى المعلم ، ومجادلتهم في انكارهم الحاجة إلى التعليم ، بكلام قوي ، مفحم ، حتى إذا ساعدهم على الحاجة إلى المعلم مساعد وقال : هات علمه ، وأفدنا من تعليمه ، وقف ، وقال : الآن إذا سلمت لى هذا فاطلبه ، فإنما غرضي هذا القدر فقط ؛ إذ علم أنه لو زاد علي ذلك لافتضح ، ولعجز عن حل أدنى الاشكالات ، بل عجز عن فهمه ، فضلا عن جوابه .

فهذه حقيقة حالهم ، فأخبرهم تقلهم [1] فلما خبرناهم نفضنا اليد عنهم .

(١) تبغضهم .

٤ ـ طُرقُ الصّوفيّة

ثم إني لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتي على طريق الصوفية ، وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل .

وكان حاصل عملهم قطع عقبات النفس ، والتنزه عن أخلاقها المذمومة ، وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى ، وتحليته بذكر الله .

وكان العلم أيسر عليّ من العمل ، فابتدأت بتحصيل علمهم ، من مطالعة كتبهم ، مثل : « قوت القلوب » لابي طالب المكي ، رحمه الله ، وكتب « الحارث المحاسبي » والمتفرقات المأثورة عن « الجنيد » .

---

(١) سيد هذه الطائفة وإمامهم ، أصله من « نهاوند » ، ومنشؤه ومولده بالعراق وأبوه كان يبيع الزجاج : فلذلك يقال له : القواريري . وكان فقيهاً على مذهب أبي ثور وكان يفتي في حلقته بحضرته وهو ابن عشرين سنة ، مات سنة سبع وتسعين ومائتين ٢٩٧ .
قال (الروذباري) : سمعت (الجنيد) يقول لرجل ذكر المعرفة وقال : أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر ، والتقرب إلى الله عز وجل . فقال الجنيد : إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال وهو عندي عظيمة . والذي يسرق ويزني أحسن حالا من الذي يقول هذا ، فان العارفين بالله تعالى أخذوا الأعمال عن الله تعالى وإليه رحعوا فيها ، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة الا ان حال بي دونها .
وقال (الجنيد) : الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ .
وقال : من لم يحفظ القرآن ، ولم يكتب الحديث ، لا يقتدى به في هذا الأمر ، لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة . وقال : مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة ، وعلمنا هذا مشيد بحديث رسول الله ﷺ (عن الرسالة القشيرية) .

و« الشبلي »[1] و « ابي يزيد البسطامي »[2] قدس الله ارواحهم ، وغير ذلك من كلام مشايخهم ، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع ، فظهر لي أن أخص خواصهم : ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم ، بل بالذوق ، والحال وتبدل الصفات .

وكم من الفرق بين أن يعلم حد الصحة ، وحد الشبع ، وأسبابهما وشروطهما وبين أن يكون صحيحاً وشبعان : وبين أن يعرف حد السكر ، وأنه : عبارة عن حالة تحصل من استيلاء أبخرة تتصاعد من المعدة على معادن الفكر ، وبين ان يكون سكران ، بل السكران لا يعرف حد السكر وعلمه ، وهو سكران ، وما معه من علمه من شيء ، والصاحي يعرف حد السكر وأركانه ، وما معه من السكر شيء .

والطبيب في حالة المرض ، يعرف حد الصحة ، وأسبابها ، وأدويتها وهو فاقد الصحة .

كذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطها ، وأسبابها ، وبين أن يكون حالك الزهد ، وعزوف النفس عن الدنيا .

---

(١) بغدادي المولد والمنشأ ، وأصله من (أسروشنه) صحب (الجنيد) ومن في عصره ، وكان شيخ وقته حالا وظرفاً وعلماً ، مالكي المذهب ، عاش سبعاً وثمانين سنة ، ومات سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة وقبره بـ (بغداد) .
وكان (الشبلي) إذا دخل رمضان جد فوق جد من عاصره ، ويقول : هذا شهر عظمه ربي ، فانا أول من يعظمه .

(٢) كان من كبار الزاهدين العابدين : قيل : إنه مات سنة إحدى وستين ومائتين ، وقيل أربع وثلاثين ومائتين .
وذهب مرة لزيارة رجل كان مقصوداً مشهوراً بالزهد ، فلما خرج الرجل من بيته ودخل المسجد رمى ببصاقة تجاه القبلة ، فانصرف « أبو يزيد » ولم يسلم عليه وقال : هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ ، فكيف يكون مأموناً على ما يدعيه ؟
ومن كلامه : لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرتقي في الهواء ؛ فلا تغتروا به ، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي ، وحفظ الحدود ، واداء الشريعة (انظر الرسالة القشيرية) .

فعلمت يقيناً : انهم أرباب الأحوال ، لا أصحاب الأقوال ، وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم ، فقد حصلته ، ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم ، بل بالذوق والسلوك .

وكان قد حصل معي ـ من العلوم التي مارستها ، والمسالك التي سلكتها في التفتيش عن صنفي العلوم الشرعية ، والعقلية ـ إيمان يقيني بالله تعالى وبالنبوة ، وباليوم الآخر :

فهذه الأصول الثلاثة من الايمان : كانت قد رسخت في نفسي لا بدليل معين محرر ، بل بأسباب ، وقرائن ، وتجارب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها .

وكان قد ظهر عندي : أنه لا مطمع في سعادة الآخرة إلا بالتقوى ، وكف النفس عن الهوى . وأن رأس ذلك كله : قطع علاقة القلب عن الدنيا : بالتجافي عن دار الغرور ، والانابة الى دار الخلود ، والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، وأن ذلك : لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه ، والمال ، والهرب من الشواغل والعلائق .

ثم لاحظت احوالي : فاذا أنا منغمس في العلائق ، وقد أحدقت بي من الجوانب .

ولاحظت أعمالي ـ واحسنها التدريس والتعليم ـ فإذا انا فيها مقبل على علوم غير مهمة ، ولا نافعة في طريق الآخرة . ثم تفكرت في نيتي في التدريس : فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه ، وانتشار الصيت ، فتيقنت : أني : على شفا جرف هار ، وأني اشفيت على النار ، إن لم أشتغل بتلافي الأحوال .

فلم أزل أفكر فيه مدة ؛ وأنا بعد على مقام الاختيار ، أصمم العزم على الخروج من بغداد ، ومفارقة تلك الأحوال يوماً ، وأحل العزم يوماً . وأقدم فيه رجلا ، وأؤخر عنه أخرى ، لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة ، إلا وتحمل عليها جند الشهوة جملة ، فتفترها عشية ، فصارت شهوات الدنيا تجاذبني سلاسلها إلى المقام ، ومنادي الايمان ينادي : الرحيلَ الرحيلَ ، فلم يبق من العمر الا قليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من

العلم والعمل ، رياء وتخييل . فان لم تستعد الآن للآخرة ، فمتى تستعد ؟ وان لم تقطع هذه العلائق فمتى تقطع ؟ فعند ذلك تنبعث الداعية ، وينجزم العزم على الهرب والفرار !

ثم يعود الشيطان ويقول : هذه حال عارضة ، اياك أن تطاوعها ، فإنها سريعة الزوال ، فإن أذعنت لها ، وتركت هذا الجاه العريض ، والشأن المنظوم الخالي عن التكدير والتنغيص ، والأمن المسلم الصافي عن منازعة الخصوم ، ربما التفتت إليه نفسك ، ولا يتيسر لك المعاودة .

فلم ازل اتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ، ودواعي الآخرة ، قريباً من ستة أشهر ، أولها : رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة [1] وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار : إذ أقفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس ، فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوماً واحداً ، تطييباً للقلوب المختلفة إليّ ، فكان لا ينطق لساني بكلمة واحدة ، ولا أستطيعها ألبتة ، حتى أورثت هذه العقلة في اللسان ، حزناً في القلب ، بطلت معه قوة الهضم ، ومراءة الطعام والشراب ، فكان لا ينساغ لي ثريد ، ولا تنهضم لي لقمة . وتعدى إلى ضعف القوى ، حتى قطع الأطباء طمعهم من العلاج وقالوا :

هذا أمر نزل بالقلب ، ومنه سرى إلى المزاج ، فلا سبيل إليه بالعلاج ، الا بأن يتروح السر عن الهم الملم :

ثم لما أحسست بعجزي ، وسقط بالكلية اختياري ، التجأت الى الله تعالى ، التجاء المضطر ، الذي لا حيلة له ، فأجابني الذي يجيب المضطر اذا دعاه ، وسهل على قلبي الاعراض عن الجاه ، والمال والأولاد والأصحاب .

وأظهرت عزم الخروج الى مكة ، وأنا أدبر في نفسي سفر « الشام » ، حذراً أن يطلع الخليفة ، وجملة الأصحاب ، على عزمي في المقام بالشام ، فتلطفت بلطائف الحيل في الخروج من بغداد ، على عزم ألا أعودها أبداً ، واستهدفت للأئمة أهل العراق كافة ، اذ لم يكن فيهم من يجوز أن يكون

---

(١) في نسخة أخرى : ست وثمانين وأربعمائة .

الاعراض عما كنت فيه سبباً دينياً ، اذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى في الدين . وكان ذلك مبلغهم من العلم .

ثم ارتبك الناس في الاستنباطات ، وظن من بعد عن العراق ، أن ذلك كان لاستشعار من جهة الولاة ، وأما من قرب من الولاة ، وكان يشاهد الحاحهم في التعلق بي ، والانكباب عليّ ، واعراضي عنهم . وعن الالتفات الى قولهم ، فيقولون : هذا أمر سماوي . وليس له سبب ، الا عين اصابت أهل الاسلام ، وزمرة العلم .

ففارقت « بغداد » وفرقت ما كان معي من المال ، ولم أدخر الا قدر الكفاف ، وقوت الأطفال ، ترخصاً بأن مال العراق مرصد للمصالح ، لكونه وقفاً على المسلمين ، فلم أر في العالم مالا يأخذه العالم لعياله ، أصلح منه .

ثم دخلت « الشام » وأقمت به قريباً من سنتين ، لاشغل لي الا العزلة ، والخلوة ، والرياضة ، والمجاهدة : اشتغالا بتزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق ، وتصفية القلب لذكر الله تعالى ، كما كنت حصلته من علم الصوفية . فكنت اعتكف مدة في مسجد « دمشق » أصعد منارة المسجد طول النهار ، وأغلق بابها على نفسي .

ثم رحلت منها إلى « بيت المقدس » أدخل كل يوم الصخرة ، وأغلق بابها على نفسي .

ثم تحركت في داعية فريضة الحج ، والاستمداد من بركات « مكة » « والمدينة » وزيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد الفراغ من زيارة « الخليل » صلوات الله عليه ، فسرت إلى « الحجاز » .

ثم جذبتني الهمم ، ودعوات الأطفال الى الوطن ، فعاودته ، بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع اليه .

فآثرت العزلة به أيضاً ، حرصاً على الخلوة ، وتصفية القلب للذكر .

وكانت حوادث الزمان ، ومهمات العيال وضرورات المعاش ، تغير في وجه المراد ، وتشوش صفوة الخلوة ، وكان لا يصفو لي الحال الا في أوقات

متفرقة ، لكني مع ذلك لا أقطع طمعي منها ، فتدفعني عنها العوائق ، وأدعو اليها .

ودمت على ذلك مقدار عشر سنين .

وانكشف لي في أثناء هذه الخلوات أمور ، لا يمكن إحصاؤها ، واستقصاؤها والقدر الذي أذكره لينتفع به : أني علمت يقيناً أن الصوفية : هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة ، وأن سيرتهم : أحسن السير ، وطريقهم : أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق . بل لو جمع عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ، ليغيروا شيئاً من سيرهم ، وأخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا إليه سبيلا ، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم ، في ظاهرهم وباطنهم ، مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به .

وبالجملة : فماذا يقول القائلون في طريقة طهارتها ـ وهي أول شروطها ـ تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى .

ومفتاحها ـ الجاري منهما مجرى التحريم من الضلاة ـ استغراق القلب بالكلية بذكر الله .

وآخرها الفناء بالكلية في الله !

وهذا آخرها ، بالاضافة الى ما يكاد يدخل تحت الاختبار والكسب : من أوائلها ، وهي ، على التحقيق : أول الطريقة ، ومقابل ذلك : كالدهليز للسالك إليه .

ومن أول الطريقة تبتدىء المكاشفات والمشاهدات ، حتى أنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة ، وأرواح الانبياء ، ويسمعون منهم أصواتاً ، ويقتبسون منهم فوائد .

ثم يترقى الحال من مشاهد الصور والامثال ، إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق ، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها ، إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح ، لا يمكنه الاحتراز عنه .

وعلى الجملة : ينتهي الأمر الى قرب يكاد أن يتخيل منه طائفة الحلول وطائفة الاتحاد .
وطائفة الوصول .
وكل ذلك خطأ .

وقد بينا وجه الخطأ فيه ، في كتاب : « المقصد الأسنى » بل الذي لابستم الحالة ، لا ينبغي أن يزيد : على أن يقول :

وكان ما كان ، مما لست أذكره
فظن خيراً ، ولا تسأل عن الخبر

وبالجملة : فمن لم يرزق منه شيء بالذوق ، فليس يدرك من حقيقة النبوة إلا الاسم ، وكرامات الأولياء ـ على التحقيق ـ هي بدايات الأنبياء . وكان ذلك أول حال رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ حيث تبتل ، حين أقبل إلى جبل « حراء » حيث كان يخلو فيه بربه ، ويتعبد ، حتى قالت العرب :

« إن محمداً عشق ربه » .

وهذه حالة يتحققها بالذوق من سلك سبيلها .

فمن لم يرزق الذوق : فيتيقنها بالتجربة ، والتسامح ، إن أكثر معهم الصحبة حتى يفهم ذلك بقرائن الأحوال يقيناً ، ومن جالسهم استفاد منهم هذا الايمان ، فهم القوم ، لا يشقى جليسهم .

ومن لم يرزق صحبتهم ، فليعلم امكان ذلك يقيناً بشواهد البرهان ، على ما ذكرناه في « كتاب عجائب القلب » . من كتب « احياء علوم الدين » .

والتحقيق بالبرهان علم ، وملابسة عين تلك الحالة ذوق .

والقبول من التسامع ، والتجربة ، بحسن الظن ، ايمان .

فهذه ثلاث درجات :

(يَرْفَعُ اللهُ الذينَ آمنوا منكم والذينَ أوتوا العلمَ دَرَجاتٍ) .

ووراء هؤلاء قوم جهال : هم المنكرون لأصل ذلك ، المتعجبون من هذا

الكلام يتسَّمعون ، ويسخرون ، ويقولون : العجب ، إنهم كيف يهذون !
وفيهم قال الله تعالى :

« وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إليكَ ، حتى إذا خرجوا مِنْ عندِكَ قالوا للَّذينَ أوتوا العلمَ : ماذا قال آنفاً ؟ أولئكَ الذين طبعَ الله على قلوبِهِمْ ، واتَّبَعوا أهواءَهُمْ[1] » « فأصَمَّهُمْ ، وأعْمَى أبصارَهُمْ[2] » .

ومما بان لي ، بالضرورة من ممارسة طريقتهم : حقيقة النبوة ، وخاصيتها ولا بد من التنبيه على أصلها ، لشدة مسيس الحاجة إليها .

---

(١) محمد آية : ١٦
(٢) محمد آية ٢٣

حقيقة النبوة
واضطرار كافة الخلق إليها

اعلم أن جوهر الانسان ـ في أصل الفطرة : خلق خالياً ، ساذجاً ، لا خير معه من عوالم الله تعالى ، والعوالم كثيرة ، لا يحصيها إلا الله تعالى ، كما قال : (ومَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إلا هُوَ) .

وإنما خبره في العالم بواسطة الادراك ، وكل إدراك من الادراكات : خلق ليضطلع الانسان به على عالم من الموجودات ، ونعني بالعوالم ، أجناس الموجودات ، فأول ما يخلق في الانسان حاسة اللمس ، فيدرك بها أجناساً من الموجودات : كالحرارة ، والبرودة ، والرطوبة ، واليبوسة ، واللين ، والخشونة وغيرها . واللمس قاصر عن الألوان والأصوات قطعاً ، بل هي كالمعدوم في حق اللمس .

ثم تخلق له حاسة البصر ، فيدرك بها الألوان ، والأشكال ، وهو أوسع عوالم المحسات .

ثم ينفخ فيه السمع ، فيسمع الأصوات ، والنغمات .
ثم يخلق له الذوق .

وكذلك ، إلى أن يجاوز عالم المحسات : فيخلق فيه التمييز وهو قريب من سبع سنين ، وهو طور آخر من أطوار وجوده ، فيدرك فيه أموراً زائدة على المحسات ، لا يوجد منها شيء في عالم الحس .

ثم يترقى إلى طور آخر ؛ فيخلق له العقل ؛ فيدرك الواجبات ، والجائزات ، والمستحيلات ، وأموراً لا توجد في الأطوار التي قبله .

ووراء العقل طور آخر ، تنفتح فيه عين أخرى ، يبصر بها الغيب ، وما سيكون في المستقبل . وأموراً اخرى ، العقل معزول عنها . كعزل قوة التمييز عن إدراك المعقولات . وكعزل قوة الحس عن مدركات التمييز .

وكما أن المميز : لو عرضت عليه مدركات العقل لأباها . واستبعدها . فكذلك بعض العقلاء : أبوا مدركات النبوة ، واستبعدوها . وذلك عين الجهل : إذ لا مستند لهم إلا أنه طور لم يبلغه . ولم يوجد في حقه . فيظن أنه غير موجود في نفسه . والأكمه لو لم يعلم بالتواتر والتسامع الألوان ، والأشكال . وحكي له ذلك ابتداء . لم يفهمها . ولم يقر بها .

وقد قرَّب الله تعالى ذلك على خلفه : بأن أعطاهم أنموذجاً من خاصية النبوة ، وهو النوم ؛ إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب ، إما صريحاً ، وإما في كسوة مثال يكشف عنه التعبير : وهذا لو لم يجربه الانسان من نفسه ـ وقيل له : من الناس من يسقط مغشياً عليه كالميت ، ويزول عنه إحساسه ، وسمعه . وبصره . فيدرك الغيب ـ لأنكره . وأقام البرهان على استحالته . وقال : القوى الحساسة أسباب الادراك . فمن لا يدرك الأشياء مع وجودها وحضورها ، فبأن لا يدركها مع ركودها أولى وأحق .

وهذا نوع قياس يكذبه الوجود ، والمشاهدة . فكما أن العقل طور من أطوار الآدمي . يحصل فيه عين يبصر بها أنواعاً من المعقولات ، والحواس معزولة عنها . فالنبوة أيضاً عبارة عن طور يحصل فيه عين لها نور . يظهر في نورها الغيب ، وأمور لا يدركها العقل .

والشك في النبوة إما أن يقع :
في إمكانها .
أو في وجودها
أو في حصولها لشخص معين .

ودليل إمكانها وجودها .

ودليلُ وجودها : وجود معارف في العالم ، لا يتصور أن تنال بالعقل :

كعلم الطب ، والنجوم[1] فإن من بحث عنها ، علم ـ بالضرورة ـ أنها : لا تدرك إلا بإلهام إلهي ، وتوفيق من جهة الله تعالى ، ولا سبيل إليها بالتجربة ، فمن الأحكام النجومية : ما لا يقع إلا في كل ألف سنة مرة ، فكيف ينال ذلك بالتجربة ، وكذلك خواص الأدوية .

فتبين بهذا البرهان . أن في الامكان : وجود طريق لادراك هذه الأمور ، التي لا يدركها العقل ، وهو المراد بالنبوة ، لا أن النبوة عبارة عنها فقط ، بل إدراك هذا الجنس الخارج عن مدركات العقل : إحدى خواص النبوة ، ولها خواص كثيرة سواها ، وما ذكرنا فقطرة من بحرها . إنما ذكرناها لأن معك أنموذجاً منها : وهو مدركاتك في النوم ، ومعك علوم من جنسها ، في الطب ، والنجوم ، وهي : معجزات الأنبياء ؛ ولا سبيل إليها للعقلاء ببضاعة العقل أصلا .

وأما ما عدا هذا من خواص النبوة : إنما يدرك بالذوق ، من سلوك طرف التصوف ، لأن هذا إنما فهمته بأنموذج رزقته ، وهو النوم ، ولولاه لما صدقت به . فإن كان للنبي خاصة ليس لك منها أنموذج ، ولا تفهمها أصلا ، فكيف تصدق بها ؟ وإنما التصديق بعد الفهم .

وذلك الأنموذج يحصل في أوائل طريق التصوف ، فيحصل به نوع من الذوق بالقدر الحاصل ، ونوع من التصديق بما لم يحصل بالقياس إليه .

فهذه الخاصية الواحدة ، تكفيك للايمان بأصل النبوة .

فإن وقع لك الشك في شخص معين : أنه نبي أم لا ؟ فلا يحصل اليقين إلا بمعرفة أحواله : إما بالمشاهدة ، أو بالتواتر والتسامع . فإنك اذا عرفت الطب ، والفقه ، يمكنك أن تعرف الفقهاء ، والأطباء ، بمشاهدة أحوالهم ، وسماع أقوالهم ، وإن لم تشاهدهم .

ولا تعجز أيضاً عن معرفة كون « الشافعي » ـ رحمه الله ـ فقيهاً ، وكون « جالينوس » طبيباً ، معرفة بالحقيقة ، لا بالتقليد عن الغير ، بل بأن تتعلم

---

(١) لعل الامام رحمه الله يريد أن يقول : الانسان في ابتداء وجوده وخلقه . ألهمه الله الاسس ، التي يبني عليها تجاربه في عالم الطب ، وملاحظته في علم الفلك .

شيئاً من الفقه والطب ، وتطالع كتبهما ، وتصانيفهما : فيحصل لك علم ضروري بحالهما .

فكذلك إذا فهمت معنى النبوة ، فأكثرت النظر في القرآن ، والأخبار يحصل لك العلم الضروري بكونه ، ﷺ ، على أعلى درجات النبوة . وأعضد ذلك بتجربة ما قاله : في العبادات وتأثيرها في تصفية القلوب ، وكيف صدق في قوله : « من عمل بما علم ، ورثه الله علم ما لم يعلم » .

وكيف صدق في قوله : « من أعان ظالماً ، سلطه الله عليه » .

وكيف صدق في قوله : « من أصبح وهمومه هم واحد (هو التقوى[1]) كفاه الله تعالى هموم الدنيا والآخرة[2] » .

فإذا جربت ذلك في الف ، وألفين ، وآلاف ، حصل لك علم ضروري لا تتمارى فيه .

فمن هذا الطريق : اطلب اليقين بالنبوة ، لا من قلب العصا ثعباناً ، وشق القمر ، فإن ذلك إذا نظرت إليه وحده لم تنضم إليه القرائن الكثيرة الخارجة عن الحصر ، ربما ظننت أنه سحر ، وتخييل ، وأنه من الله إضلال ، فإنه (يضلُّ مَنْ يشاءُ ويَهْدِي مَنْ يشاء) .

وترد عليك أسئلة المعجزات : فإن كان مستنداً إيمانك إلى كلام منظوم في وجه دلالة المعجزة ، فينجزم إيمانك بكلام مرتب في وجه الاشكال ، والشبهة عليها .

فليكن مثل هذه الخوارق إحدى الدلائل والقرائن في مجلة نظرك ، حتى يحصل لك علم ضروري ، لا يمكنك ذكر مستنده على التعيين ، كالذي يخبره جماعة بخبر متواتر ، لا يمكنه أن يذكر أن اليقين مستفاد من قول واحد

---

(١) ما بين القوسين زيادة عن الجامع الصغير وضعناها لبيان المعنى .

(٢) وفي سنن ابن ماجه عن رسول الله ﷺ : (ومن جعل الهموم هما واحداً ، هم المعاد ، كفاه الله هم دنياه . ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أوديته هلك) .

معين ، بل من حيث لا يدري ، ولا يخـرج من جملـة ذلك ، ولا بتعيين الآحاد ، فهذا هو الايمان القوي العلمي .

وأما الذوق فهـو كالمشاهـدة ، والأخـذ باليد ، ولا يوجـد إلا في طريق الصوفية .

فهذا القدر من حقيقة النبوة كاف في الغرض الذي أقصده الآن ، وسأذكر وجه الحاجة إليه .

سَبَبُ نَشْرِ العِلْمِ بَعْدَ الإِعْرَاضِ عَنْهُ

ثم إني واظبت على العزلة والخلوة ، قريباً من عشر سنين ، وبان لي في - أثناء ذلك على الضرورة ، من أسباب لا أحصيها : مرة بالذوق ، ومرة بالعلم البرهاني ، ومرة بالقبول الايماني - أن الانسان خلق من بدن وقلب ، وأعني بالقلب حقيقة روحه ، التي هي محل معرفة الله ، دون اللحم والدم الذي يشارك فيه الميت والبهيمة ، وأن البدن ، له صحة بها سعادته ، ومرض فيه هلاكه ، وأن القلب كذلك ، له صحة وسلامة ، ولا ينجو (إلا مَنْ أتى الله بقلب سليم) وله مرض فيه هلاكه الأبدي الأخروي ، كما قال تعالى « في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ »وأن الجهل بالله سُم مُهلك ، وأن معصية الله ، بمتابعة الهوى : داؤه الممرض ، وأن معرفة الله تعالى : ترياقه المحيي ، وطاعته ، بمخالفة الهوى : دواؤه الشافي ، وأنه لا سبيل إلى معالجته بإزالة مرضه وكسب صحته ، إلا بأدوية ، كما لا سبيل إلى معالجة البدن ، إلا بذلك ، وكما أن أدوية البدن تؤثر في كسب الصحة ، بخاصية فيها ، لا يدركها العقلاء ببضاعة العقل ، بل يجب فيها تقليد الأطباء ، الذين أخذوها من الأنبياء ، الذين اطلعوا بخاصية النبوة ، على خواص الأشياء ، فكذلك بان لي - على الضرورة - أن أدوية العبادات - بحدودها ، ومقاديرها المحدودة ، المقدرة من جهة الأنبياء - لا يدرك وجه تأثيرها ببضاعة عقل العقلاء ، بل يجب فيها تقليد الأنبياء ، الذين أدركوا تلك الخواص ، بنور النبوة لا ببضاعة العقل .

وكما أن الأدوية : تركب من أخلاط مختلفة النوع والمقدار ، وبعضها ضِعفُ البعض في الوزن والمقدار ، فلا يخلو اختلاف مقاديرها عن سر ،

هو من قبيل الخواص ، فكذلك العبادات التي هي أدوية داء القلوب : مركبة من أفعال مختلفة النوع والمقدار ، حتى إن السجود ضعف الركوع ، وصلاة الصبح نصف صلاة العصر في المقدار ، ولا يخلو عن سر من الأسرار ، هو من قبيل الخواص التي لا يُطَّلعُ عليها إلا بنور النبوة .

ولقد تحامق وتجاهل جداً من أراد أن يستنبط ـ بطريق العقل ـ لها حكمة ، أو ظن أنها ذكرت على الاتفاق ، لا عن سر إلهي فيها ، يقتضيها بطريق الخاصية .

وكما أن في الأدوية أصولا هي أركانها ، وزوائد هي متمماتها ، لكل واحد منها خصوص تأثير في أعمال أصولها ، كذلك النوافل والسنن : متممات لتكميل آثار أركان العبادات .

وعلى الجملة : الأنبياء أطباء أمراض القلوب ، وإنما فائدة العقل وتصرفه أن عرَّفنا ذلك ، ويشهد للنبوة بالتصديق ، ولنفسه بالعجز عن درك ما يدرك بعين النبوة ، وأخذ بأيدينا ، وسلمنا إليها تسليم العميان إلى القائدين . وتسليم المرضى المتحيرين إلى الأطباء المشفقين . وإلى ها هنا مجرى العقل ومخطاه وهو معزول عما بعد ذلك ، إلا عن تفهم ما يلقيه الطبيب إليه .

فهذه أمور عرفناها بالضرورة الجارية مجرى المشاهدة في مدة الخلوة والعزلة .

ثم رأينا فتور الاعتقادات في أصل النبوة .

ثم في حقيقة النبوة .

ثم في العمل بما شرحته النبوة .

وتحققنا شيوع ذلك بين الخلق . فنظرت إلى أسباب فتور الخلق ، وضعف إيمانهم ، فإذا هي أربعة :

١ ـ سبب من الخائضين في علم الفلسفة .
٢ ـ وسبب من الخائضين في طريق التصوف .
٣ ـ وسبب من المنتسبين إلى دعوى التعليم .
٤ ـ وسبب من معاملة الموسومين بالعلم فيما بين الناس .

فإني تتبعت مدة آحاد الخلق : أسأل من يقصر منهم في متابعة الشرع ؛ وأسأله عن شبهته . وأبحث عن عقيدته وسره . وقلت له : ما لك تقصر فيها ؟ فإن كنت تؤمن بالآخرة ، ولست تعتمد لها وتبيعها بالدنيا ، فهذه حماقة ! فإنك لا تبيع الاثنين بواحد ، فكيف تبيع ما لا نهاية له بأيام معدودة ؟ وإن كنت لا تؤمن ، فأنت كافر ، فدبر نفسك في طلب الايمان ، وانظر ما سبب كفرك الخفي الذي هو : مذهبك باطناً ، وهو سبب جرأتك ظاهراً ، وإن كنت لا تصرح به ، تجملا بالايمان ، وتشرفاً بذكر الشرع .

فقائل يقول : « هذا أمر لو وجبت المحافظة عليه ، لكان العلماء أجدر بذلك ، وفلان من المشاهير ، بين الفضلاء ، لا يصلي ، وفلان يشرب الخمر ، وفلان يأكل أموال الأوقاف ، وأموال اليتامى . وفلان يأكل إدرار السلطان ولا يحترز عن الحرام . وفلان يأخذ الرشوة على القضاء والشهادة . وهلم جرا . إلى أمثاله . .

وقائل ثان يدعي علم التصوف . ويزعم أنه قد بلغ مبلغاً ترقى عن الحاجة إلى العبادة .

وقائل ثالث يتعلل بشبهة أخرى . من شبهات أهل الاباحة !

وهؤلاء هم الذين ضلوا عن التصوف .

وقائل رابع ، لقي أهل التعليم فيقول : الحق مشكل ، والطريق إليه متعسر ، والاختلاف فيه كثير ، وليس بعض المذاهب أولى من بعض ، وأدلة العقول متعارضة ، فلا ثقة برأي أهل الرأي ، والداعي إلى التعليم متحكم لا حجة له ؛ فكيف أدع اليقين بالشك ؟

وقائل خامس يقول : لست أفعل هذا تقليداً ، ولكني قرأت علم الفلسفة ، وأدركت حقيقة النبوة : وأن حاصلها : يرجع إلى الحكمة والمصلحة ؛ وأن المقصود من تعبداتها : ضبط عوام الخلق ، وتقييدهم عن التقاتل ، والتنازع ، والاسترسال في الشهوات ، فما أنا من العوام الجهال ، حتى أدخل في حجر التحليف ، وإنما أنا من الحكماء : أتبع الحكمة ، وأنا بصير بها ، مستغن فيها عن التقليد .

هذا : منتهى إيمان من قرأ مذهب فلسفة الالهيين منهم ، وتعلم ذلك من

كتب « ابن سينا » و « أبي نصر الفارابي » .

وهؤلاء هم المتجملون بالاسلام :

وربما ترى الواحد منهم يقرأ القرآن ، ويحضر الجماعات والصلوات ويعظم الشريعة بلسانه ، ولكنه ، مع ذلك : لا يترك شرب الخمر ، وأنواعاً من الفسق والفجور !

وإذا قيل له :

إن كانت النبوة غير صحيحة فلم تصلي ؟ فربما يقول :

لرياضة الجسد : ولعادة أهل البلد ، وحفظ المال والولد ، وربما قال :

الشريعة صحيحة ، والنبوة حق ، فإذا قيل له :

فلم تشرب الخمر ؟ فيقول :

إنما نهى عن الخمر ، لأنها تورث العداوة والبغضاء ، وأنا بحكمتي محترز عن ذلك ، وإني أقصد به تشحيذ خاطري .

حتى إن « ابن سينا » في وصية له كتب فيها أنه عاهد الله تعالى ، على كذا وكذلك ، وأن يعظم الأوضاع الشرعية ، ولا يقصر في العبادات الدينية ، ولا يشرب تلهياً ، بل تداوياً وتشافياً ، فكان منتهى حالته في صفاء الايمان ، والتزام العبادات : أن استثنى شرب الخمر لغرض التشافي .

فهذا إيمان من يدعي الايمان منهم ، وقد انخدع بهم جماعة ، وزادهم ضعف اعتراض المعترضين عليهم ، إذ اعترضوا بمجاحدة علم الهندسة والمنطق ، وغير ذلك ، مما هو ضروري لهم ، على ما بينا علته من قبل .

فلما رأيت أصناف الخلق من ضعف إيمانهم إلى هذا الحد ، بهذه الأسباب ، ورأيت نفسي ملبّة[1] بكشف هذه الشبهة ، حتى كان فضح هؤلاء : أيسر عندي من شربة ماء ، لكثرة خوضي في علومهم ، وطرقهم ، أعني طرق « الصوفية » و « الفلاسفة » و « التعليمية » ، و« المتوسمين من العلماء » انقدح في نفسي أن ذلك : متعين ، في هذا الوقت محتوم .

(١) ألب بالمكان : أقام به ولزمه .

فما تغنيك الخلوة والعزلة ، وقد عم الداء ، ومرض الأطباء ، وأشرف الخلق على الهلاك ؟

ثم قلت في نفسي : متى تشتغل أنت بكشف هذه الغمة ؟ ومصادمة هذه الظلمة ، والزمان زمان الفترة ، والدور دور الباطل ؟ ولو اشتغلت بدعوة الخلق عن طرقهم إلى الحق ، لعاداك أهل الزمان بأجمعهم ، وأنى تقاومهم ، فكيف تعايشهم ؟ ولا يتم ذلك إلا بزمان مساعد . وسلطان متدين قاهر ؟

فترخصت ، بيني وبين الله تعالى ، بالاستمرار على العزلة ؛ تعللا بالعجز عن إظهار الحق بالحجة . فقدر الله تعالى : أن حرك داعية سلطان الوقت من نفسه لا بتحريك من خارج . فأمر أمر إلزام بالنهوض إلى « نيسابور » لتدارك هذه الفترة . وبلغ الالزام حداً ـ كاد ينتهي ـ لو أصررت على الخلاف ـ إلى حد الوحشة :

فخطر لي : أن سبب الرخصة قد ضعف ، فلا ينبغي أن يكون باعثك على ملازمة العزلة الكسل والاستراحة ، وطلب عز النفس ، وصونها عن أذى الخلق . ولم ترخص نفسك بعسر معاناة الخلق ؟ والله تعالى يقول :

(بسم الله الرحمن الرحيم : ألم أحَسِبَ النّاسُ أن يُتْرَكُوا أن يقولوا : آمنَّا وهم لا يُفتنونَ ؟

ولقد فَتَنّا الذينَ مِنْ قبلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الذينَ صَدَقُوا ولَيَعْلَمَنَّ الكاذبين[1]) .

ويقول عز وجلّ ، لرسوله وهو أعز خلقه :
« وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قبلِكَ ، فَصَبَرُوا على ما كُذِّبُوا ، وأوذُوا ، حتى أتاهُمْ نَصْرُنا ، ولا مُبَدِّلَ لكلمات اللهِ . ولقد جاءك مِنْ نبأ المُرْسَلِين[2] »

---

(١) العنكبوت آية : ١ ـ ٣

(٢) الانعام آية : ٣٤

ويقول : عز وجل :

(بسمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرّحيمِ : يس والقرآنِ الحكيمِ . . إنَّـكَ لَمِـنَ المُرْسَلِينَ .

على صِراطٍ مُستقيم .

تنزيلَ العزيزِ الرّحيمِ .

لِتُنْذِرَ قَوماً ما أنذِرَ آباؤهُمْ فَهُمْ غافلو ن .

لَقَدْ حَقَّ القولُ على أكثرِهم فَهُمْ لا يؤمنو ن .

إنّا جعلنا في أعناقهم أغْلالاً فهي إلى الأذْقانِ فهم مُقْمَحُو ن .

وجعلنـا مِنْ بينِ أيديهـم سدّاً ومِـنْ خلْفِهِـمْ سدّاً فأغشيناهُـمْ فَهُـمْ لا يُبْصِرُو ن .

وسواء عليهم ءَأنْذَرْتَهُمْ . أمْ لم تنذرْهُمْ لا يؤمنو ن .

إنَّما تُنْذِرُ مِنِ اتّبعَ الذِّكْرَ) .

فشاورت في ذلك جماعة من أرباب القلوب ، والمشاهـدات . فاتفقـوا على الاشارة بترك العزلة والخروج من الزاوية .

وانضاف إلى ذلك منامات من الصالحين كثيرة ، متواترة ، تشهد بأن هذه الحركة : مبـدأ خير ، ورشـد . قدرهـا الله ، سبحانـه . علـى رأس هذه المائة[1] . وقد وعد الله سبحانه ، بإحياء دينه ، على رأس كل مائة .

فاستحكم الرجاء ، وغلب حسن الظن ـ بسبب هذه الشهادات ـ ويسر الله تعالى الحركة إلى « نيسابور » للقيام بهذا المهم ، في ذي القعدة سنة تسع وتسعين وأربعمائة . وكان الخروج من « بغداد » في ذي القعدة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة . وبلغت مدة العزلة إحدى عشرة سنة .

وهذه حركة قدرها الله تعالى . وهي من عجائب تقديراته التي لم يكن لها انقداح في القلب في هذه العزلـة ، كمـا لم يكن الخـروج من « بغـداد »

---

(١) روى أبو داود ، والحاكم ، والبيهقي : (إن الله تعالى يبعث لهذه الامة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها) .

والنزوع عن تلك الأحوال مما خطر إمكانه أصلا بالبال . والله تعالى مقلب القلوب والأحوال ، و « قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن » .

وأنا أعلم : أني وإن رجعت إلى نشر العلم . فما رجعت ، فإن الرجوع عود إلى ما كان . وكنت في الزمان أنشر العلم الذي به يكسب الجاه . وأدعو إليه بقولي وعملي . وكان ذلك قصدي ، ونيتي . وأما الآن فأدعو إلى العلم الذي به يترك الجاه . ويعرف به سقوط رتبة الجاه .

هذا هو الآن نيتي ، وقصدي ، وأمنيتي : يعلم الله ذلك مني ؛ وأنا أبغي أن أصلح نفسي ، وغيري . ولست أدري أأصل إلى مرادي . أم أخترمُ دون غرضي ؟ ولكني أومن إيمان يقين ومشاهدة . أنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وأني لم أتحرك لكنه حركني ، وأني لم أعمل لكنه استعملني . فأسأله : أن يصلحني أولا ، ثم يصلح بي . ويهديني ، ثم يهدي بي . وأن يريني الحق حقاً ، ويرزقني اتباعه . ويريني الباطل باطلا ، ويرزقني اجتنابه .

* * *

ونعود الآن إلى ما ذكرناه ، من أسباب ضعف الايمان فيمن ذكر : بذكر طريق إرشادهم ، وإنقاذهم من مهالكهم .

أما الذين ادعو الحيرة بما سمعوه من أهل التعليم . فعلاجه ما ذكرناه في كتاب : « القسطاس المستقيم » ولا نطول بذكره في هذه الرسالة .

وأما ما توهمه أهل الاباحة ، فقد حصرنا شبههم في سبعة أنواع ، وكشفناها في كتاب « كيمياء السعادة » .

وأما من فسد إيمانه بطريق الفلسفة حتى أنكر أصل النبوة : فقد ذكرنا حقيقة النبوة ووجودها بالضرورة بدليل وجود علم خواص الأدوية والنجوم وغيرهما . وإنما قدمنا هذه المقدمة لأجل ذلك .

وإنما أوردنا الدليل من خواص الطب والنجوم . لأنه من نفس علمهم . ونحن نبين لكل عالم بفن من العلوم : كالنجوم . والطب . والطبيعة . والسحر . والطلسمات . مثلا من نفس علمه برهان النبوة .

وأما من أثبت النبوة بلسانه ، وسوى أوضاع الشرع على الحكمة . فهو على التحقيق : كافر بالنبوة . وإنما هو : مؤمن بحكيم . له طالع مخصوص يقتضي طالعه أن يكون متبوعاً .

وليس هذا من النبوة في شيء .

بل الايمان بالنبوة أن يقر بإثبات طور وراء العقل ، تتفتح فيه عين يدرك بها مدركات خاصة ، والعقل معزول عنها : كعزل السمع عن إدراك الألوان . والبصر عن إدراك الأصوات . وجميع الحواس عن إدراك المعقولات .

فإن لم يجوز هذا . فقد أقمنا البرهان على إمكانه . بل على وجوده .

وإن جوز هذا ، فقد أثبت أن ها هنا أموراً تسمى خواصاً ، لا يدور تصرف العقل حواليها أصلا ، بل يكاد العقل يكذبها . ويقضي باستحالتها فإن وزن دانق[1] من الأفيون : سم قاتل لأنه يجمد الدم في العروق لفرط برودته . والذي يدعي علم الطبيعة يزعم أن ما يبرد من المركبات ، إنما يبرد بعنصري الماء والتراب ، فهما العنصران الباردان ، ومعلوم أن أرطالا من الماء والتراب لا يبلغ تبريدهم في الباطن إلى هذا الحد : فلو أخبر طبيعي بهذا ، ولم يجربه ، لقال : « هذا محال ، والدليل على استحالته أن فيه نارية ، وهوائية ، والهوائية والنارية لا تزيد بها برودة ، فنقدر الكل ماء وتراباً ، فلا يوجد هذا الافراط بالتبريد ، فإن انضم إليه حاران فبأن لا يوجب أولى ، ويقدر هذا برهاناً !

وأكثر براهين الفلاسفة في الطبيعات والالهيات : مبني على هذا الجنس ، فإنهم تصوروا الأمور على قدر ما وجدوه وعقلوه ، وما لم يألفوه قدروا استحالته .

ولو لم تكن الرؤيا الصادقة مألوفة ، وادعى مدع : أنه عند ركود الحواس ، يعلم الغيب لأنكره المتصفون بمثل هذه العقول .

---

(١) الدانق بفتح النون وكسرها : سدس الدرهم .

ولو قيل لواحد : « هل يجوز أن يكون في الدنيا شيء هو بمقدار حبة ، يوضع في بلدة ، ليأكل تلك البلدة بجملتها ، ثم يأكل نفسه . فلا يبقي شيئاً من البلدة وما فيها . ولا يبقى هو في نفسه ؟ » لقال : هذا محال ، وهو من جملة الخرافات ، وهذه حالة النار : ينكرها من لم ير النار ، إذا سمعها .

وأكثر إنكار عجائب الآخرة هو من هذا القبيل .

فنقول للطبيعي : قد اضطررت إلى أن تقول : في الأفيون خاصية في التبريد ليس على قياس المعقول بالطبيعة ، فلم لا يجوز أن يكون في الأوضاع الشرعية من الخواص ، في مداواة القلوب ، وتصفيتها ما لا يدرك بالحكمة العقلية ، بل لا يبصر ذلك إلا بعين النبوة ؟ بل قد اعترفوا بخواص هي أعجب من هذا فيما أوردوه في كتبهم ، وهي من الخواص العجيبة ، المجربة في معالجة الحامل ، التي عسر عليها الطلق بهذا الشكل .

د	ط	ب
ج	هـ	ز
ح	ا	و

٤	٩	٢
٣	٥	٧
٨	١	٦

يكتب على خرقتين ، لم يصبهما ماء ، وتنظر إليهما الحامل بعينها ، وتضعهما تحت قدميها ، فيسرع الولد في الحال إلى الخروج ، وقد أقروا بإمكان ذلك : وأوردوه في كتاب (عجائب الخواص) ، وهو شكل فيه تسعة بيوت ، يرقم فيها رقوم مخصوصة ، يكون مجموع ما في جدول واحد : خمسة عشر ، قرأته في طول الشكل ، أو في عرضه أو على التأريب .

فليت شعري ! من يصدق بذلك ، ثم لا يتسع عقله للتصديق ، بأن تقدير صلاة الصبح بركعتين ، والظهر بأربع ، والمغرب بثلاث هي : لخواص غير معلومة بنظر الحكمة ؟ وسببها : اختلاف هذه الأوقات ، وإنما تدرك هذه الخواص بنور النبوة .

والعجب : أنا لو غيرنا العبارة إلى عبارة المنجمين ، لعقلوا اختلاف هذه الأوقات فنقول : « أليس يختلف الحكم في الطالع : بأن تكون الشمس في وسط السماء ، أو في الطالع ، أو في الغارب ، حتى يبنوا على هذا في تسييراتهم اختلاف العلاج ، وتفاوت الأعمار والآجال ، ولا فرق بين الزوال وبين كون الشمس في وسط السماء ، ولا بين المغرب وبين كون الشمس في الغارب ، فهل لتصديقه سبيل ؟ إلا أن ذلك يسمعه بعبارة منجم ، جرب كذبه مائة مرة ، ولا يزال يعاود تصديقه ، حتى لو قال المنجم له : إذا كانت الشمس في وسط السماء ، ونظر إليها الكوكب الفلاني ، والطالع هو البرج الفلاني ، فلبست ثوباً جديداً في ذلك الوقت قتلت في ذلك الثوب ! » فإنه لا يلبس الثوب في ذلك الوقت ، وربما يقاسي فيه البرد الشديد ، وربما سمعه من منجم ، وقد عرف كذبه مرات .

فليت شعري ! من يتسع عقله لقبول هذه البدائع ويضطر إلى الاعتراف بأنها خواص ، معرفتها معجزة لبعض الأنبياء ـ كيف ينكر مثل ذلك فيما يسمعه من قول نبي صادق مؤيد بالمعجزات ، لم يعرف قط بالكذب ؟ فإن أنكر فلسفي إمكان هذه الخواص في أعداد الركعات ، ورمي الجمار ، وعدد أركان الحج ، وسائر تعبدات الشرع ، لم يجد بينها وبين خواص الأدوية والنجوم فرقاً أصلا .

فإن قال : قد جربت شيئاً من النجوم وشيئاً من الطب ، فوجدت بعضه صادقاً ، فانقدح في نفسي تصديقه ، وسقط من قلبي استبعاده ، ونفرته ، وهذا لم أجربه ، فبم أعلم وجوده وتحقيقه ؟

وإن أقررت بإمكانه فأقول :

إنك لا تقتصر على تصديق ما جربته ، بل سمعت أخبار المجربين وقلدتهم ، فاسمع أقوال الأنبياء ؛ فقد جربوا ، وشاهدوا الحق في جميع ما ورد به الشرع ، واسلك سبيلهم ، تدرك بالمشاهد بعض ذلك .

على أني أقول : « وإن لم تجربه فيقضي عقلك بوجوب التصديق والاتباع قطعاً فإنا لو فرضنا رجلا بلغ وعقل ، ولم يجرب المرض ، فمرض ، وله والد مشفق حاذق بالطب يسمع دعواه في معرفة الطب منذ عقل ، فعجن له

والده دواء ، فقال : « هذا يصلح لمرضك ، ويشفيك من سقمك » . فماذا يقتضيه عقله ، وإن كان الدواء مراً كريه المذاق ؟ أيتناوله ؟ أو يكذب ويقول « أنا لا أعقل مناسبة هذا الدواء ، لتحصيل الشفاء ولم أجربه ؟ » فلا شك أنك : تستحمقه إن فعل ذلك ! وكذلك يستحمقك أهل البصائر في توقفك !

فإن قلت : « فبم أعرف شفقة النبي عليه الصلاة والسلام ، ومعرفته بهذا الطب ؟ » فأقول :

« وبم عرفت شفقة أبيك ، وليس ذلك أمراً محساً ؟ بل عرفتها بقرائن أحواله ، وشواهد أعماله في مصادره ، وموارده ، علماً ضرورياً لا تتمارى فيه » .

ومن نظر في أقوال رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وما ورد من الأخبار في اهتمامه بإرشاد الخلق وتلطفه في جر الناس بأنواع الرفق واللطف إلى تحسين الأخلاق وإصلاح ذات البين ، وبالجملة إلى ما لا يصلح إلا به دينهم ، ودنياهم ، حصل له على علم ضروري ، بأن شفقته على أمته : أعظم من شفقة الوالد على ولده.

وإذا نظر إلى عجائب ما ظهر عليه من الأفعال وإلى عجائب الغيب الذي أخبر عنه في القرآن على لسانه ، وفي الأخبار وإلى ما ذكره في آخر الزمان ، فظهر ذلك كما ذكره ، علم ـ علماً ضرورياً ـ أنه بلغ الطور الذي وراء العقل ، وانفتحت له العين التي ينكشف منها الغيب الذي لا يدركه إلا الخواص ، والأمور التي لا يدركها العقل .

فهذا هو : منها تحصيل العلم الضروري بتصديق النبي عليه الصلاة والسلام ، فجرّب وتأمل القرآن ، وطالع الأخبار ، تعرف ذلك بالعيان .

وهذا القدر : يكفي في تنبيه المتفلسفة ، ذكرناه لشدة الحاجة إليه في هذا الزمان .

وأما السبب الرابع ـ وهو ضعف الايمان بسبب سوء سيرة العلماء ـ فيداوى هذا المرض بثلاثة أمور :

أحدها : أن تقول : « إن العالم الذي تزعم أنه يأكل الحرام ، معرفته بتحريم ذلك الحرام كمعرفتك بتحريم الخمر ولحم الخنزير والربا ، بل بتحريم الغيبة ، والكذب والنميمة ، وأنت تعرف ذلك وتفعله ، لا لعدم إيمانك بأنه معصية ، بل لشهوتك الغالبة عليك ، فشهوته كشهوتك ، وقد غلبته كما غلبتك ، فعلمه بمسائل وراء هذا يتميز به عنك ، لا يناسب زيادة زجر عن هذا المحظور المعين ، وكم من مؤمن بالطب لا يصبر عن الفاكهة وعن الماء البارد ، وإن زجره الطبيب عنه ! ولا يدل ذلك على أنه غير ضار ، أو على أن الايمان بالطب غير صحيح ، فهذا محمل هفوات العلماء .

الثاني أن يقال للعامي : « ينبغي أن تعتقد : أن العالم اتخذ علمه ذخراً لنفسه في الآخرة ، ويظن أن علمه ينجيه ، ويكون له شفيعاً . حتى يتساهل معه في أعماله لفضيلة علمه ، وإن جاز أن يكون زيادة حجة عليه ، فهو يجوز أن يكون زيادة درجة له وهو ممكن ، فهو وإن ترك العمل يدلي بالعلم . أما أنت أيها العامي ، إذا نظرت إليه ، وتركت العمل وانت عن العلم عاطل ، فتهلك بسوء عملك ، ولا شفيع لك » !

الثالث ، وهو : الحقيقة أن العالم الحقيقي لا يقارف معصية إلا على سبيل الهفوة ، ولا يكون مصراً على المعاصي أصلا ؛ إذ العلم الحقيقي ما يعرف أن المعصية سم مهلك ، وأن الآخرة خير من الدنيا ، ومن عرف ذلك لا يبيع الخير بما هو أدنى .

وهذا العلم لا يحصل بأنواع العلوم التي يشتغل بها أكثر الناس ؛ فلذلك لا يزيدهم ذلك العلم إلا جرأة على معصية الله تعالى .

وأما العلم الحقيقي : فيزيد صاحبه خشية ، وخوفاً ، ورجاء ، وذلك يحول بينه وبين المعاصي إلا الهفوات التي لا ينفك عنها البشر في العثرات ، وذلك لا يدل على ضعف الايمان ، فالمؤمن مفتن تواب . وهو بعيد عن الاصرار ، والاكباب .

***

هذا ما أردت أن أذكره في ذم الفلسفة والتعليم ، وآفاتهما وآفات من أنكر عليهما ، لا بطريقة .

ونسأل الله العظيم : أن يجعلنا ممن آثره واجتباه ، وأرشده إلى الحق وهداه وألهمه ذكره ، حتى لا ينساه ، وعصمه عن شر نفسه حتى لا يؤثر عليه سواه ، واستخلصه لنفسه حتى لا يعبد إلا إياه .

القسم الثالث

أبحاث في التصوف

بقلم

الدكتور عبد الحليم محمود

الفصل الأول

التصوّف :

١ ـ لفظًا

٢ ـ وتعريفًا

٣ ـ وطريقًا

٤ ـ ومصادِرَ

٥ ـ ونشْأةً

٦ ـ ولمحة عامّة عنْه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

١
حول كلمة : « تصوف »

١ - يروى عن أحد الصالحين : أنه كان يمتنع عن التحدث فيما يتعلق بشخصه ، ولو أمكنه أن يلغي سيرته الشخصية من أذهان الناس ، ولو أمكنه أن يلغي اسمه ، لفعل راضياً مغتبطاً ، ذلك أن التسمية والجانب الشخصي الفردي في الانسان لا قيمة لهما ، إذا نظرنا إلى الآفاق العليا من الروحانية .

ومما يتلاءم مع هذا الاتجاه قول بعض الصوفية ما معناه :

إن طائفة الصوفية : لو تنزهت عن الفردية والشخصية لنزههم الله عن التسمية تنزيها مطلقاً ، ولكن لما شابت الفردية أعمال بعضهم وضع لهم اسم واندرجوا تحت عنوان : « الصوفية » .

وسئل « الشبلي » رضي الله عنه : لم سميت « الصوفية » بهذا الاسم ؟ فقال :

هذا الاسم الذي أطلق عليهم ، اختلف في أصله و في مصدر اشتقاقه : ولم ينته الرأي فيه إلى نتيجة حاسمة بعد .

ومن أقدم الآراء التي قيلت ، وأطرفها : ما ذكره « البيروني » : من أن هذا اللفظ إنما هو تحريف لكلمة : « سوف » اليونانية التي تعني الحكمة.يقول « البيروني » :

إن من اليونانيين من كان يرى الوجود الحقيقي للعلة الأولى فقط لاستغنائها بذاتها فيه ، وحاجة غيرها إليها ، وأن ما هو مفتقر في الوجود إلى غيره فوجوده كالخيال غير حق ، والحق هو الواحد الأول فقط ، وهذا رأي السوفية . وهم الحكماء ؛ فإن « سوف » باليونانية الحكمة ، وبها سمي « الفيلسوف » بيلا سويا أي محب الحكمة .

ولما ذهب في الاسلام قوم إلى قريب من رأيهم ، سموا باسمهم .

ويرى « البيروني » أن التصحيف دخل هذا الاسم بعد ذلك ، فقال : مفسراً ومعللا . ولم يعرف اللقب بعضهم ، فنسبهم ـ للتوكل إلى الصفة ، وأنهم أصحابها في عصر النبي ﷺ .

ثم صحف بعد ذلك فصير : من صوف التيوس . . .

ورأي « البيروني » هذا على طرافته لا يستقيم لسبب بسيط ، وهو أن التسمية « بالصوفي » كانت موجودة قبل ترجمة الحكمة اليونانية إلى اللغة العربية .

« فالبيروني » يقول في صراحة :

« ولما ذهب في الاسلام قوم إلى قريب من رأيهم سموا باسمهم » !

ورأي « البيروني » إذن لا يستقيم ، إلا على أن هذا اللفظ : نشأ في الاسلام بعد أن عرفت الكلمة اليونانية ، وعرف معناها وتداولتها الألسنة ولاكتها الأفواه ، وألفت معناها العقول ، أي حوالي منتصف القرن الثالث الهجري ، على أقل تقدير مع أن الكلمة عرفت قبل ذلك بكثير ، بل لقد عرفت في العهد الجاهلي على ما يرى صاحب « اللمع » .

ولكن إذا كان رأي « البيروني » لا يستقيم ، فإلام نتجه في اشتقاق هذه الكلمة ؟

إن الآراء أصبحت معروفة ، بل لقد كانت معروفة من قديم الزمان وصاحب الرسالة القشيرية يستعرضها رأياً ، رأياً ، وينقضها جميعاً .

١ ـ فأما قول من قال : إنه من الصوف ، وتصوف إذا لبس الصوف كما يقال : تقمص إذا لبس القميص ، فذلك وجه

ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف .

٢ ـ ومن قال : إنهم منسوبون إلى صفة مسجد رسول الله ﷺ :
فالنسبة إلى الصفة لا تجيء على نحو الصوفي .

٣ ـ ومن قال : إنه من الصفاء .

فاشتقاق « الصوفي » من الصفاء بعيد في مقتضى اللغة .

٤ ـ وقول من قال : إنه مشتق من الصف فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم من حيث المحاضرة من الله تعالى : المعنى صحيح .

ولكن اللغة لا تقتضي هذه النسبة إلى الصف .

وإذا كان صاحب الرسالة القشيرية : ينتقد كل هذه الآراء ، فإنه إذن ، لا يرى الاشتقاق ويقول : هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة ، فيقال : رجل صوفي . وللجماعة صوفية ، ومن يتوصل إلى ذلك يقال له : متصوف ، وللجماعة : المتصوفة .

وليس يشهد للاسم ـ من حيث العربية ـ قياس ولا اشتقاق ، والأظهر فيه أنه كاللقب :

لقد استعرضنا الآراء التي قيلت في هذا الموضوع قديماً ، فهل يا ترى هناك من جديد ؟

٢ ـ ما رأي الباحثين الحديثين في أصل كلمة (تصوف) .

يقول الشيخ « عبد الواحد يحيى » :

أما أصل هذه الكلمة : « صوفي » فقد اختلف فيه اختلافاً كبيراً ، ووضعت فروض متعددة ، وليس بعضها أولى من بعض ، وكلها غير مقبولة .

إنها في الحقيقة تسمية رمزية ، وإذا أردنا تفسيرها ينبغي لنا أن نرجع إلى القيمة العددية لحروفها ، وإنه لمن الرائع أن نلاحظ : أن القيمة العددية لحروف « صوفي » تماثل القيمة العددية لحروف « الحكيم الالهي » فيكون الصوفي الحقيقي إذن ، هو الرجل الذي وصل إلى الحكمة الالهية . إنه

(العارف بالله) إذ ان الله لا يعرف إلا به .

وتلك هي الدرجة العظمى (الكلية) فيما يتعلق بمعرفة الحقيقة .

وقد انفرد الشيخ « عبد الواحد يحيى » ، فيما نعلم بهذا الرأي ، وهو رأي لا يمكن أن ينقض بالأدلة المنطقية ، ولكنه لا يمكن أيضاً أن يؤيد بالأدلة المنطقية ، يستسيغه قوم دون برهان ، وينفر منه آخرون من غير ما حجة .

وإذا تركنا الشيخ « عبد الواحد » لننظر إلى الباحثين في هذه اللفظة ، فإننا نجدهم ينقسمون إلى فريقين لا ثالث لهما .

يجاري فريق منهم « أبا الريحان البيروني » في أنها مأخوذة عن أصل يوناني هو كلمة (سوفيا) اليونانية .

وقد قال بهذا الرأي (فون هامر) من المستشرقين .
واعتنقه كثير من الأساتذة الباحثين .
وأيده في حرارة « محمد لطفي جمعة » .

أما السبب الذي جعلهم ينصرفون عن نسبة الكلمة إلى الصوف ، فهو : أنهم يعتقدون أن نسبتها إلى الصوف : يبعد الصوفية عن الحكمة الالهية ، وينسبها إلى الظاهر والشكل ، وعلى حد تعبير « محمد لطفي جمعة » : (يجرد هذه الفرقة المنتمية إلى الاسلام ، من صفة الحكمة والفضيلة) .

وقد بينا رأينا في هذا الموضوع فيما مضى ، ونقول الآن :
إن أصحاب هذا الرأي يعطون قوة وتأييداً ، لمن يزعم أن التصوف الاسلامي وليد الفلسفة « الأفلاطونية » ، وهو رأي باطل .

ولقد هاجم الدكتور « زكي مبارك » هذا الرأي في قوة وفي منطق سليم .

لقد كان العرب ـ حسبما يرى ـ مولعين بحفظ ما يدخل لغتهم من الألفاظ الأجنبية ، ولو كان (التصوف) من (سوفيا) لنصوا عليه ، في كثير من المؤلفات .

ثم إن كلمة (سوفيا) اليونانية ، معناها الحكمة . وكانت (الفلسفة) عند اليونان القدماء تهتم بالعلوم الطبيعية ، وكان كثير من فلاسفتهم أطباء ، وقد

ترجمتها العرب : فسموا الطب : « الحكمـة » ، وكلمـة « حـكيم » لا تزال تؤدي معنى كلمة : « طبيب » ، والفلسفة نفسها سماها العرب « الحكمـة » وقالوا : تاريخ الحكماء .

فهم عرفوا من سوفيا : « الفلسفة والطب » . أما الحكمة الروحانية ، فمن البعيد أن يكونوا لمحوها لأنهم كانوا يرون اليونان من عبدة الأوثان .

ثم يقول الدكتور « زكي مبارك » : في ظرف ظريف ، وفي صورة من الجد هي تعبر ، أبلغ التعبير ، عن التهكم والسخرية : على أنه ما الذي يمنع أن تكون « سوفيا » بمعنى الحكمة الروحانية ، جاءت من كلمة : « صوف » وهي قديمة في العربية ؟

إن التصوف ، قديم جداً عنـد العـرب ، وهـو أسـاس المسيحية ، ولبس الصـوف : كان علامـة التقشف ، فليس من المستبعـد أن ترحـل كلمــة : « صوف » إلى معابد اليونان .

ولم يبق بعد ذلك إلا أن يكون هذا الرأي ، على حد تعبير الدكتور « زكي مبارك » : « ليس إلا ضرباً من الاغراب » .

أما الفريق الثاني من الباحثين الحديثين ـ وهم أكثرية ـ فإنه يرى أن كلمة « تصوف » مأخوذة من « الصوف » .

٣ ـ إنني أرى ـ كما ترى الغالبية العظمى من الباحثين الحديثين ـ أن لفظة « التصوف » تنتسب إلى الصوف ، وكما أنه يقال : تقمص إذا لبس القميص ـ كذلك يقال . تصوف إذا لبس الصوف ، ومن أبرز القائلين بهـذا الـرأي : المرحوم الأستاذ الأكبر الشيخ « مصطفى عبد الرازق » ، والمرحـوم الدكتـور « زكي مبارك » والمستشرق « مرجليوث » .

وإذا كانت الكلمة تنتسب إلى الملبس ـ وهو مظهر وشكل ورسـم ـ فليس معنى ذلك أن التصوف مظاهر وأشكال .

وليس من المحتم دائماً أن يكون المعنى الأصلي للاسم هو المراد مما وضـع الاسم له إذ المعنى الأصلي : قد يتطور ويتغير ويختلف ، وقد يقصد عكسه ،

ومن أجل ذلك فإنه لا مجال لتخوف هؤلاء الذين لا يريدون أن ينسبوا التصوف الى الصوف ، بحجة أن انتسابه الى المظاهر يحط من شأنه .

حقيقة أن الباحثين كثيراً ما يجدون صلة وثيقة بين المعنى الأصلي للاسم ، وما وضع الاسم له ، أو بين الاسم والمسمى ، ولكن ذلك ليس مطرداً .

والواقع أن التصوف معنى معروف ، لا شأن له بالمظاهر والأشكال .

وإذا كان بعض الأشخاص لا يزالون يمارون في قيمته أو فائدته ، فإنهم لا يتخذون التسمية تكأة لهذه المماراة ، ولو فرضنا أنهم اتخذوها تكأة لخرجوا عن سمت الباحثين ، ولأصبحوا سخرية للساخرين .

على أنني أرى ـ كما يرى كثير غيري وكما يثبت التاريخ ـ : أن هذه الكلمة « تصوف » لم توضع في الأصل للتصوف بمعناه العادي ، الذي نفهمه الآن ، وإنما وضعت في المبدأ لتدل على نمط من العزوف عن الدنيا ؛ إنها كانت علامة الزاهدين والمتنسكين ، فسمي بها هؤلاء الذين انصرفوا عن الدنيا .

إن العزوف عن الدنيا : عادة قديمة جداً ، يتمسك بها بعض الناس ، تمشياً مع فكرة دينية وإرضاء لشعور تنسكي .

وقد حدثنا القرآن عن هؤلاء الذين يرهبون ابتغاء رضوان الله .

ويتمذهب بها بعض الناس ارضاء لفكرة منطقية ، واتباعاً لمذهب عقلي ، يرى أن السعادة في الهدوء ، والهدوء لا يتأتى إلا بتحديد الرغبات ، والبعد عن الشهوات وذلك هو الزهد .

وسواء أكان العزوف عن الدنيا ديناً أم كان منطقاً فإنه موجود منذ أقدم العصور .

فالدين صاحب الدنيا منذ نشأة الانسان فيها .
والمنطق صاحب الانسان منذ وجوده .

ولقد رأى هؤلاء الزهاد ـ من ناحية الملبس ـ في الصوف : ما يحقق أهدافهم التي تتصل بالتقشف ، والشظف والخشونة ، فهو متين رخيص خشن ، لا يحتاج الانسان معه في الشتاء إلى غيره ولا يحتاج إلى تغييره كثيراً ، ذلك أنه لا

يبلى بسرعة فتصوفوا ؛ أي لبسوا الصوف .

وكان لا بد من اسم يطلق على هؤلاء وكان من السهولة بمكان أن يطلق عليهم : صوفية ، وأطلق الاسم مصادفة أو تعمداً فذاع وشاع ! وأصبح الزهاد يعرفون ـ في البيئات العربية ـ باسم ! « الصوفية » .

هؤلاء الزهاد ! كانوا موجودين في العصر الجاهلي تديناً أو منطقياً ، وكانوا موجودين في صدر الاسلام تديناً أو منطقياً ! حتى إذا كانت « رابعة » ، وكان « الجنيد » وكان « ذو النون » . حتى إذا ذاع التصوف وانتشر ممثلوه عازفين عن الدنيا لابسين الصوف ، أطلقت الكلمة عليهم .

ولم يميز الناس بين حالتين مختلفتين كل الاختلاف هما : حالة الزهد البحت ، وحالة التصوف ، ولم يثر الصوفية على التسمية في حد ذاتها ، ومن لم يرض منهم نسبتها إلى الصوف ، ذهب في نسبتها مذاهب أخرى .

وإذا كانت الكلمة تنتسب إلى الصوف فهي كلمة موفقة كل التوفيق ، ولعل عناية المقادير : هي التي هيأت لها الجو للظهور والشيوع ، إذ انها تمت بصلة حرفية ، نغمية جرسية ، إلى كثير من الكلمات التي تدل على معان وثيقة الصلة بالتصوف : كالصفاء « وصلته بالتصوف ظاهرة » .

والصف « الصف الأول في الجهاد : جهاد العدو وجهاد النفس » .

والصفة « صفة مسجد رسول الله ﷺ التي كان يعيش فيها قوم وهبوا أنفسهم للجهاد » .

والصفة « الصفة الجميلة » .

وسوفيا اليونانية : « التي تدل على معرفة الغيب على وجه الخصوص » .

وكان من التوفيق أيضاً : هذا الغموض نفسه في أصل الكلمة ، فما من شك في أن اختلاف المذاهب والآراء في أصلها : يبين الكثير من معاني التصوف ومن مظاهره .

وبالله التوفيق .

٢
تعريف التصوف

يتجه الكثير من الناس ـ في تعريف التصوف ـ إلى الجانب الأخلاقي ، وهذا الاتجاه : شائع عند الصوفية أنفسهم ، وعند غيرهم من الباحثين في التصوف والمؤرخين له . ونذكر الآن عدة أمثلة ، نتبين منها هذا الاتجاه :

يقول « أبو بكر الكتاني » ، المتوفى سنة **٢٣٣** هـ :

« التصوف : خلق ، فمن زاد عليك في الخلق ، فقد زاد عليك في الصفاء » .

وتروي الرسالة القشيرية : أن « أبا محمد الجريري » المتوفى سنة **٣١١** هـ ، سئل عن التصوف فقال :

« الدخول في كل خلق سني ، والخروج من كل خلق دني » .

وأحد تعريفات « أبي الحسين النوري » ، للتصوف ـ كما تذكره « تذكرة الأولياء » : ينفي عن التصوف أن يكون رسماً ، أو علماً ، ويحدده بأنه « خلق » . إنه يقول :

« ليس التصوف رسماً ، ولا علماً ، ولكنه « خلق » ثم يعلل ذلك بقوله : لأنه لو كان رسماً ، لحصل بالمجاهدة ، ولو كان علماً ، لحصل بالتعليم ، ولكنه تخلق بأخلاق الله ، ولن تستطيع أن تقبل على الأخلاق الالهية بعلم أو رسم » .

ويحدد « أبو الحسين النوري » ـ في تعريف آخر ـ الأخلاق التي يتكون منها التصوف فيقول :

(**التصوف : الحرية ، والكرم ، وترك التكلف ، والسخاء**) .

هذا الاتجاه الأخلاقي في تعريف التصوف ، شائع في الشرق وفي الغرب ، وهو ـ أيضاً ـ شائع في الزمن القديم ، وفي الزمن الحديث . . . ومع ذلك ، فإنه لا يعبر عن التصوف تعبيراً دقيقاً .

على أن هؤلاء الذين ذكروا هذه التعاريف الأخلاقية للتصوف ، ذكروا ، هم أنفسهم ، تعاريف أخرى ، وذلك ـ على الأقل ـ يدل دلالة لا لبس فيها ، عى أنهم : لم يروا كفاية الجانب الأخلاقي في تحديد التصوف وتعريفه .

والواقع أننا لو نظرنا إلى كثير من الأشخاص الذين اشتهروا بالسمو ، في الجانب الأخلاقي الكريم ، واتصفوا بأروع الصفات الأخلافية ، واتخذوا الفضيلة مذهباً وشعاراً . فإننا نجدهم أشخاصاً مثاليين في المحيط الأخلافي ، وفي المجتمع .

ولكن ليس معنى ذلك أنهم لا محالة من الصوفية :

ولو نظرنا في البيئة اليونانية لوجدنا داعية إلى الفضيلة ، ومتمذهباً بها ، ومحاولا نشرها بشتى الوسائل ، وبمختلف الطرق ، سواء أكان ذلك بالدعوة الاقناعية ، أو بالمنطق الجدلي ، أو بالأسوة الكريمة ، ذلك هو «سقراط» ومع ذلك فإن « سقراط » هذا لم يكن صوفياً بالمعنى الدقيق لكلمة : (صوفي) .

وإذا انتقلنا إلى البيئة الاسلامية ، فإننا نجد « الحسن البصري » ، رضي الله عنه ، من أروع وأجمل الشخصيات الأخلافية العالمية ، لقد كان مثلا صادقاً للشعور الأخلاقي ، في طهره وصفائه . وكان ينشر الفضيلة بوعظه المؤثر ، ومنطقه القوي ، وسلوكه المثالي ، ومع ذلك فلم يكن « الحسن البصري » صوفياً بالمعنى الدقيق لكلمة (صوفي) .

على أنه من الطبيعي : أن تكون الأخلاق الكريمة أساساً من أسس التصوف ، وأن تكون الأخلاق في أسمى صورة من صورها ، ثمرة للتصوف .

ومن الطبيعي أيضاً ، أن تكون الأخلاق الكريمة شعار الصوفي ، فيا بين

الأساس والثمرة ، فهي إذن ملازمة للتصوف وللصوفي ، ملازمة تامة ، لا تتخلى عنه ، ولا يتخلى عنها ، ولكن ليس معنى ذلك أنها هي التصوف .

ـ ٢ ـ

وهناك اتجاه أكثر شيوعاً من الاتجاه السابق : هو تعريف التصوف بـ « الزهد » .

وحينما يسمع كثير من الناس كلمة : « التصوف » ، يفهم منها معنى « الزهد » ولا يفهم من كلمة « صوفي » إلا الزاهد في الدنيا .

وما من شك في أن الصوفي : لا يتعلق قلبه بالدنيا ، ولو كان عنده الألاف والملايين ؛ بيد أن الزهد في الدنيا شيء ، والتصوف شيء آخر ، ولا يلزم عن كون الصوفي زاهداً ، أن يكون التصوف : هو « الزهد » .

ـ ٣ ـ

ويخلط كثير من الناس بين الصوفي والعابد ، فإذا ما رأوا أو سمعوا عن شخص كثير العبادة ، قالوا عنه إنه : « صوفي » .

ولا ريب أن « الصوفي » كثير العبادة ، ولكنك قد تجد أشخاصاً كثيرين يقيمون الصلوات المفروضة ، ويكثرون من النوافل ، ويداومون على العبادة ، ولا يكون معنى ذلك أنهم من « الصوفية » .

ولخلط الناس بين الزاهد والعابد والصوفي ، حاول « ابن سينا » أن يفرق بينهم ، وبين أهداف كل منهم يقول في كتابه « الاشارات » :

١ ـ المعرض عن متاع الدنيا وطيباتها يخص باسم « الزاهد » .
٢ ـ المواظب على فعل العبادات ، من القيام والصيام ونحوهما ، يخص باسم « العابد » .
٣ ـ المنصرف بفكره إلى قدس الجبروت ، مستديماً لشروق نور الحق في سره ، يخص باسم « العارف » .

و « العارف » عند « ابن سينا » هو « الصوفي » .

ويتحدث « ابن سينـا » ـ كما يذكر غيره ـ أن الزاهـد قد يكون عابداً ، والعابد قد يكون زاهداً ، فيمتزج الزهـد والعبـادة في شخص واحـد ، ولا يكون بعبادته وزهده معاً : « صوفياً » .

ولكن « الصوفي » لا محالة ، زاهد عابد .

على أن هناك تفرقة حاسمة ، بين زهد الصوفي وعبادته ، وبين زهد غير الصوفي وعبادته .

وهذه التفرقة : إنما هي في الهدف ، أكثر منها في الأسلوب والمنهج .

ولقد تحدثت السيدة « رابعة العدوية » ، رضي الله عنها ، عن هذا بأسلوب مؤثر ، وتحدث غيرها ، والكل يتفق على أن زهد غير الصوفي ، إنما هدفه لاستمتاع في الآخرة ، فهو نوع من المعاملة « كأنه يشتري بمتاع الدنيا متاع الآخرة » .

أما الصوفي : فإنه يزهد في الدنيا ، لأنه يتنزه عن أن يشغله شيء عن الله .

وعبادة غير الصوفي ، هدفها . دخوله الجنة . . كأنه يعمل في الدنيا لأجرة يأخذها في الآخرة : هي « الأجر والثواب » فمثله : كمثل الأجير : يعمـل طيلة النهار ليأخذ أجره في المساء .

أما عبادة الصوفي ، فإنها استدامة لصلته بالله تعالى ، إنه يعبد الله : (لأنه مستحق العبادة ، ولأنها نسبة شريفة إليه ، لا لرغبة أو رهبة

وتقول السيدة « رابعة » ، رضوان الله عليها ، ما معناه : (اللهم إن كنت أعبدك خوفـاً من نارك فألقني فيهـا ، وإن كنـت أعبـدك طمعـاً في جنتـك فاحرمنيها ، وإن كنت أعبدك لوجهك الكريم . فلا تحرمني من رؤيته) .

هذه المعاني الخاصة بأهداف الزهد والعبادة ـ من حيث كونها لوجه الله ـ إنها معان عادية عند الصوفية ، وكأنها بدهية في محيطهم وفي جوهم :

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُـونَ رَبَّهُـمْ بالغـداةِ والعشيِّ يريدونَ وَجْهَهُ) .

والتصوف إذن : ليس خلقاً فحسب ، ولا زهداً فقط ، ولا عبادة لا غير ،

وهو ، وإن كان متضمناً للخلق الكريم ، والزهد الرفيع ، والعبادة المتجردة ، فإنه مع كل ذلك شيء آخر .

وكلمة أخيرة قبل أن نفرغ إلى تعريف التصوف : إن الذين يربطون بين التصوف من جانب ، والكرامات وخوارق العادات من جانب آخر كثيرون ، ولكن التصوف ليس كرامات ، ولا خوارق العادات . إنه شيء يتجاوز الكرامات ، ويتجاوز خوارق العادات .

إن هذه الكرامات مسألة لا يأبه بها الصوفية كثيراً ، بل يعتبرونها من الأشياء اليسيرة ، التي تبعث السرور في قلب من يجريها الله على يديه ، ولكنه إذا فرح بها واكتفى ، تدل على أنه لم يبلغ بعد في التصوف قدماً ثابتاً ، ولا درجات ممتازة .

ما هو إذن التعريف الصحيح للتصوف ؟

نذكر الآن بعض التعريفات التي تتجه الوجهة الصحيحة فيما يتعلق بالمعنى الحقيقي لهذا الموضوع .

١ ـ أبو سعيد الخراز المتوفى سنة ٢٦٨ هـ .
سئل عن الصوفي فقال :

« من صفّى ربه قلبه ، فامتلأ قلبه نوراً ، ومن دخل في عين اللذة بذكر الله » :

٢ ـ « الجنيد البغدادي » المتوفى سنة ٢٩٧ هـ .
التصوف : هو : أن يميتك الحق عنك ، ويحييك به .

٣ ـ « أبو بكر الكتاني » المتوفى سنة ٣٢٢ هـ .
التصوف : صفاء ومشاهدة .

٤ ـ « جعفر الخلدي » المتوفى سنة ٣٤٨ هـ .
التصوف : طرح النفس في العبودية ، والخروج من البشرية ، والنظر إلى الحق بالكلية .
وسئل « الشبلي » عن التصوف ، فقال :

بدؤه معرفة الله ، ونهايته توحيده.

وإذا نظرنا إلى تعريف « الكتاني » ، فإننا نجد أن عبارته المختصرة قد جمعت بين جانبين هما اللـذان ـ فيما نرى ـ يكونـان ـ في وحـدة متكاملـة ـ تعـريف التصوف .

أحدهما : « وسيلة » .

والثاني : « غاية » .

أما الوسيلة : فهي « الصفاء » .

وأما الغاية : فهي « المشاهدة » .

والتصوف من هذا التعريف طريق ، وغاية .

وطريقه يتضمن نواحي كثيرة تشير إليها تسميته نفسهـا ، ولعـل ذلك من الأسرار التـي كانـت السبـب في هذه التسـمية ، واتخاذهـا عنوانـاً على هذه الطائفة .

لقد قال جماعة : إنما سميت « صوفية » : لصفاء أسرارها ، ونقاء آثارها .

وقال « بشر بن الحارث » : الصوفي : من صفا قلبه لله .

وقال بعضهم : الصوفي : من صفت لله معاملتهُ ، وصفت له من الله عز وجل كرامته .

وهؤلاء يهدفون إلى أن كلمة : « الصوفية » إنما تشير إلى الصفاء ، وهـذه الاشارة لا تخضع لمقاييس اللغة ، وما دامت « إشارة » فإنـه من التعسف أن يجادل إنسان في أمر انسجامها مع اللغة ، وعدم انسجامها .

ويقول قوم إنهم إنما سموا : « صوفية » لأنهم في الصف الأول بين يدي الله عز وجـل ، بارتفـاع هممهـم إليه ، وإقبالهـم بقلوبهـم عليه ، ووقوفهـم بسرائرهـم بين يديه .

وهؤلاء إنما يعبرون عن إشارة الصوفية الى الصف : أي إلى الصف الأول في العمل على الوصول إلى الله والجهاد في سبيله .

أما إشارة الكلمة إلى « أهل الصفة » ، الذين كانوا على عهـد رسـول الله

ﷺ ، إنما تشير إلى أوصافهم من العبادة ، والتهجد ، وعدم الطمع في الدنيا ، واستعدادهم الدائم للجهاد في سبيل الله .

وتشير الكلمة للصفة : أي الصفة الكريمة ، التي لا يتعلق فيها القلب بالمادة وإنما يتعلق بالله تعالى .

وكل ذلك إنما هو حديث عن الوسائل .

على أن هذه الوسائل التي تشير اليها الكلمة لها وسائل أخرى . هذه الوسائل الأخرى منها ما يعبرون عنه بقولهم « لاَ يملكُ ولا يمُلكَ » .

ويعنون بذلك أنه « لا يسترقه الطمع » .

وهذه الكلمة لها مدلول واسع ، هو أن يتحرر الانسان من الدنيا ، حتى ولو ملكها عريضة طويلة ، يتحرر من الجاه ، من الانغماس في الملذات ، من الجري وراء المال ، من حب السلطان ، من حب الترف ، من الصفات التي تتنافى مع الفضيلة .

وخاتمة المطاف في هذه الوسائل : أنها تؤدي إلى الصفاء ، فإذا ما حل الصفاء كان عند الانسان استعداد كامل للمشاهدة ، فيجود الله عليه بها ، ان شاء .

هذه المشاهدة هي أسمى درجات المعرفة ، وهي الغاية النهائية التي يسعى وراءها ذوو الشعور المرهف ، والفطر الملائكية ، والشخصيات الربانية .

فالتصوف اذن معرفة ـ أسمى درجات المعرفة بعد النبوة ـ إنه مشاهدة وهو طريقة الى المشاهدة .

واذا أردنا أن نلجأ الى الامام « الغزالي » في تلخيص الطريق والغاية ، فإننا نجده يقول في كتابه الخالد : « إحياء علوم الدين » .

« الطريق تقديم المجاهدة ، ومحو الصفات المذمومة ، وقطع العلائق كلها ، والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، ومهما حصل ذلك كان الله المتولي لقلب عبده ، والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم .

واذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة ، وأشرق النور في القلب ، وانشرح الصدر ، وانكشف له سر الملكوت ، وانقشع عن وجه القلب حجاب

الغرة بلطف الرحمة ، وتلألأت فيه حقائق الأمور الالهية » .

فإذا ما حصل ذلك كانت المشاهدة .

ومن القصص اللطيفة التي تصور الوسيلة الى المشاهدة في سهولة ويسر القصة التالية :

قال « ذو النون » :

رأيت امرأة ببعض سواحل الشام .

فقلت لها :

من أين أقبلت رحمك الله ؟

قالت :

من عند أقوام تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، يدعون ربهم خوفاً وطمعاً

قلت :

وأين تريدين !

قالت :

الى رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله .

قلت :

صفيهم لي ، فأنشأت تقول :

قوم همومهم بالله قد علقت	فما لهم همم تسمو الى أحد
فمطلب القوم مولاهم وسيدهم	يا حسن مطلبهم للواحد الصمد
ما ان تنازعهم دنيا ولا شرف	من المطاعم واللذات والولد
ولا للبس ثياب فائق أنق	ولا لروح سرور حل في بلد
الا مسارعة في اثر منزلة	قد قارب الخطو فيها باعد الأبد
فهم رهائن غدران وأودية	وفي الشوامخ تلقاهم مع العدد

والمشاهدة التي هي الغاية (للصوفية) هي أيضاً تحقيق واقعي للتعبير ، الذي ننطق به في كل آونة حيثما نقول :

(أشهد أن لا إله إلا الله)

فالشهادة هي غاية الصوفي ، وهو انما يسعى جاهداً اليها بشتى الوسائل ليحقق بالفعل مضمون ما يلفظ به قولا ، أو ما يقوله حروفاً .

وما من شك في أن تعاريف التصوف الكثيرة التي نجدها منثورة هنا وهناك ، والتي تكاد تبلغ الألف ، انما تعبر في أغلب الأحايين عن زاوية من زوايا التصوف ، تتصل بالوسيلة ، أو تتصل بالغاية ، فلا يمكن أن يقال عنها اذا ما كانت كذلك ، إنها خطأ تام ، ولكن الخطأ إنما هو في أخذها على أنها تعبر عن الحقيقة الكاملة . أما ما يعبر عن الحقيقة الكاملة ، فإنما هو تعريف « الكتاني » .

(التصوف : صفاء ومشاهدة) .

٣
الطريق الصّوفيّ

المقامات والأحوال

إن الصوفية لهم طريق روحي ، يسيرون فيه !

وهذا الطريق يعتمد أساساً ومنهجاً وغاية على القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة .

وقد ذكرنا في غير هذا الفصل بعض كلمات لكبار الصوفية ، تؤكد وتوضح اعتمادهم على القرآن الكريم في سيرهم إلى الله تعالى .

وهذا الطريق قد جربه الصوفية ، فثبتت ثماره عن طريق التجربة أيضاً .
وجوهر الطريق الصوفي هو ما سماه الصوفية : المقامات والأحوال .

والمقامات هي المنازل الروحية التي يمر بها السالك إلى الله ، فيقف فيها فترة من الزمن مجاهداً في إطارها ، حتى يهيىء الله سبحانه وتعالى له سلوك الطريق الى المنزل الثاني ، لكي يتدرج في السمو الروحي من شريف الى أشرف ، ومن سام الى أسمى ، وذلك مثلا كمنزل « التوبة » الذي يهيىء الى منزل « الورع » ، ومنزل « الورع » يهيىء الى منزل « الزهد » ، وهكذا حتى يصل الانسان الى منزل المحبة ، والى منزل الرضى .

وهذه المنازل لا بد لها من جهاد وتزكية ، ولذلك يقولون عنها : إنها مكتسبة .

إنها اجتهاد في الطاعة ، ومواصلة في التسامي في تحقيق العبودية لله سبحانه !

أما الأحوال فإنها النسمات الروحية التي تهب على السالك ، فتنتعش بها

نفسه لحظات خاطفة ، ثم تمر تاركة عطراً ، تتشوق الروح للعودة الى تنسم أريجه ، وذلك مثل : الأنس بالله .

وسواء أكنا بصدد المقامات أم بصدد الأحوال ، فإن الصوفية قد اختلفوا فيها بين مجمل لها ومفصِّل .

ولكن الملاحظ أنهم ـ في وصف المقامات والأحوال ـ لا يتعارضون . واختلافهم إذن ليس اختلاف تناقض وتعارض ، وإنما هو اختلاف بسط وإيجاز .

ويقول الامام « أبو نصر السراج الطوسي » عن المقامات .

« والمقامات مثل التوبة ، والورع ، والزهد ، والفقر ، والصبر ، والرضى ، والتوكل ، وغير ذلك »[1] .

ويقول عن الأحوال :

« وأما معنى الأحوال : فهو ما يحل بالقلوب ، أو تحل به القلوب من صفاء الأذكار !

وقد حكي عن « الجنيد » رحمه الله ، أنه قال : الحال نازلة تنزل بالقلوب فلا تدوم »[2] .

ويقول الطوسي أيضاً :

« وليس (الحال) عن طريق المجاهدات والعبادات ، والرياضات ـ كالمقامات التي ذكرناها . وهي ـ أي الحال ـ مثل : المراقبة ، والقرب ، والمحبة ، والخوف ، والرجاء ، والشوق ، والأنس ، والطمأنينة ، والمشاهدة واليقين ، وغير ذلك »[3] .

ويقول الامام « القشيري » عن المقامات :

« والمقام : ما يتحقق به العبد بمنازلته ـ اي بنزوله فيه ، وبما اكتسب له ـ من

---

(١) اللمع : ٦٦

(٢) اللمع : ٦٦

(٣) نفس المصدر السابق

الآداب مما يتوصل إليه بنوع تصرف ، ويتحقق به بضرب تطلب ومقاساة تكلف .

فمقام كل أحد : موضع إقامته عند ذلك ، وما هو مشتغل بالرياضة له .

وشرطه : أن لا يرتقي من مقام إلى مقام آخر : ما لم يستوف أحكام ذلك المقام ، فإن من لا قناعة له لا يصح له التوكل . ومن لا توكل له لا يصح له التسليم ، وكذلك من لا توبة له لا تصح له الانابة ، ومن لا ورع له لا يصح له الزهد[1] .

ويقول عن الأحوال :

« والحال عند القوم : معنى يرد على القلب ، من غير تعمد منهم ولا اجتلاب واكتساب لهم ، من : طرب ، أو حزن ، أو بسط ، أو قبض ، أو شوق ، أو انزعاج ، أو هيبة ، أو احتياج .

فالأحوال : مواهب ، والمقامات : مكاسب !
والأحوال تأتي من عين الجود ، والمقامات تحصل ببذل المجهود . .
وصاحب المقام ممكن في مقامه ، وصاحب الحال مترق عن حاله »[2] .

* * *

حب الله ورسوله :

وهذا الطريق - الصوفي الذي نتحدث عنه - يستند إلى مقياس يزن به نفسه ، وهو : الاقتداء برسول الله ﷺ : ولا يتأتى الاقتداء به صلوات الله وسلامه عليه ، ما لم يملأ حب رسول الله صلى الله عليه وسلم جميع أفطار النفس .

ونبدأ إذن بالحديث عن حب رسول الله صلى الله عليه وسلم :
يقول الله تعالى :

« قُلْ إن كان آباؤكُمْ ، وأبناؤكُمْ ، وإخوانُكُمْ ، وأزواجُكُمْ ،

---

(١) الرسالة القشيرية ٢٣٤

(٢) الرسالة القشيرية ٢٣٦

وعشيرتُكُمْ ، وأموالٌ اقترفْتُموها ، وتجارةٌ تَخْشَوْنَ كسادَها ، ومساكنُ تَرْضَوْنَهَا أحبَّ إليكم منَ اللهِ ورسولِهِ ، وجهادٍ في سبيلهِ فَتَرَبَّصُوا ، حَتّى يأتيَ اللهُ بأمرهِ ، واللهُ لا يَهْدِي القومَ الفاسِقِينَ »[1] .

وفي معنى الآية الكريمة يروي الامام « البخاري » رضي الله عنه عن « عبد الله بن هشام » قال :

« كنا مع رسول الله ﷺ ، وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال : والله يا رسول الله لأنت أحب إليّ من كل شيء إلا من نفسي !

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
«لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه »
فقال عمر : فأنت الآن أحب إليّ من نفسي !
فقال رسول الله ﷺ : « الآن يا عمر » .

وقول الرسول ﷺ : « الآن يا عمر » أي : الآن وقد صار الرسول صلى الله عليه وسلم أحب إليك من نفسك ، فقد استقامت أمور الايمان عندك ، وصرت إلى ما أحب الله ورسوله .

ومحبة رسول الله ﷺ تتضمن كشرط أساسي جوهري اتخاذه صلى الله عليه وسلم قدوة في السلوك والعمل ، والدرجة الجوهرية في القدوة به صلى الله عليه وسلم إنما هي متابعته في إسلام وجهه لله سبحانه وتعالى .

لقد باع رسول الله ﷺ نفسه وماله لله سبحانه ، وكان أول البائعين ، وكان أمثل البائعين ، وحقق بذلك وحقق أصحابه ومن اتبع هديه متأسين به قول الله تعالى :

« إنَّ اللهَ اشترى مِنَ المؤمنينَ أنْفُسَهُمْ وأموالَهُمْ بأنَّ لَهُمُ الجنَّةَ ، يُقاتِلُونَ في سبيلِ اللهِ ، فَيَقْتُلُونَ ، وَيُقْتَلُونَ ، وَعْداً عليهِ حَقّاً في التوراةِ والانجيلِ والقرآنِ ، وَمَنْ أوفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ :
فاستبشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الذي بايَعْتُمْ بهِ ، وذلكَ هُوَ الفوزُ العظيمُ »[2] .

---

(١) التوبة : ٢٤

(٢) التوبة ١١١ .

لقد اشترى الله في عقد الايمان النفس والمال ، بثمن هو الجنة ، فإذا بخل المؤمن بنفسه في سبيل الله ، فقد أخل بعقد الايمان .
وإذا بخل بماله في سبيل الله ، فقد أخل بعقد الايمان .

وحب رسول الله ﷺ ـ إذن ـ إنما هو إيثار ما يحب ، واتباع هديه ، والعمل بسنته في الايجاب ، وإيثار كل ذلك على الآباء والأبناء وغيرهم ، مما يحبه الانسان من أشخاص أو من أشياء .

وفي هذا يقول رسول الله ﷺ فيما رواه الامام « البخاري » رضي الله عنه :
« والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم ، حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين » .

فحب رسول الله ﷺ مرجعه إلى صفات كريمة سامية عليا ، تمثلت فيه صلى الله عليه وسلم طيلة حياته .

والآية الكريمة ، والأحاديث الشريفة التي رويناها ، تدل كلها دلالة صريحة على أنه إذا تعارضت أمور الدين مع المصلحة الشخصية ، أو مع أمور الدنيا ، فإنه يجب على المؤمن أن يؤثر أمور الدين على غيرها .

يقول الامام « الرازي » :

« إذا وقع التعارض بين مصلحة واحدة من مصالح الدين ، وبين جميع مهمات الدنيا ، وجب على المسلم ترجيح الدين على الدنيا » .

أما بعد :
فيقول صاحب الكشاف عن الآية الكريمة التي صدرنا بها هذا الحديث ما معناه :

« وهذه آية شديدة لا ترى أشد منها ، كأنها تنعي على الناس ما هم عليه من رخاوة عقد الدين ، واضطراب حبل اليقين ، فلينصف أروع الناس واتقاهم من نفسه ، هل يجد عنده من التصلب في ذات الله ، والثبات على دين الله ما يجعله يؤثر دينه على الآباء والأبناء ، والاخوان ، والعشائر ، والمال ، والمساكن ، وجميع حظوظ الدنيا ويتجرد منها لأجله ؟ أم أن الشيطان يغويه من أجل حظ من حظوظ الدنيا ، فلا يبالي كأنما وقع على أنفه ذباب فطيره ؟

ثم أما بعد :

فإن الحب الصادق له صلى الله عليه وسلم يتمثل حقيقة في المحاولة الصادقة ، لالتزام صفاته صلى الله عليه وسلم في النفس والعمل على سيادتها في المجتمع .

❊ ❊ ❊

الأسوة الحسنة :

وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يستلزم لا محالة التأسي به صلى الله عليه وسلم ، يقول الله تعالى :

« لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حسنةٌ لمنْ كانَ يَرْجُو اللهَ واليومَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كثيراً »[1] .

إن الأسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم خير ما يحقق النجاة في الدنيا والآخرة .

فرسول الله عليه الصلاة والسلام هو المثل الكامل الواقعي ، التطبيقي ، للدين الاسلامي !

إنه الصورة الحية للقرآن الكريم ، وفي ميسور كل إنسان الاقتداء به ، إذا توافرت فيه ثلاث شروط ، بينتها الآية الكريمة :

أولها : أن يرجو الله ، ورجاء الله يبينه الله سبحانه بقوله :

« فَمَنْ كان يَرْجُو لقاءَ ربِّهِ فَلْيَعْمَلْ عملاً صالحاً . ولا يُشْرِكْ بعبادةِ ربِّهِ أَحَداً »[2] .

فتحقق الرجاء في الله أن يخلص الانسان وجهه لله في العبادة ، وأن يكون من ذوي الأعمال الصالحة ، وإلا كان رجاؤه في الله شكلا ، لا حقيقة له ،

---

(١) الاحزاب ٢١

(٢) الكهف ١١٠.

وظاهراً ، لا جوهر له .

أما الذين لا يرجون لقاء الله فيصفهم الله تعالى بقوله :

« إنَّ الذينَ لا يَرْجُونَ لقاءَنا وَرَضُوا بالحياةِ الدّنيا واطمأنُّوا بها ، والذينَ هُمْ عَنْ آياتِنا غافِلونَ ، أولئكَ مأواهُمُ النارُ ، بما كانوا يكسِبونَ »[1] .

وهؤلاء لا نصيب لهم في الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث لم يتوافر فيهم شرط رجاء الله سبحانه .

والشرط الثاني : أن يرجو الانسان اليوم الآخر .
ورجاء اليوم الآخر هو رجاء النجاة فيه .

ورجاؤه إذن إنما هو بالعمل للنجاة (يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ ولا بنونَ إلا مَنْ أتى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيم) .

ومن لا يرجو اليوم الآخر فليس له في الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم من نصيب .

أما الشرط الثالث الذي يجب أن يتوافر في الانسان حتى يتأتى له الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم : فهو أن يذكر الانسان الله كثيراً .

وقد حدد الله الذكر بالكثرة ونص عليها سبحانه ، والذكر الكثير من سمات المتدينين حقاً .

والتدين والذكر الكثير من سمات أصحاب العقول الراجحة الذين يذكر الله سبحانه أن من صفاتهم التفكر للعظة والاعتبار في خلق السموات والأرض .

ومن صفاتهم الذكر في جميع حالاتهم التي هم عليها ، وذلك كله على أساس من الايمان الخالص .

يقول الله تعالى في أسلوب رائع ، وفي معان تتسلسل نوراً وتتلألأ ضياء :

---

(١) يونس : ٧ ـ ٨

(إنَّ في خَلْقِ السَّموات والأرضِ ، واختلافِ الليلِ والنَّهارِ لآياتٍ لأولي الألْبابِ . الّذينَ يذكُرُونَ اللهَ قياماً وقعوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ ، وَيَتَفكَّرُونَ في خَلْقِ السّمواتِ والأرضِ ، رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطلاً ، سُبْحانَكَ ، فَقِنا عذابَ النّارِ ، رَبَّنا إنَّكَ من تُدْخِلِ النارَ فَقَدْ أخْزَيْتَهُ ، وما للظالمينَ من أنصارٍ ، رَبَّنا إنَّنا سَمِعْنا منادياً يُنادي للايمانِ أنْ آمِنُوا بربّكم فآمنّا ، رَبّنَا فاغْفِرْ لنا ذُنُوبنَا ، وكفِّر عنّا سيئاتِنا ، وتوفَّنا مَعَ الأبرارِ ، ربَّنا وآتِنا ما وَعَدْتَنا على رُسُلِكَ ، ولا تُخْزِنا يومَ القيامةِ إنَّكَ لا تُخْلِفُ الميعادَ)[1] .

ويعقب الله على ذلك بقوله :

(فَاسْتَجابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ) !

وبعد :

فإنه إذا توفرت في الانسان هذه الشروط ، فقد أصبح جديراً بالتأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأصبح بذلك من الذين يحبونه ، والمرء مع من أحب .

---

(١) آل عمران : ١٩٠ ـ ١٩٤

التوبـة

وإذا أراد الانسان أن يتأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم فيحاول أن يقترب ما استطاع من :

(إنّ صلاتيَ وَنُسُكي ومحيايَ ومماتي للهِ ربِّ العالَمِينَ ، لا شَريكَ لَهُ) .

إذا أراد الانسان أن يدخل في معنى « الاسلام » كيف يبدأ ؟

ما هي الخطوة الأولى ؟

ما الطريق ؟ ثم إلى أين ؟

ما هي الثمرة المرجوة ، وما هو النفع الذي يعود عليه من ذلك ؟

إنه يبدأ بالدخول في النظام القرآني !

والدخول في النظام القرآني معناه العزم المصمم على التخلي عما ليس بقرآني :

وهذا ما يسمى في العرف الاسلامي أو في النظام القرآني :

« التوبة » !

ولقد أمر الله في القرآن بالتوبة ، وحث عليها ، وحبب فيها ، وأوجبها في بعض الأحيان .

والواقع أنها اللبنة الأولى في الطريق إلى الله ، وهي اللبنة الأولى في طريق إسلام الوجه لله ، يقول أبو يعقوب يوسف بن حمدان السوسي ، رحمه الله : أول مقام من مقامات المنقطعين إلى الله تعالى : التوبة . وسئل السوسي عن التوبة ، فقال : التوبة الرجوع من كل شيء ذمه العلم ، إلى ما مدحه العلم .

ولقد فتح الله باب التوبة على مصراعيه ، تفضلا منه ورحمة ، يقول سبحانه في حديث قدسي ، وفي أسلوب كله رأفة :

« يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً ، فاستغفروني أغفر لكم » .

ويقول رسول الله ﷺ :

« كل ابن آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون » .

وما من شك في أن توبة العوام ـ كما يقول « ذو النون » رضي الله عنه ـ هي من الذنوب ، وأما توبة الخواص فإنها من الغفلة ، وتصل التوبة في سموها فتكون مما سوى الله تعالى . .

ورسول الله ﷺ يخبر أن الله سبحانه وتعالى « يفرح » بتوبة عبده المؤمن ، ويعرفنا رسول الله ﷺ أن ربنا ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا عند ثلث الليل الأخير فينادي :

ألا هل من مستغفر فأغفر له ، ألا هل من تائب فأتوب عليه » .

ويقول الله سبحانه وتعالى في صورة من تجلي الرحمة ، وسعة من شمول الرأفة بالعباد :

(قُلْ يا عبادِيَ الذينَ أسْرَفُوا على أنْفُسِهِمْ ، لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ، إنَّ اللهَ يغفرُ الذّنوبَ جميعاً ، إنهُ هُوَ الغَفُورُ الرّحِيمُ) .

ويلي هذه الآية الكريمة ما يبين الطريق إلى المغفرة والرحمة ، يقول سبحانه وتعالى :

(وَأنيبُوا إلى ربِّكُم ، وأَسْلِمُوا لَهُ . مِنْ قَبْلِ أنْ يأتِيكُمُ العذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ)

أي : ارجعوا إلى الله بالتوبة وإسلام الوجه له .

ثم بين لهم الطريق الصحيح الذي يلي التوبة إذا صدقت بقوله تعالى :

(وَاتَّبِعُوا أحْسَنَ ما أُنْزِلَ إليكُمْ مِنْ رَبّكُمْ ، مِنْ قَبْلِ أنْ يأتِيكُمُ العذابُ

بَغْتَةً ، وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ)

والله سبحانه وتعالى في هذا يوجه الذين صدقوا في توبتهم إلى أن يتبعوا أحسن ما أنزل إليهم من ربهم .

وإذا صدقت التوبة فإن هذا الصدق يستتبع ـ كلازم من لوازمه ـ أن يستقيم الانسان على الطريق .

والله سبحانه يسد على الذين يبين لهم الطريق باب المعاذير فيما بعد ، مهدداً تهديداً يقصد به حث الانسان على أن يسارع بالتوبة الصادقة ، فهو تهديد من رحمن رحيم . !

يقول سبحانه :

(أن تقولَ نَفْسٌ : يا حَسْرَتا على ما فَرَّطْتُ في جَنْبِ اللهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ الساخِرِينَ ، أو تقولَ : لَو أنَّ اللهَ هداني لكنتُ من المتَّقِينَ ، أَوْ تَقُولَ ـ حِينَ ترى العذابَ ـ : لَوْ أنَّ لي كَرَّةً فأكونَ مِنَ المحسنينَ) .

فاذا ما قال الانسان ذلك أو تعلل بأمثاله ، فإن الرد يأتيه من رب العزة :

(بلى قَدْ جاءَتْكَ آياتي فَكَذَّبْتَ بها ، واستكبرتَ ، وكُنْتَ مِنَ الكافِرينَ) .

ثم يبين الله سبحانه وتعالى حال الكافر والمؤمن يوم القيامة فيقول :

(وَيَوْمَ القيامةِ ترى الذين كَذَبوا على اللهِ وجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ ، أليسَ في جهنَّمَ مَثْوىً للمتكبِّرينَ ، وَيُنَجِّي اللهُ الذينَ اتَّقَوْا بمفازَتِهِم ، لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ ولا هُمْ يَحزَنُونَ » .

والآن : قد وضح الطريق ! فهو :

أولا : التوبة .

وثانياً : اتباع أحسن ما أنزل الله

ولقد كان أسلافنا رضوان الله عليهم ـ متابعة للأوضاع الاسلامية ـ يبدأون

أعمالهم الهامة بالتوبة الخالصة النصوح ، لقد كانوا يبدأون شهر رمضان بالتوبة ، ويبدأون الحج بالتوبة .

والرحلة المباركة ، رحلة « الاسراء والمعراج » بدأت بشق الصدر ، وشق الصدر بالنسبة لنا ، إنما هو التوبة الخالصة النصوح ؛ لأن التوبة تطهر وطهر .

وإذا تاب الانسان ، فإن ذلك يكون بمثابة إتيان ملكين يشقان عن صدر الانسان ، ويغسلانه بالثلج والبرد ، أو بماء زمزم ؛ أي : يطهرانه .

إن التوبة تطهر الانسان من المعصية ، إنها تجبُّ ما قبلها ، أي تزيله وتمحوه .

والتوبة التي من هذا النمط لها شروط ، لا بد من توافرها ، حتى تهيىء الانسان لشق الطريق إلى الله تهيئة موفقة !

يقول الامام « النووي » في رياض الصالحين :

« قال العلماء : التوبة واجبة من كل ذنب ، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمي فلها ثلاثة شروط :

أحدها : أن يقلع عن المعصية .
والثاني : أن يندم على فعلها .
والثالث : أن يعزم أن لا يعود إليها أبداً .
فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته . . .
وإن كانت المعصية تتعلق بآدمي فشروطها أربعة :

هذه الثلاثة ، وأن يبرأ من حق صاحبها ، فإن كانت مالا أو نحوه رده إليه ، وإن كانت حد قذف ونحوه ، مكنه منه ، أو طلب عفوه ، وإن كانت غيبة استحله منها .

ويجب أن يتوب من جميع الذنوب ، فإن تاب من بعضها صحت توبته عند أهل الحق من ذلك الذنب ، وبقي عليه الباقي .

وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة ، وإجماع الأمة على وجوب التوبة .

هذا فيما يتعلق بالتوبة .

وبقي الحديث فيما يتعلق باتباع أحسن ما أنزل الله !

واتباع أحسن ما أنزل الله يبدأ بما كان يبدأ به رسول الله ﷺ مع الداخلين في الاسلام ، أعني مواد البيعة .

ومن المبايعات التي بايع عليها رسول الله ﷺ أصحابه ما كان قبل فتح مكة ، بل قبل الهجرة إلى المدينة ، كما في بيعة العقبة ، فيها قال الرسول ﷺ لمن حضر من الأنصار ـ فيما ذكره « ابن اسحاق » ـ :

« بايعوني على السمع والطاعة ، في النشاط والكسل ، والنفقة في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن تقولوا في الله لا تخافوا في الله لومة لائم ، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم ، مما تمنعون منه أنفسكم ، وأزواجكم ، وأبناءكم ، ولكم الجنة . . . » .

ومن هذه المبايعات ما كان بعد هذه البيعة .

روى « البخاري » بسنده عن « عبادة بن الصامت » أن رسول الله ﷺ قال ـ وحوله عصابة من أصحابه ـ :

« بايعوني على الا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصوا في معروف . فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله ؛ إن شاء عفا عنه ، وإن شاء عاقبه » فبايعناه على ذلك . .

وقد تحدث القرآن الكريم عن بيعة النساء يقول تعالى :

(يا أيُّها النبيُّ إذا جاءكَ المؤمناتُ يُبَايِعْنَكَ على أن لا يُشْرِكْنَ باللهِ شيئاً ، ولا يَسْرِقْنَ ، ولا يَزْنِينَ ، ولا يَقْتُلْنَ أولادَهُنَّ ، ولا يأتينَ ببهتانٍ يَفْتَرِينَهُ بينَ أيديهنَّ وأرجلِهِنَّ ، ولا يعصينكَ في معروفٍ ، فبايِعْهُنَّ واستغفرْ لهنَّ اللهَ ، إنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ) .

وكانت هذه البيعة عقب فتح مكة ، بعد بيعة الرجال ، ويتحدث « ابن

جرير » عن هذه البيعة فيقول :

« ثم اجتمع الناس بمكة لبيعة الرسول ﷺ على الاسلام ، فجلس لهم على الصفا ، وعمر بن الخطاب أسفل من مجلسه ، فأخذ على الناس السمع والطاعة لله ولرسوله ، فيما استطاعوا ، فلما فرغ من بيعة الرجال بايع النساء قائلا :

« بايعنني على ألا تشركن بالله شيئاً ، ولا تسرقن ، ولا تزنين ولا تقتلن أولادكن ، ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن ولا تعصينني في معروف » .

ثم قال ﷺ « لعمر » :

« بايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم » .

وروي عن « جرير بن عبد الله » رضي الله عنه ، قال :

بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والنصح لكل مسلم .

الـوَرَع

إذا صدقت التوبة استلزمت لا محالة : الورع .

والورع هو أن يترك الانسان كل ما فيه شبهة .

ولا نتحدث عن ترك الحرام : وذلك أن التوبة الصادقة إنما هي ـ أولا وبالذات ـ توبة عن الحرام : كل الحرام .

وتوجيه رسول الله ﷺ ـ متناسقاً في ذلك مع القرآن ـ كثير مستفيض فيما يتعلق بالورع ، من ذلك ما أخرجه الشيخان عن « النعمان بن بشير » قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« إن الحلال بين ، وإن الحرام بين ، وبينهما مشتبهات ، لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام ، كالراعي يرعى حول الحمى ، يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب[1] » .

ومن ذلك ما رواه « الحسن بن علي » رضي الله عنهما قال :

« حفظت من رسول الله ﷺ : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » .

رواه « الترمذي » وقال حديث حسن صحيح ، ويقول الامام « النووي » معناه : اترك ما تشك فيه ، وخذ ما لا تشك فيه .

وعن « عطية بن عروة السعدي » الصحابي رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) متفق عليه

« لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به ، حذراً مما به بأس[1] » .

والورع يكون في الحديث ، والقلب : والعمل .

أما في الحديث : فإنه التورع عن اللغو بجميع ضروبه ، إنه ترك كلمات الفضول ، وترك كل حديث ليس من شأنه إلا قطع الوقت دون فائدة أو ثمرة .

والورع في الحديث ليس سهلا ، ويقول فيه الامام « القشيري » :
الورع في المنطق أشد منه ، في الذهب والفضة .

ولا تدخل الغيبة والنميمة فيما نحن فيه ، وذلك أننا في مستوى لا ينزل إلى مستوى الآثام والذنوب .

والورع في القلب ، هو عدم انشغاله بالتوافه من الخطرات ، ويتسامى الورع في القلب حتى يصل إلى ما يقوله الامام « الشبلي » وهو من كبار أئمة التصوف :

« الورع : أن تتورع عن كل ما سوى الله » . .
أما الورع في الأفعال ، فإنه يتضمن التحري فيما يتعلق بالمأكل ، والمشرب ، والملبس ، حتى يكون كل ذلك من حلال طيب .

ولقد كان أسلافنا رضوان الله عليهم يتحرون في ذلك ما استطاعوا ، وذلك أن النور في القلب ، والصفاء في العبادة ، والتيسير فيما يأتي الانسان وفيما يدع ، كل ذلك له علاقة قوية بطيب المطعم ، والمشرب ، والملبس .

والجو الاسلامي كله يحث على ذلك ، ومن الأحاديث النبوية الشريفة التي تجمع بين توجيه القرآن الكريم ، وتوجيه الرسول ﷺ متناسقاً مع القرآن الكريم ، ما يلي :

عن ان عباس قال : تليت هذه الآية عند النبي ﷺ :
(يا أيُّها النّاسُ كُلُوا مِمّا في الأرضِ حَلالاً طَيِّباً) .

---
(١) ورواه الترمذي وقال حديث حسن .

فقام « سعد بن أبي وقاص » ، فقال : يا رسول الله : ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة .

فقال : « يا سعد أطب مطعمك ، تكن مستجاب الدعوة ، والذي نفس محمد بيده ، إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ، ما يتقبل منه أربعين يوماً ، وأيما عبد نبت لحمه من السحْت والربا ، فالنار أولى به » .

وعن أبي « هريرة » رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال :

(يا أيُّها الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَاعْمَلُوا صالحاً ، إنّي بما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) .

وقال :

(يا أيُّها الذينَ آمنوُا كُلُوا مِنْ طيِّباتِ ما رزقناكُمْ) ، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، يمد يده إلى السماء ، يا رب ، يا رب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذي بالحرام ، فأنى يستجاب لذلك ؟ » .

وتروى لأئمتنا في هذا الجانب قصص منها ما يلي :

يقول « أبو علي الدقاق » :

كان « الحارس المحاسبي » إذا مد يده إلى طعام فيه شبهة ، ضرب على رأس إصبعه عرق فيعلم أنه غير حلال .

وقال : إن « بشراً الحافي » دعي إلى دعوة ، فوضع بين يديه طعام ، فجهد أن يمد يده إليه ، فلم تمتد ، ففعل ذلك ثلاث مرات ، فقال رجل يعرف ذلك منه :

إن يده لا تمتد إلى طعام فيه شبهة ، ما كان أغنى صاحب هذه الدعوة أن يدعو هذا الشيخ ؟!

كلمات لأئمتنا في الورع :

يقول « القشيري » :

« أما الورع فإنه : ترك الشبهات » .

ويقول « إبراهيم بن أدهم » .

« الورع ترك كل شبهة ، وترك ما لا يعنيك » .

وقال « أبو سليمان الداراني » :

« الورع : أول الزهد ، كما أن القناعة طرف من الرضا » .

ويقول « يحيى بن معاذ » :

« الورع على وجهين : ورع في الظاهر ، وهو : أن لا يتحرك إلا لله تعالى .

وورع في الباطن ، وهو : أن لا يدخل قلبك سوى الله تعالى » .

ودخل « الحسن البصري » مكة ، فرأى غلاماً من أولاد « علي بن أبي طالب » رضي الله عنه ، قد أسند ظهره إلى الكعبة يعظ الناس ، فوثب عليه « الحسن » ، وقال له :

ما ملاك الدين ؟ فقال : الورع ، فقال له : فما آفة الدين ؟ فقال : الطمع .

فتعجب « الحسن » منه .

الزهد

يقول الامام « أبو نصر السراج الطوسي » :
« والورع يقتضي الزهد » .

ويقول : « والزهد مقام شريف ، وهو أساس الأحوال الرضية والمراتب السنية ، وهو أول قدم القاصدين إلى الله عز وجل ، والمنقطعين إلى الله ، والراضين عن الله ، والمتوكلين على الله تعالى ، فمن لم يحكم أساسه في الزهد ، لا يصح له شيء مما بعده ، لأن حب الدنيا رأس كل خطيئة ، والزهد في الدنيا رأس كل خير وطاعة[1] » .

ومسألة الزهد من المسائل التي كثر الجدل في تحقيق مفهومها ، وكثر الجدل فيها قبولا ورفضاً . .

وجوهر المناقشات يتركز حول امتلاك المال ، والثراء العريض : أهو مقبول ؟ أهو مكروه ؟ ما هو موقف الدين من ذلك ؟

وإذا كان الثراء العريض لا يتفق مع الأجواء الدينية ، فكيف ملك بعض كبار الصالحين الثروات الكبيرة ؟

كيف ملك الأنبياء عليهم السلام ، الأموال والضياع ، مثل : « داود » ، « وسليمان » و « ابراهيم » و « أيوب » ، ونظرائهم ، و « يوسف » ، عليه السلام ، على خزائن الأرض ، ومحمدﷺ ، والصالحين من بعده ؟

حول هذه الأسئلة يدور جوهر الحديث في الزهد .
وقد سبق أن كتبنا عدة مرات في هذا الموضوع في عدة من كتبنا ، ولا نريد

(١) اللمع : ٧١ - ٧٢

هنا أن نكرر ما سبق أن كتبناه ، وإنما نحب ـ بتوفيق الله ـ أن نورد نصاً ـ وإن كان مطولا ـ من النصوص النفسية في هذا الموضوع ، وهو نص قد وفق الله سبحانه « أبا سعيد الخراز » لكتابته في صورة دقيقة محكمة ، ونراه فيصلا في هذا الموضوع .

يقول « أبو سعيد » في كتاب « الصدق » :

« اعلم أن الأنبياء ، عليهم السلام ، والعلماء ، والصالحين من بعدهم ، رضي الله عنهم : أمناء الله تعالى ، في أرضه على سره ، وعلى أمره ، ونهيه ، وعلمه ، وموضع وديعته ، والنصحاء له في خلقه وبريته . وهم الذين عقلوا عن الله تعالى ، أمره ونهيه ، وفهموا لماذا خلقهم ، وما أراد منهم ، والام ندبهم ؟ فوافقوه في محبته ، ونزلوا في الأمور عند مشيئته ، ثم وقفوا عند ذلك مواقف العبيد الألباء ، القابلين عن الله ، والحافظين لوصيته ، وأصغوا إليه بآذان قومهم الواعية ، وقلوبهم الطاهرة ، ولم يتخلفوا عن ندبته ، فسمعوا الله ـ عز وجل ـ يقول :

﴿ آمِنُوا باللهِ وَرَسُولِهِ ، وأَنْفِقُوا مِمّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فيهِ ﴾[1] .

ثم قال :

﴿ ثُمَّ جَعَلْناكُمْ خَلائِفَ في الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كيفَ تَعْمَلُونَ ﴾[2] .

وقال تعالى :

﴿ للهِ ما في السَّموات وما في الأَرْضِ ﴾[3] .

وقال تعالى :

﴿ أَلا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ ﴾[4]

---

(١) الحديد : ٧

(٢) يونس : ١٤

(٣) البقرة : ٢٨٤

(٤) الأعراف : ٥٤

فأيقن القوم : أنهم وأنفسهم لله تعالى ، وكذلك ما خولهم ، وملكهم ، إنما هو له ، غير أنهم في دار اختبار وبلوى ، وخلقوا للاختبار والبلوى في هذه الدار .

وهكذا يروى عن « ابن الخطاب » رضي الله عنه ، حين سمع :

(هَلْ أتى على الانسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْر لَمْ يَكُنْ شيئاً مذكوراً)[1]

قال : ياليتها تمت ! ـ يعني « عمر » قبل قراءة :

« إنّا خَلَقْنا الانسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أمشاجٍ نَبْتَلِيهِ » .

ومعنى قول « عمر رضي الله عنه : « يا ليتها تمت » يعني : لم يخلق حين سمع الله تعالى يقول : « لم يكن شيئاً مذكوراً » .

وذلك من معرفة عمر ـ رضي الله عنه ـ بواجب حق الله ، وقدر أمره ونهيه ، وعجز العباد عن القيام به ، وقيام الحجة لله تعالى عليهم عند تقصيرهم وما تواعدهم به إذا ضيعوا .

ويروى عن « الحسن » رضي الله عنه أنه قال :
« إن الله تعالى إنما أهبط آدم عليه السلام ، إلى الدنيا عقوبة ، وجعلها سجناً له حين أخرجه من جواره ، وصيره إلى دار التعب والاختبار » .

فمن ملك ـ من أهل العمل عن الله تعالى ، وأهل الصدق ـ شيئاً من الدنيا ، فهو معتقد : أن الشيء لله جل وعز ، لا إله إلا هو ، من طريق حق ما خوله الله تعالى ، وهو مبلي به حتى يقوم بالحق فيه ، لأن النعمة بلاء ، حتى يقوم العبد بالشكر فيها ، ويستعين بها على طاعة الله تعالى :
وكذلك البلوى والضراء ، هو اختبار وبلاء ، حتى يصبر عليه ، ويقوم بحق الله تعالى فيه !

وكذلك قال بعض الحكماء : « العلم كله بلاء حتى يعمل به » قال الله عز وجل :

---

(١) أو ـ الدهر .

(الذي خَلَقَ الموتَ والحياةَ لِيَبْلُوَكُمْ)[1] .

وقال :

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حتى نَعْلَمَ المجاهدينَ مِنْكُمْ . والصّابرينَ ، وَنَبْلُو أخبارَكُمْ)[2] .

فالأنبياء صلوات الله عليهم ، والصالحون من بعدهم ، الذين شعرهم الله : بأن أبلاهم في الدنيا بالسعة ، وخولهم : كانوا إلى الله ـ جل وعز ـ ساكنين ، لا إلى شيء ، وكانوا خزاناً لله ـ جل ذكره ـ في الشيء الذي ملكهم ، ينفذونه في حقوق الله تعالى ، غير مقصرين ، ولا مفرطين ، ولا متوانين ، ولا متأولين على الله التأويل ، وكانوا غير متلذذين بما ملكوا ، ولا مشغولي القلوب بما ملكوا ، ولا مستأثرين به دون عباد الله تعالى .

ومن ذلك ما روي عن « سليمان بن داود » ـ عليهما السلام ـ في ملكه ، وما أباحه الله تعالى ـ من الكرامة ، حين يقول تعالى :

(هذا عطَاؤنا فامننْ أو أمسِكْ بغيرِ حِسابٍ)[3] .

قال أهل التفسير : « لا حساب عليك في الآخرة ، وإنما كان عطاء هيناً إكراماً من الله ـ عز وجل ـ له .

فذكر العلماء : أن « سليمان » عليه السلام « كان يطعم الأضياف الحواري ، ـ وهو لباب البر ، وخالص الدقيق ـ النقي ، ويطعم عياله الخشكار ـ وهو الدقيق الخشن . . ، ويأكل هو الشعير » .

وكذلك روى العلماء : أن « ابراهيم الخليل » ـ صلوات الله وسلامه عليه :

« كان لا يأكل إلا مع الضيف ، فربما لا يأتيه الضيف فيطويها ، وربما كان يمشي الفرسخ ، أو أقل ، أو أكثر ، تلقياً للضيف » .

---

(١) الملك : ٢

(٢) محمد : ٣١

(٣) ص : ٣٩ .

قال : « وكان « أيوب » النبي ﷺ لا يسمع أحداً يحلف بالله تعالى ، إلا رجع إلى منزله ، فكفر عنه » !

وروى العلماء . أن « يوسف » عليه السلام ، كان علي خزائن الأرض ، فكان لا يشبع ، فقيل له في ذلك ، فقال :

« أخاف أن أشبع ، فأنسى الجياع » .

ولقد روي : أن « سليمان » ـ عليه السلام « بينما هو ذات يوم ، والريح تحمله ، والطير تظله ، والجن والانس معه ، وعليه قميص جديد ، فلصق ببدنه ، فوجد اللذة فسكنت الريح ، ووضعته على الأرض » .

فقال لها : ما لك ؟

قالت : إنما أمرنا أن نطيعك ما أطعت الله .

ففكر في نفسه : من أين أتى ؟ فذكر ، فراجع ، فحملته الريح » .

ولقد روي : « أن الريح كانت تضعه في اليوم مرات ، من هذا وأشباهه» ! فالقوم : كانوا خارجين عن ملكهم في ملكهم ، ناعمين بذكر الله وعبادته ، غير ساكنين إلى ما ملكوا ، لا يستوحشون من فقده إن فقدوه ، ولا يفرحون بالشيء ، ولا يحتاجون إلى العلاج والمجاهدة في إخراجه .

قال الله ـ تعالى ـ للنبي ﷺ :

(أولئكَ الذينَ هَدَى اللهُ فَبِهُداهُم اقتدِه[1]) .

وهذا النبي ﷺ : بينما جبريل ـ عليه السلام عنده ، إذ تغير جبريل ، فإذا ملك قد نزل من السماء ، لم ينزل قط ، فقال جبريل عليه السلام : خشيت أنه نزل في أمر ، فجاء إلى النبي ﷺ بالسلام من عند الله عز وجل ، وقال له : هذه مفاتيح خزائن الأرض ، تسير معك ذهباً وفضة ، مع البقاء فيها إلى يوم القيامة ، ولا ننقصك مما لك عند الله شيئاً !

فلم يختر النبي ﷺ ذلك وقال :

---

(١) الانعام ٩٠

« أجوع مرة ، وأشبع مرة » !

وعد ذلك من الله ـ عز وجل ـ بلوى ، واختباراً ، ولـم يره من الله تعالـى اختياراً ، ولو كان من الله تعالى ـ اختياراً لقبله ، ولكنه علـم أن محبـة الله تعالى في الترك للدنيا ، والاعراض عن زينتها ، وبهجتها .

ولذلك أدبه الله تعالى ـ حين قال تعالى :

(ولا تمدَّنَّ عينيكَ إلى ما متَّعْنا بهِ أزواجاً مِنْهُمْ ، زَهْرَةَ الحياةِ الدُّنيا ، لِنَفْتِنَهُمْ فيه)[1] .

ويروى عنه ﷺ : أنه لبس حلة فيها علم ، فطرحها ، وقال : كادت تلهيني أعلامها ـ أو قال : ألهتني أعلامها ، خذوها وأتوني بأنبجانية » .

وكذلك روي : « أنه صنع خاتم ذهب ليختم به الكتب ، إلى من أمره الله تعالى بإنذاره ، فلبسه ، ثم طرحه من يده ، وقال لأصحابه : إليه نظـرة ، وإليكم نظرة » ! . .

وكذلك روي : « أنـه ﷺ ، غَيَّرَ شراك نعلـه ، فجعـل مكانـه جديداً . فقال : ردوا الشراك الأول » !

وكذلك كل قلب طاهر صاف ، قد أشرف على الآخرة ، وعرف فيام الله تعالى عليه : يفزع من خفايا الكون إلى الدنيا ، والتحلي بشيء منها .

ومثل هذا في الأخبار كثير ، والعاقل الفطن تكفيه الاشارة إليه بالشيء :

وهؤلاء أصحاب محمد ـ ﷺ ـ حين حثهم على الصدقة . جاء « أبو بكر » بماله كله ؛ لأنه كان أقوى القوم ، فقال له النبي ﷺ : ما خلفت لعيالك ؟

قال : الله ورسوله ، ولي عند الله مزيد !

أفلا ترى « أبا بكر » ـ رضي الله عنه ـ إنما كان سكونه إلى الله تعالى ، لا إلى الشيء ، ولم يكن لشيء عنده قدر ، وكان ما عند الله عنده أسر ؟!

---

(١) طه : ١٣١

فحين رأى موضع الحق ، لم يخلف منه شيئاً . وقال : خلفت الله ورسوله !

ثم جاء « عمر » ـ رضي الله عنه ـ بنصف ماله ، فقال النبي ـ ﷺ ـ ما خلفت لعيالك ؟

قال : نصف مالي ، ولله عندي مزيد !

فقد أعطى نصف ماله ، ويقول : ولله عندي مزيد !

ثم « عثمان » ـ رضي الله عنه ـ يجهز جيش العسرة كله ، بجميع ما يحتاج إليه ، ويحفر « بئر رومة » !

أفلا ترى أن القوم كانوا معدين الشيء لله تعالى ؟!

ومما يدل على صدق قولنا : أن القوم كانوا خارجين مما ملكوا وهو في أيديهم ، يعدونه لله عز وجل !

وقد روي عن النبي ﷺ ـ أنه قال :

« إنا معشر الأنبياء لا نورث ، وما خلفناه صدقة » .

افلا ترى أنهم في حياتهم لم يضنوا بالشيء عن الله عز وجل ؟!

وكذلك لم يورثوه ، وخلفوه لله ـ عز وجل ـ كما كان في أيديهم لله تعالى ، لم يحدثوا فيه ، ولم يخولوه من بعدهم أحداً !

وإن هذا لبلاغ لمن عقل عن الله ، وأنصف من نفسه .

وهؤلاء : أئمة الهدى بعد رسول الله ـ ﷺ ـ « أبو بكر » رضي الله عنه ـ حين ملك الأمر ، وجاءته الدنيا راغمة من حلها ، لم يرفع بها رأساً ، ولم يتصنع ، وكان عليه كساء يخلله ـ أي يخيط ما به من خلل وشق ـ وكان يدعى ذا الخلالين !

وهذا : « عمر بن الخطاب » رضي الله عنه ـ حين جاءته الدنيا راغمة من حلها ، وكان طعامه الخبز والزيت ، وفي ثوبه بضع عشرة رقعة ، بعضها من أدم ـ وقد فتحت عليه كنوز (كسرى) و (قيصر) !

وهذا : عثمان ـ رضي الله عنه ـ كأنه واحد من عبيده في اللباس والزيّ .

ولقد روي عنه : أنه رؤي خارجاً من بستان له ، وعلى عنقه حزمة من حطب ، فقيل له في ذلك ، فقال :

أردت أن أنظر نفسي ، هل تأبى !
أفلا ترى أنه كان غير غافل عن نفسه ، وتعاهدها ورياضتها ؟

وهذا : « علي بن أبي طالب » ـ رضي الله عنه ـ في الخلافة ، قد اشترى إزاراً بأربعة دراهم ، واشترى قميصاً بخمسة دراهم . فكان في كمه طول ، فتقدم إلى خراز ـ أي خياط ـ فأخذ الشفرة فقطع الكم مع أطراف أصابعه ، وهو يفرق الدنيا يمنة ويسرة !

وهذا : « الزبير » ـ رضي الله عنه ـ يخلف ـ حين مات ـ من الدين مائتي ألف ، أو أكثر ، كل ذلك من الجود والسخاء والبذل !

وهذا : « طلحة بن عبيد الله » ـ رضي الله عنه ـ يعطي حلي أهله لمن سأله .

فهذا يدل على أن القوم كانوا ، كما قال الله ـ عز وجل ـ حين أمرهم فقال :

﴿ أَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ .

ولا يستحي عبد من عبيد الله من أهل زماننا هذا ، عندما ملك من الشبهات التي علم الله تعالى : كيف هي ؟ ومن أين هي ؟ وكيف قدرها في قلبه ؟ وإيثاره لها ، وسكونه إليها دون الله عز وجل ؟ وما لا يحصى من عيبه في تقلبه في ذلك واشتغاله بذلك ؟[٢] .

حتى أن أحدهم ليزعم : أنه يملك كما ملك من مضى ، ويحتج بهم في اتباع هواه ، مع إقامته على خلاف سنة القوم .

بل الاعتراف لله تعالى بالتقصير من العبد الغافل : أقرب إلى النجاة ، وسؤاله الله ـ عز وجل ـ أن يبلغه ما بلغ القوم ؛ وبالله التوفيق .

---

(١) الحديد : ٧ (٢) كتاب الصدق ٣٥ ـ ٤٥

التوكّل

الاسلام : أن تسلم لله قلبك .

إنه التوحيد .

وهو (إيّاكَ نَعْبُدُ و إيّاكَ نسْتَعِينُ) .

وهو : إسلام الوجه لله .

وذلك يقتضي التوكل على الله ، كجزء لا يتجزأ عن الاسلام .

ويتلون التوكل بحسب درجاته ، ويأخذ إسما تبعا لدرجته ، فيكون : « توكلا » ويكون « تسليما » ويكون « تفويضا » .

والتوكل بداية هذا المقام الروحي ، والتسليم واسطة ، والتفويض نهاية ، إن كان للثقة في الله نهاية .

ومع ذلك فإن كلمة « التوكل » تطلق على كل درجاته ، وتستعمل في كل أنواعه ، وعلى هذا الوضع يأمر سبحانه وتعالى به ، جاعلا منه صفة لا تنفك عن الايمان قائلا :

(وَعَلى الله فَتَوَكّلُوا ، إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

ويأمر سبحانه به امراً مطلقاً كل مؤمن فيقول :

(وَعَلى الله فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنونَ) .

وإذا توكل الانسان على الله سبحانه فإن ثمرة ذلك أمران :

الأمر الأول هو حب الله له ، يقول سبحانه :

(إن اللهَ يُحِبُّ المتَوَكِّلينَ) .

والأمر الثاني هو كفاية الله له ، يقول سبحانه :

﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ .

وهناك ثمار ، هي تفصيل لهذين الأمرين ، أو هي نتائج لهما : نتحدث عنها إن شاء الله تعالى .

ومع أن أمر التوكل في الجو القرآني ، وفي جو السنة ، واضح كل الوضوح ، فإن الناس جعلت من التوكل مشكلة : يتجادلون فيها ويختلفون ، وتتجدد المشكلة كلما جاء ذكر للتوكل ، ومن أجل ذلك نحب بتوفيق الله ـ مع أن الأمر بيّن واضح ـ أن نلقي ببعض الأضواء في هذا المجال .

لقد سئل « يحيى بن معاذ »ـ وهو من أئمة الصوفية ـ: متى يكون الرجل متوكلا ؟

فقال : إذا رضي بالله تعالى وكيلا . .

ويتحدث القرآن الكريم عن بعض الظروف التي ظهر فيها أن المؤمنين الصادقين هم الذين يتخذون الله وكيلا ، يقول سبحانه وتعالى عن المؤمنين في غزوة أحد :

﴿ الذينَ قالَ لَهُمُ النّاسُ إنَّ النّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُم ، فاخْشوهُمْ ، فَزَادَهُمْ إيماناً ، وقالوا حَسْبُنا اللهُ ، وَنِعْمَ الوكيلُ ﴾ . .

ماذا كانت النتيجة ؟

إنها ما عبر الله سبحانه عنها بقوله :

﴿ فَانْقَلَبُوا بنعمةٍ مِنَ اللهِ وفضلٍ ، لَمْ يَمْسَسْهُمْ سوءٌ ، وَاتَّبَعُوا رضوانَ الله، واللهُ ذو فضلٍ عظيمٍ ﴾ .

من هم هؤلاء ؟ إنهم :

﴿ الذينَ استَجابُوا للهِ والرَّسُولِ ، مِنْ بعدِ ما أصابهمُ القرحُ ﴾ .

ما هي قصتهم ؟

إن مشركي مكة لما أصابوا ما أصابوا من المسلمين يوم أحد ، أخذوا في العودة الى مكة ، فلما استمروا في سيرهم ندموا : لم لم يتمموا على أهل المدينة ويجعلوها الفيصلة ؟ وكان من كلامهم :

لا محمداً قتلتم ، ولا الكواعب أردفتم ، بئسما صنعتم ، ارجعوا . . وأرادوا العودة إلى المدينة .

ولكن « أبا سفيان » لم ينس يوم بدر ، ولم ينس أن الفئة القليلة يوم بدر غلبت ثلاثة أمثالها ، مع وفرة العدة في الكثرة ، فأحب أولا أن يعجم عود المسلمين ، وكان من المصادفات ، أن مرَّ به ركب من « عبد القيس » فقال : أين تريدون ؟ . . فالوا : نريد المدينة .

قالْ : ولم . . قالوا نريد الميرة .

قال : فهل أنتم مبلغون عني محمداً رسالة أرسلكم بها إليه . وأحمل لكم في مقابل ذلك زبيبا بعكاظ ، إذا وافيتمونا ؟ فالوا : نعم !

قال : إذا وافيتم محمداً فأخبروه أنا قد جمعنا المسير اليه ، وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم.

ومر الركب برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بحمراء الأسد ، فاخبروه بالذي قال « أبو سفيان » وأصحابه ، فكان رد الفعل عند رسول الله ﷺ وأصحابه ما صوره الله تعالى بقوله :

(الذينَ قالَ لهمُ النّاسُ إنَّ النّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُم ، فاخْشوهُمْ فزادَهُمْ إيماناً ، وقالوا حَسْبُنا اللهُ وَنِعْمَ الوكيلُ ، فانْقَلَبُوا بنعمةٍ مِنَ اللهِ وفضلٍ ، لَمْ يَمْسَسْهُمْ سوء ، واتبعوا رضوانَ اللهِ ، واللهُ ذو فضلٍ عظيمٍ) .

قالوا ذلك واستعدوا مباشرة للقتال من جديد : من كان مجروحا ضمد جرحه ، ومن كان قد كلَّ سيفه أحدَّه ، ومن كان أمره متفرقا في نفسه ، أو ماله أصبح أمره جميعاً . . واستعدوا لخوض المعركة ، بكل ما يملكون من وسائل . .

وكان « أبو سفيان » ينتظر نتيجة الرسالة ، وما تحدثه من صدى . .

ورجع واحد من وفد « عبد القيس »، يقول « لأبي سفيان ». :

« لقد رأيتهم كالأسد الموتورة ، على الأخذ بالثأر ».

ولما سمع « أبو سفيان » ذلك أخذ في العودة إلى مكة ، طلبا للسلامة .

والتوكل ـ إذن ـ والمتوكلون يتخذون الأسباب ، ويستعدون كأكمل ما يكون الاستعداد ، وأدق ما يكون الاستعداد . .

❋ ❋ ❋

وصورة أخرى للتوكل :

يقول الله تعالى على لسان سيدنا « هود » :

(إنّي تَوَكَّلْتُ على اللهِ ربِّي وَرَبِّكُمْ ، ما مِنْ دابَّةٍ إلاّ هُوَ آخذٌ بِناصِيَتِها ، إنَّ رَبِّي على صِراطٍ مُسْتَقيم) .

أخذ « هود » عليه السلام يعمل على نشر الحق الموحى إليه ، الحق الذي دعا إليه كل نبي ورسول ، والذي يتلخص فيما قال هود عليه السلام :

(يا قَوْمِ آعْبُدُوا الله ، ما لَكُمْ مِنْ إلهٍ غَيْرُهُ) .

وابدءوا في ذلك بالاستغفار والتوبة ، فإذا استغفرتم وتبتم إلى الله ، فإن عنايته سبحانه تحيط بكم ، ورعايته تكلؤكم :

(ويا قومِ استغفِرُوا ربَّكُمْ ، ثُمَّ تُوبوا إليهِ ، يرسلِ السماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً ، ويَزِدْكُمْ قُوَّةً إلى قُوَّتِكُمْ) .

ولكن قومه أعرضوا عنه ، ولم تفدهم الأمثلة بالذين أعرضوا عن الله ، فنكل بهم ، وقالوا :

(يا هودُ ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ ، وما نحنُ بتاركي آلهتِنا عَنْ قَوْلِكَ ، وَما نَحْنُ لكَ بمؤمنين) .

وأخذ الصراع بين هود وقومه يشتد ، ويعنُف ، حتى إذا استصفى هود جميع عناصر الخير منهم ، واستخلص منتهى ما يمكن استخلاصه من أشخاص آمنوا به ، ولم يبق إلا من لا خير فيه : جاءهم عذاب الله ، دون أن يصيب هوداً والذين آمنوا معه ، يقول تعالى :

(ولما جاءَ أمْرُنا نَجيَّنْا هوداً والذينَ آمَنُوا مَعَهُ برحمةٍ منّا ، وَنَجَّيْناهُمْ مِنْ عذابٍ غليظٍ) . .

أما الذينَ لم يؤمنوا به ، واستكبروا ، وغرهم الباطل ، فإن الله سبحانه وتعالى أهلكهم جميعاً ، بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبعَ ليالٍ ، وثمانية أيام حسوماً ، فترى القوم فيها صرعى ، كأنهم أعجاز نخل خاوية . .

ونحب ـ بتوفيق الله ـ أن ننبه أولا الى أن الله سبحانه بين في هذه القصة ـ كما يروي « القلشاني »ـ وجوب التوكل على الله ، وكونه حصنا حصينا ، وأن ربوبيته شاملة لكل أحد ، ومن برب ـ يدبر ـ أمر المربوب ، ويحفظه فلا حاجة له إلى كلاءة غيره ، وحفظه .

وننبه ثانيا : إلى أن التوكل ليس ترك الأسباب ، فقد أخذ « هود » يناضل ويكافح ، ويدعو إلى الله سبحانه بكل وسيلة شريفة يستطيعها ، يقول الامام « الغزالي » :

وقد يظن أن معنى التوكل ترك الاكتساب بالبدن ، وترك التدبير بالقلب ، والسقوط على الأرض ، كالخرقة الملقاة ، وكاللحم على الوضم ، وهذا ظن الجهال ، فإن ذلك حرام في الشرع .

إن المعنى الحقيقي للتوكل : هو أن يعتقد الانسان اعتقاداً جازما أن الأسباب الظاهرة ، لا تلغي إرادة الله ، وأن إرادة الله مشرفة على تلك الأسباب في أسسها وبواعثها ، وهي مشرفة على الأسباب في غاياتها ، ونهاياتها ، وعلى الانسان أن يعمل ، كما أمر الشرع ، وعليه أن يكل أمر النتيجة إلى الله سبحانه وتعالى

وقد كان رسول الله ﷺ امام المتوكلين ، وكان إمام المجاهدين المكافحين ، الآخذين بالأسباب ، وسيدنا « أبو بكر » رضي الله عنه حينما

بويع بالخلافة أصبح ذاهبا إلى السوق ، يَتَّجِرُ كعادته ، فتكاثر عليه المسلمون قائلين ! كيف تفعل ذلك ، وقد أقمت لخلافة النبوة ؟ فقال لهم :

« لا تشغلوني عن عيالي فإني إن أضعتهم كنت لما سواهم أضيع » .

حتى فرضوا له قوت أهل بيت من المسلمين .

لقد كان كبار الصحابة رضي الله عنهم يعملون ، ويكتسبون ، وكانوا مع ذلك من كبار المتوكلين .

وبعد : فإن الامام « القشيري » ـ من ائمة الصوفية ـ يقول :

واعلم أن التوكل محله القلب ، والحركة بالظاهر لا تنافي التوكل بالقلب بعدما تحقق العبد أن التقدير من قبل الله تعالى ، فإن تعسر شيء فبتقديره ، وإن اتفق شيء فبتيسيره .

التقدير من قبل الله تعالى :

إذا آمن الانسان بذلك ـ ولا بد أن يؤمن به ـ فهو متوكل . .

والمتوكل يتخذ الأسباب ، اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم .

والآن نسير مع السيرة النبوية الشريفة بعد غزوة أحد ، لنصل إلى غزوة الأحزاب ، ونصل إلى صورة التوكل الذي يتلون بلون التسليم .

إن من التوكل الذي يتلون بلون التسليم ، ما يحدثنا به القرآن الكريم في قوله تعالى :

(وَلَمّا رأى المؤمنونَ الأحزابَ قالوا هذا ما وَعَدَنا اللهُ ورسولُهُ ، وَصَدَقَ اللهُ ورسولُهُ ، وما زادَهُمْ إلا إيماناً وتسليماً) .

لقد زادتهم رؤية الأحزاب ـ الجيوش الجرارة التي أتت لتهدم المدينة ، وتقتل من فيها ـ إيمانا وتسليما . .

ماذا فعلوا ؟

لقد سهروا ليلا ، وأقاموا نهاراً من وراء الخندق ، يرقبون حركات العدو ، ويستعدون لكل شأن من شؤونه .

لقد لبسوا دروعهم ، وتسلحوا بسيوفهم ، وأفواسهم ، وسهامهم .

لقد أحكموا كل أمر من أمور الحرب ، بحسب طاقتهم ، ولكن الأمر فيما يسلمون به لله كله : « إليه يرجع الأمر كله » .

(وَما زادَهُمْ إلا إيماناً وتسليماً) : إيماناً قلبياً وتسليماً قلبياً .

وإن من الملاحظات التي لا تخفى على قارئي القرآن أن آية الأحزاب هذه سبقها مباشرة قوله تعالى :

(لَقَدْ كانَ لَكُمْ في رسولِ اللهِ أسوةٌ حَسَنَةٌ ، لِمَنْ كانَ يَرْجُو اللهَ واليومَ الآخِرَ ، وَذَكَرَ اللهَ كثيراً) .

ولقد تابع المؤمنون الرسول ﷺ في توكله ، واتبعوه مسلمين في استعداده وتأهبه ، لقد اتخذوه قدوة .

ويقول الامام « سهل بن عبد الله » ـ من أئمة التصوف ـ هذه الكلمات الجميلة حقاً الصادقة حقاً :

التوكل حال النبي ﷺ والكسب سنته فمن بقي على حاله فلا يتركن سنته .

ويقول :

من طعن في الحركة فقد طعن في السنة ، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الايمان ، أما كيف عرف « سهل » نفسه التوكل : فإنه قال :

التوكل : الاسترسال مع الله تعالى على ما يريد :

وهي كلمة نفيسة . . الاسترسال مع الله على ما يريد ، في كل ما أراد سبحانه :

في الجهاد في الضرب في الأرض ، طلباً للرزق ، في التزود من العلم ، في حسن الخلق .

إنه الاسترسال مع الله على ما يريد ، وهذا يقتضي أن يسكن الانسان إلى النتائج بعد أن يكون قد اتخذ الأسباب ، بقدر طاقته ، ويقتضي أمراً آخر هو : الابتعاد عن كل ما لا يريد سبحانه .

وبعد : فإن هذا التعريف لسهل رضي الله عنه يتناسق مع تعريف الامام « حمدون القصار »ـ من كبار الصوفية ـ حيث سئل عن التوكل فقال :

« التوكل : هو الاعتصام بالله تعالى » .

إنه الاعتصام بالله تعالى في اتباع أوامره ، وهو الاعتصام بالله تعالى في اجتناب نواهيه ، وهو الاعتصام بالله تعالى في الحركة ، وهو الاعتصام بالله في النتائج ، أي السكون إليه في كل ذلك ، السكون المصاحب للنضال ، المتواصل مع السكينة فيما يتعلق بالنتائج .

وقصة ثالثة يقصها القرآن الكريم : تبين صورة للتوكل الذي يتلون بلون : التفويض .

قصة رجل مؤمن صادق الايمان وقف ناصحاً في وجه الطغيان والجبروت ، يدعو إلى الله ، ويبشر بالتعاليم الصادقة ، وينذر ، ويهدد بعقاب ، في أسلوب قوي ، لا يخشى فيه لومة لائم .

تلك قصة « مؤمن آل فرعون » الذي بعد أن نصح وبشر وأنذر ، قال : فستذكرون ما أقول لكم ، وأفوّضُ أمري إلى الله ، إن الله بصير بالعباد .

وكانت النتيجة ما قصه الله تعالى بقوله :

(فَوَقَاهُ اللهُ سيئاتِ ما مكَروا ، وحاقَ بآلِ فِرْعَوْنَ سوءُ العذاب) .

ويحسن أن نذكر القصة بتمامها من كتاب الله سبحانه ، كما وردت في سورة غافر ، يقول الله تعالى :

(وقالَ الّذي آمنَ يا قومِ اتّبعوني أَهْدِكُمْ سبيلَ الرّشادِ ، يا قومِ إنَّما هذهِ الحياةُ الدّنيا متاعٌ ، وإنَّ الآخرةَ هيَ دارُ القرارِ ، مَنْ عَمِلَ سَيئةً فلا يُجْزَى إلا مِثلَها ، وَمَنْ عَمِلَ صالحاً منْ ذَكَرٍ أو أنثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، فأولئكَ

يَدْخُلُونَ الجنَّةَ ، يُرْزَقُونَ فيها بغيرِ حِسابٍ .

ويا قومِ مالي أدعوكم إلى النَّجاةِ ، وتدعونني إلى النّارِ .

تدعونني لأكفر باللهِ ، وأشركَ به ما ليسَ لي بهِ علمٌ ، وأنا أدعوكُمْ إلى العزيزِ الغفّارِ .

لا جَرَمَ أنّما تدعونَني إليهِ ليسَ لهُ دعوةٌ في الدنيا ولا في الآخرة ، وأنَّ مَرَدَّنا إلى اللهِ ، وأنَّ المسرفينَ هُمْ أصحابُ النّار .

فستذكرونَ ما أقول لَكُمْ وأفوِّضُ أمري إلى اللهِ ، إنَّ اللهَ بصيرٌ بالعبادِ . .

فوقاهُ اللهُ سيئآتِ ما مكَرُوا وحاقَ بآل فرعونَ سوءَ العذابِ) .

ومن كل ما تقدم ننتهي كما بدأنا ، بأن التوكل جزء لا يتجزأ من الايمان ، والصورة المثلى فيه ، هي صورة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذي كان إمام المتوكلين وكان إمام المناضلين ، ومن بعده صورة « أبي بكر » رضي الله عنه ، والصحابة الأجلاء الذين كانوا متوكلين ، وكانوا مناضلين في الحرب ، وفي التجارة ، وفي الزراعة . .

وبعد ، فيقول الله تعالى :

(إنَّ اللهَ يُحِبُّ المتوكِّلِين) .

المحبة

يقول الله تعالى في حديث قدسي :

« من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ من أداء ما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذ بي لأعيذنه » .

وفي هذا الحديث الشريف يبدأ الله سبحانه بالتوجيه في قوة إلى صفاء القلب وطهارة النية بالنسبة لأوليائه .

وأولياؤه هم :

(الذينَ آمَنُوا وكانوا يَتَّقُونَ) .

ومن عاداهم فإنما يعاديَ المؤمن التقي .

ونتيجة هذه العداوة ما يقوله الله تعالى :

آذنته بالحرب .

ثم يرسم الله سبحانه الطريق إلى حبه . .

وأول خطوة في هذا الطريق :

أداء ما افترضه عليه .

ولن يتأتى حب الله سبحانه دون الشرط الأول ـ شرط القرب منه سبحانه ـ وهو أداء الفرائض .

والحب دون أداء الفرائض زيف وكذب .

بل إن أداء الفرائض شرط لحسن الظن بالله : لقد ترك قوم العمل وقالوا :

نحن نحسن الظن بالله ، وكذبوا ـ كما يقول رسول الله ﷺ لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل .

لا بد من أداء الفرائض ، وإلا لما كان لمهملها إلى القرب من الله تعالى من سبيل .

ومع أداء الفرائض ـ في جو القرب ـ الاكثار من النوافل : فإذا أكثر من النوافل ، أحبه الله تعالى :

ويترتب على حب الله تعالى للعبد هذا الخير الكثير ، الذي ذكره الله سبحانه وتعالى في الحديث القدسي .

ويربط أسلافنا رضوان الله عليهم ربطاً محكماً بين محبة الله تعالى ، واتباع رسول الله ﷺ متناسقين في ذلك مع توجيه الله سبحانه وتعالى :

(قُلْ : إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ ، فاتبعوني يُحْبِبْكُمُ اللهُ) .

وهذا الربط معناه الربط بين محبة الله تعالى والعمل .

ومقدمات محبة الله تعالى هي العمل ؛ ونتيجة محبة الله تعالى هي العمل . يقول الامام « أبو سعيد الخراز » :

وبلغنا عن « الحسن البصري » رضي الله عنه : أن ناساً قالوا على عهد رسول الله ﷺ : يا رسول الله إنا نحب ربنا حباً شديداً ، فجعل الله تعالى لمحبته علماً وأنزل عز وجل :

(قُلْ إنْ كُنْتُم تُحِبُّونَ الله فاتبعوني . يُحببكمُ الله[1]) .

فمن صدق المحبة : اتباع الرسول ﷺ في هديه ، وزهده ، وأخلاقه ، والتأسي به في الأمور ، والاعراض عن الدنيا وزهوتها وبهجتها ، فإن الله عز

(١) ال عمران ٣١ .

وجل جعل محمداً ﷺ ، علماً ودليلاً ، وحجة على أمته .

ومن صدق المحبة لله تعالى ، إيثار محبة الله عز وجل في جميع الأمور على نفسك ، وهواك ، وأن تبدأ في الأمور كلها بأمره ، فبل أمر نفسك » . أ . هـ

ويقول :

« فعلامة المحب : الموافقة للمحبوب ، والتَّجارِي[1] مع طرفاته في كل الأمور ، والتقرب إليه بكل حيلة ، والهرب من كل ما لا يعينه على مذهبه »[2].

أما عن صلته بالايمان فإن الامام ، « الغزالي » يقول :

« وقد جعل رسول ﷺ ـ الحب لله من شرط الايمان في أخبار كثيرة ، إذ قال « أبو رزين العقيلي » يا رسول الله ! ما الايمان ؟ قال :

« أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما » .

وفي حديث آخر .

« لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما » .

وفي حديث آخر :

« لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله ، وماله ، والناس أجمعين » .

وفي رواية : « ومن نفسه » :

كيف وقد قال الله تعالى :

« قُلْ إنْ كانَ آباؤكم ، وأبناؤكم ، وإخوانُكم ، وأزواجُكم ، وعشيرتُكم ، وأموالٌ اقترفتموها ، وتجارةٌ تَخْشَوْنَ كسادَها ، ومساكنُ

---

(١) التجارى : المسايرة : أي المتابعة .

(٢) مذهبه : قصده وطريقه .

تَرضَوْنَها أحبَّ إليكم مِنَ اللهِ ورسولهِ ، وجهادٍ في سبيلهِ ، فتربَّصُوا ، حَتَّى يأتِيَ الله بأمرِهِ ، واللهُ لا يهدي القومَ الفاسِقين)[1] .

وإنما جرى ذلك في معرض التهديد والانكار[2] .

ومن أجمل تعبيرات المحبين عن شعورهم ما يقوله « يحيى بن معاذ » :

« إلهي إني مقيم بفنائك ، مشغول بثنائك ، صغيراً أخذتني اليك ، وسربلتني بمعرفتك ، وأمكنتني من لطفك ، ونقلتني في الأحوال ، وفلبتني في الأعمال : ستراً وتوبة ، وزهداً ، وشوقاً ، ورضا ، وحباً . . تسقيني من حياضك ، وتهملني في رياضك ، ملازماً لأمرك ، ومشغوفاً بقولك ، ولما طر شاربي ولاح طائري . فكيف أنصرف اليوم عنك كبيراً ؟ وفد اعتدت هذا منك صغيراً ، فلي ما بقيت حولك دندنة ، وبالضراعة إليك همهمة ، لأني محب ، وكل محب بحبيبه مشغوف ، وعن غير حبيبه مصروف . . ! .

وبعد : فإن ثمرة محبة الله تعالى هي ما فاله سبحانه عن أوليائه :

(لَهُمُ البشرى في الحياةِ الدُّنيا وفي الاخرة ، لا تبديلَ لكلماتِ اللهِ ، ذلكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ) .

---

(١) التوبة : ٢٤

(٢) المنقذ : ٩٣ ـ ٩٤

الرِّضَـــا

وإذا كانت المحبة تبعها الرضا ؛ وذلك أن المحب راض دائماً عن أعمال محبوبه .

وللرضا في الايمان ركائز قوية ، وذلك أن المؤمن من يعتقد أن الله سبحانه وتعالى حكيم ، وتصرفاته ـ سبحانه ـ تجري على مقتضى الحكمة . ويعتقد المؤمن أنه سبحانه رجمن . وتصرفاته ـ سبحانه ـ تجري على مقتضى رحمته الحكيمة ، وحكمته الرحيمة .

فإذا ما وصل المؤمن على ذلك إلى محبة الله تعالى ، فقد أصبح راضياً الرضا كله ، ودخل في نطاق :

(رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ) .

ولكن أمر الرضا يلتبس على بعض الناس . فيما يتعلق بالسلبية والايجابية .

هل الرضا يتنافى مع العمل ؟

هل الرضا يقتضي ألا يحاول الانسان الخروج من الضيق الى السعة ؟ ومن الذل إلى العز ؟ ومن الهزيمة إلى النصر ؟ ومن العسر إلى اليسر ؟ ومن الحسن إلى الاحسن ، ومن الشريف إلى الأشرف ؟

هل الرضا أن تسكن مستسلما ؟

كلا !!!!

وإذا اتجه أحد إلى ذلك فانه يكون تلبيسا إبليسيا ـ على حد تعبيرات « ابن الجوزي » .

إن القرآن الكريم يذكر الرضا في مناسبات منها :

(لَقَدْ رضِيَ اللهُ عَنِ المؤمنينَ ؛ إذ يبايعونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ، فَعَلِمَ ما في قلوبِهمْ فَأَنْزَلَ السَّكينةَ عليهِمْ ، وأثابَهُمْ فتحاً قريباً) .

لقد رضي الله عنهم ، وهم يبايعون على الجهاد ، وعلى الموت في سبيل الله ؟

إن البيعة كانت على القتال ؛ لتحقيق العزة لله ولرسوله !

إنها كانت بيعة على الجهاد لاعلاء كلمة الله تعالى :

يقول الامام « الألوسي » :

« وأصل هذه البيعة ـ وتسمى بيعة الرضوان القول لله تعالى فيها : (لقد رضي) . . الخ ـ أن النبي ﷺ ـ لما نزل الحديبية بعث « خراشا » . بكسر الخاء المعجمة ، وفتح الراء المهملة ، وألف بعدها شين معجمة ـ « ابن امية الخزاعي » رسولاً الى اهل مكة ، وحمله على جمل له ، يقال له « الثعلب » يعلمهم أنه جاء معتمراً لا يريد قتالا ، فلما اتاهم ، وكلمهم عقروا جمله ، وأرادوا قتله ، فمنعه « الأحابيش » فخلوا سبيله حتى أتى الرسول ـ ﷺ فدعا « عمر » رضي الله تعالى عنه ليبعثه فقال : يا رسول الله ان القوم قد عرفوا عداوتي لهم ، وغلظي عليهم ، وإني لا آمن وليس بمكة احد من « بني عدي » ، يغضب لي إن أوذيت . فارسل « عثمان بن عفان » ، فإن عشيرته بها ، وهم يحبونه ، وانه يبلغ ما أردت ، فدعا رسول الله ﷺ « عثمان » فارسله الى قريش وقال : أخبرهم أنا لم نأت لقتال ، وإنما جئنا عماراً ، وادعهم إن الاسلام ، وأمره عليه الصلاة السلام أن يأتي رجالا بمكة مؤمنين ، ونساء مؤمنات ، فيبشرهم بالفتح ، ويخبرهم أن الله تعالى يظهر دينه بمكة ، فذهب « عثمان » رضي الله تعالى عنه إلى قريش ، وكان قد لقيه « أبان بن سعيد بن العاص » ، فنزل عن دابته ، وحمله عليها وأجاره . فأتى قريشاً فاخبرهم ، فقالوا له : إن شئت فطف بالبيت. وأما دخولكم علينا فلا سبيل إليه . فقال رضي الله تعالى عنه :

ما كنت لأطوف به حتى يطوف به رسول الله ﷺ ، فاحتبسوه ، فبلغ رسول

الله صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمين أن « عثمان » قد قتل ، فقال ـ عليه الصلاة والسلام :

« لا نبرح حتى نناجز القوم » ، ونادى مناديه عليه الصلاة والسلام ألا إن روح القدس قد نزل على رسول الله ، صلى الله تعالى عليه وسلم ـ فأمره بالبيعة ، فاخرجوا على اسم الله تعالى فبايعوه ، فسار المسلمون إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ـ وبايعوه .

قال « جابر » ـ كما في صحيح مسلم وغيره ـ : بايعناه صلى الله تعالى عليه وسلم ـ على أن لا نفر ، ولم نبايعه على الموت ! .

وأخرج « البخاري » عن « سلمة بن الأكوع » قال : بايعت رسول الله ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ـ تحت الشجرة ، قيل : على أيّ شيء تبايعونه يومئذ ؟ قال : على الموت [1] .

وأخرج « مسلم » عن « معقل بن يسار » أنه كان آخذاً بأغصان الشجرة عن وجه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهو يبايع الناس . . . » [2] .

ويقول تعالى .

(لا تَجِدُ قوماً يؤمنونَ باللهِ واليومِ الاخرِ يُوادّونَ مَنْ حادَّ اللهَ ورسولَهُ ، ولو كانوا آباءَهُمْ ، أو أبناءَهُمْ ، أو إخوانَهُمْ ، أو عشيرَتَهُمْ ، أولئكَ كَتَبَ في قلوبِهِمُ الايمانَ ، وأيَّدَهُمْ بروحٍ منهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجري مِنْ تَحْتِها الأنهارُ خالدينَ فيها ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ورضُوا عَنْهُ ، اولئكَ حِزْبُ اللهِ ، ألا إن حِزْبَ اللهِ هُمُ المفلِحُونَ) [3] .

إن الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه لا يوادّون من حادّ الله ورسوله ، وإنما يعادونهم ويحاربونهم !

---

(١) لا تعارض بين الحديثين ـ كما يوهمه ظاهر لفظيهما ـ فان المبايعة على الجهاد تتضمن المبايعة على الموت .

(٢) روح المعاني ٢٦/١٠٦ .

(٣) المجادلة : ٢٢

ورضا الله تعالى إنما هو في أن يقف الانسان موقفاً صلباً في وجه كل من يحاد الله ورسوله ، يقول تعالى للمؤمنين :

(وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً) .

ويتحدث الله سبحانه عن جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون في الأرض فساداً ، فيقول :

(إنَّما جَزَاءُ الذينَ يُحاربونَ اللهَ ورسولَهُ ، وَيَسْعَوْنَ في الأرضِ فساداً أنْ يُقَتَّلوا ، أو يُصَلَّبُوا ، أو تُقَطَّعَ أيديهمْ وأرْجُلُهُمْ مِنْ خلافٍ ، أو يُنْفَوا مِنَ الأرض ، ذلكَ لَهُمْ خزيٌ في الدّنيا ولَهُمْ في الآخرة عذابٌ عظيمٌ[1]) .

فالحرب دائرة على مر الزمن بين أنصار الله وأعدائه ، بين من ينتصرون للفضيلة ، ومن يحاولون اشاعة الرذيلة ، بين عباد الرحمن ، وأتباع الشيطان ، وحزب الله الذي يدخل في إطار هؤلاء الذين .

(رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ » .

إنما هو هذه الطائفة التي يقول رسول الله ﷺ فيها :

« ما تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ، ولا من خالفهم ، حتى تقوم الساعة » .

وهم ظاهرون على الحق بكل ما في استطاعتهم من إمكانات ، ظاهرين على الحق بالسيف ، ظاهرين على الحق بالمنطق ! ورسول الله ﷺ وهوإمام المحبين وسيد الراضين ، كانت حياته كلها كفاحاً في سبيل الله تعالى

جهاداً بالسيف ، وجهاداً بالقول ، لقد كانت جهاداً قولاً ، وعملاً ، وكان ﷺ الأسوة للراضين .

ما معنى الرضا إذن ؟

---

(١) المائدة : ٣٢

إن معنى الرضا ، أن يبذل الانسان جهده ليصل إلى ما يحبه الله ورسوله ، ولكنه من قبل الوصول إليه ، وفي أثناء محاولاته للوصول إليه مطمئن إلى النتيجة على أيّ وضع أحبها الله ، راض بها ، إن : (إليهِ المَصِيرُ) .

وإن : (ولِلهِ عاقبةُ الأمورِ) .
وإن : (إليهِ يَرْجعُ الأمْرُ كُلُّهُ) .

يجب أن يكون كل ذلك وافراً في ذهنه ، مفعماً به شعوره ، مع إيمانه بأنه سبحانه حكيم ، رحمن ، رحيم ، إنه الرضا ! يقول صاحب اللمع :

« والرضا باب الله الأعظم ، وجنة الدنيا ، وهو أن يكون قلب العبد ساكنا تحت حكم الله عز وجل » ! ويقول :

« والرضا آخر المقامات ، ثم يقتضي من بعد ذلك أحوال أرباب القلوب ، ومطالعة الغيوب ، وتهذيب الأسرار لصفاء الأذكار ، وحقائق الأحوال[1] ! .

---

(١) اللمع : ٨٠ ـ ٨١ .

- ٤ -

حول مصادر التصوف الاسلامي

- ١ -

يحاول المستشرقون ، وغيرهم من الذين يكتبون في التصوف الاسلامي ، رد الحياة الروحية الصوفية في الاسلام إلى مصدر أجنبي بحت ، « هندي » ، أو « يوناني » : الخ ، أو إلى عدة مصادر ؛ منها القرآن ، أو حياة الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه .

ويحاول بعضهم أن يظهر بمظهر الاعتدال ، فيرى أن العامل الأول في نشأة التصوف ، إنما كان القرآن وحياة الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه . ومنهما استمد التصوف بذوره الأولى ، ثم كانت الثقافة الأجنبية ـ « هندية » ، أو « يونانية ، أو « فارسية » ، أو « مسيحية » ـ هي التي أثرت فيه ، وجعلته يتطور ؛ وهي التي أمدته من الآراء ، بما زعموا أنه بعيد عن روح الاسلام وطبيعته .

وبرغم أن الأستاذ « لويس ماسينيون » يقول في صراحة : « أما دراسة مصادر التصوف ، فإن الشقة بيننا وبين استكمالها ما زالت بعيدة » ، فإن المستشرقين ، ومن نهج نهجهم يحاولون جاهدين أن يعزوا التصوف إلى مصدر معين ، أو إلى مصادر مختلفة ، يشترك فيها المصدر الاسلامي ، أو لا يشترك .

والتصوف إذن على رأي بعضهم « مذهب دخيل في الاسلام ، مأخوذ : إما من رهبانية الشام ، وهو رأي « ميركس » ، وإما من « أفلاطونية اليونان » الجديدة ، وإما من « زرادشتية الفرس » ، وإما من « فيدا الهنود » ، وهو رأي « جونس » .

ويأخذ المستشرقون بعضهم في مناقشة البعض ، وهدم بعضهم البعض ، بل إن الشخص الواحد منهم يغير رأيه ، فيختلف باختلاف فترات حياته ، فالمستشرق « ثولك » مثلا يذهب في أول حياته إلى أن التصوف الاسلامي إنما هو مأخوذ عن أصل مجوسي .

ثم يعدل عن ذلك إلى الطريق المقابل ، ويرى أن « التصوف » وكل ما فيه من الأقوال المتطرفة يمكن الرجوع به إلى تعاليم الرسول ﷺ ، وسيرته .

ويقول الأستاذ الدكتور « أبو العلا عفيفي » ـ بحق ـ « ولما بدأت حركة طبع الكتب في مصر ، والهند ، وغيرهما في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وبدأ يتدفق سيلها من مطبعة بولاق الأميرية خاصة ، تغير مجرى البحث العلمي لا في التصوف وحده ، بل في جميع فروع الدراسات الاسلامية » .

وتغير إذن رأي « ثولك » وتغيرت بذلك أدلته ، وأسانيده ، وكما اعتبر في فترة حياته الأولى أن أدلته وأسانيده فيما يتعلق بالمصدر المجوسي للتصوف الاسلامي حاسمة ، فقد اعتبر في فترة حياته الثانية أن أدلته وأسانيده في المصدر الاسلامي للتصوف حاسمة أيضاً .

وإذا كان الأمر فيما يتعلق « بثولك » يمكن الاعتذار عنه بأنه وجد في فترة لم تكن الكتب الصوفية ميسورة كل اليسر ، فإن ما حدث « لثولك » هو نفسه ما حدث للمستشرق « نيكلسون » ، إنه يتحدث عن التصوف ، فيرجع نشأته إلى عوامل خارجة عن الاسلام ، عملت عملها ابتداء من القرن الثالث الهجري .

وأهم هذه العوامل وأبرزها في نظره ، هو « الأفلاطونية الحديثة » المتأخرة ، والتي كانت شائعة في مصر ، والشام ، إلى عهد « ذي النون المصري » ، و « معروف الكرخي » .

وإذا أردنا تصوير رأي « نيكلسون » بقلمه في هذه الفترة ، فإننا نراه يقول : « ولكني على يقين من أننا إذا نظرنا إلى الظروف التاريخية التي أحاطت بنشأة التصوف بمعناه الدقيق ، استحال علينا أن نرد أصله إلى عامل

« هندي » ، أو « فارسي » ولزم أن نعتبره وليداً لا تحاد الفكر « اليوناني » ، والديانات الشرقية أو بعبارة أدق ، وليداً لاتحاد الفلسفة « الأفلاطونية الحديثة » ، والديانات المسيحية والمذهب الغنوصي » .

ثم يتحول « نيكلسون » عن هذا الرأي ، حينما يكتب مادة التصوف في دائرة معارف الدين والأخلاق ، فيقول : « وقد عولجت مسألة نشأة التصوف الاسلامي حتى الآن معالجة خاطئة ، فذهب كثير من أوائل الباحثين إلى القول بأن هذه الحركة العظيمة التي استمدت حياتها وقوتها من جميع الطبقات والشعوب التي تألفت منها الامبراطورية الاسلامية ، يمكن تفسير نشأتها تفسيراً علمياً ، دقيقاً ، بإرجاعها إلى أصل واحد : « كالفيدانتا الهندية » ، أو « الفلسفة الأفلاطونية الحديثة » ، أو بوضع فروض تفسر جانباً من الحقيقة لا الحقيقة كلها » .

ويشرح الأستاذ « لويس ماسينيون » فكرة « نيكلسون » الأخيرة فيقول : « وقد بين « نيكلسون » : أن إطلاق الحكم بأن التصوف دخيل في الاسلام غير مقبول ، فالحق أننا نلاحظ منذ ظهور الاسلام أن الأنظار التي اختص بها متصوفة المسلمين : نشأت في قلب الجماعة الاسلامية نفسها في أثناء عكوف المسلمين على تلاوة القرآن ، والحديث وتقرئهما ، وتأثرت بما أصاب هذه الجماعة من أحداث ، وما حل بالأفراد من نوازل » .

ويتابع الأستاذ « ماسينيون » ، شرح فكرة « نيكلسون » ، فيقول : « على أنه إذا كانت مادة التصوف إسلامية عربية خالصة ، فمما لا يخلو من فائدة أن نتعرف على المحسنات الأجنبية التي أدخلت عليه ، ونمت في كنفه » .

وفكرة « نيكلسون » هذه ، هي تقريباً نفس فكرة الأستاذ « ماسينيون » فماسينيون يرى ، أن التصوف لا يرجع إلى مصدر واحد ، وإنما يرجع أولا إلى القرآن ، وهو أهم المصادر التي استمد منها التصوف نشأته وحياته .

والمصدر الثاني ، هو : الحديث ، والفقه . وغيرهما من العلوم العربية الاسلامية .

أما المصدر الأخير . فهو : الثقافة العلمية الأجنبية العامة التي وجدت في البيئة الاسلامية ، في عهودها الأول .

- ٢ -

هذه الاختلافات الكثيرة ، التي استفاض فيها الكاتبون ، وكونوا فيها الفصول الطوال ، واستنفدوا فيها الجهد ، والتي لا تزال مع كل ذلك مستمرة لا تنتهي - ولا تريد أن تنتهي - إن دلت على شيء . فإنما تدل على أن وضع المشكلة بهذا الوضع إنما هو خطأ من اساسه ، وهذا الخطأ في وضع المشكلة مفهوم السبب والعلة .

لقد وقف الكاتبون من التصوف موقفهم من الثقافة الكسبية ، والثقافة الكسبية يتأتى فيها التأثر ، والتطور ، والتقليد ، فالكاتب ، او الشاعر ، او المفكر على وجه العموم ، الذي يستمد ثقافته من البيئة الخارجية ، يتكون ويتشكل بما يقرأ ، وبما يدور حوله ، وبما يتشربه من بيئته ، ونتاجه . إذن : هو أثر للبيئة الخارجية ، اللهم إلا إذا كانت له أصالته التي تسمو به عن أن يكون صدى للوسط الذي يعيش فيه .

ولكن التصوف والصوفية ليسا من هذا الوادي .

وإذا أردنا ان نتحدث في تحديد ودقة ، فإنا نرى أن المشكلة التي نحن بصددها تتفرع إلى أمرين :

١ - الاتجاه إلى الحياة الصوفية ، أو النزعة إلى سلوك الطريق الصوفي .
٢ - الشعور الصوفي .

أما فيما يتعلق بالاتجاه نحو السلوك الصوفي ، فله مؤثراته الداخلية البحتة ، وهي مؤثرات تتصل بالفرد من الناحية الداخلية ، أكثر من أن تتصل بعامل خارجي ؛ لا بد - إذن من أن يكون الاستعداد الشخصي الفردي الفطري موجوداً . مهيأ ، ويكفي لأن يسلك عملياً هذا الطريق : كلمة ، أو فكرة ، أو إشارة ، أو حادثة من الحوادث ، فيأخذ فعلا في سيره نحو الله - تعالى - (إنّي ذاهِبٌ إلى رَبِّي) .

هذا العزم المصمم ، الذي يتمثل في هذه الكلمة الكريمة : لا بد له من الاستعداد الفطري ، الذي لا يغني عنه فلسفة « أفلاطونية » ، ولا « فيدانتا

هندية » ، ولا « زرادشتية فارسية » .

وقد يكون المتجه إلى التصوف قارئاً « للأفلاطونية الحديثة » ، أو لا يكون ، وقد يكون على علم بعقائد « الهند » ، أو لا يكون ، فالمتخصص في « الأفلاطونية الحديثة » لا يفيده تخصصه هذا ـ لا ولا قلامة ظفر ـ في أن يكون صوفياً . وكذلك الأمر في المتخصص في « عقائد الهند » .

وقد قرأ الامام « الغزالي » كتب الصوفية أنفسهم ويحدثنا بذلك ، فيقول :

« فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم ، مثل : « قوت القلوب » « لأبي طالب المكي » ـ رحمه الله ـ وكتب « الحارث المحاسبي » ، والمتفرقات المأثورة عن « الجنيد » ، و « الشبلي » ، و « أبي يزيد البسطامي » ـ قدس الله أرواحهم ـ وغير ذلك من كلام مشايخهم ، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل عن طريقهم بالتعليم والسماع » .

ولكن ذلك لم يجعل منه صوفياً . ولم يكن الامام « الغزالي » بهذه الكتب ، ولا بمطالعته لفلسفة « اليونان » ودراسته لها دراسة عميقة صوفياً ، ولكنه تبين أن أخص خواصهم ـ على حد تعبيره ـ ما لا يمكن الوصول إليه بالتعليم ، بل بالذوق والحال ، وتبدل الصفات .

وليس التصوف ـ إذن ثقافة كسبية ، تتأثر بهذا الاتجاه أو ذاك ، وإنما هو ذوق ومشاهدة ، يصل الانسان إليهما عن طريق الخلوة ، والرياضة والمجاهدة ، والاشتياق ، بتزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق ، وتصفية القلب لذكر الله ـ تعالى ـ . .

وهذا هو جوهر الشعور الصوفي .

أخص خصائص التصوف : شعور لا يمكن التعبير عنه ، فإن الانسان يصل فيه ، إلى درجات يضيق عنها نطاق الكتابة ، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها ، إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح ، لا يمكنه الاحتراز عنه .

والذي لابسته تلك الحالة ـ على حد تعبير الامام « الغزالي » ـ لا ينبغي أن يزيد على أن يقول :

وكان ما كان مما لست أذكره   فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر

المشاهد الصوفية ـ إذن ، ليست ثقافة كسبية ، وإذن لا يتأتى التحدث عن مصادرها الخارجية ـ أياً كانت هذه المصادر ـ.

ووضع المسألة ـ مسألة مصادر التصوف ـ إذن موضع البحث ، والنظر ، والدراسة : إنما هو وضع خطأ ، لا يفعله ، ولا يقوم به إلا من لا يفهم التصوف ، ولم يسهم في تذوقه بقليل ولا بكثير .

والنتيجة التي نريد أن ننتهي إليها ـ إذن ـ هي أن الاتجاه نحو التصوف والنزوع إليه إنما هو فطرة واستعداد .

أما الذوق الصوفي ، والشعور الصوفي ، والمعرفة الصوفية ، فإنها استمداد من مصدر النور ، والهداية .

نَشْأةُ التَّصَوُّف

- ١ -

إن التصوف باعتباره فكرة ، وباعتباره حالة ، نشأ مع نشأة الانسان .

والاستدلال على هذا لا يتأتى أن يستند إلى نصوص ؛ لأن نشأة الانسان كانت قبل الكتابة والتسجيل .

ولكنه من البدهي : أن الانسان منذ نشأته يتطلع إلى معرفة الغيب ، وإلى استشراف عالم ما وراء الطبيعة ، بل وإلى الاتصال بذلك العالم عن طريق الوسيلة الصحيحة لهذا الاتصال .

وهذه الفكرة على هذا الوضع تقرها الأديان على وجه العموم .

ذلك أن الأديان تعترف بنبوة آدم ، وبأن الله قد اجتباه ، إنها تعترف بصلته بالله ، وبأن الله قد علمه الأسماء كلها . والنبوة أعلى درجة من التصوف ، إنها تتضمنه ، وتزيد عليه . ان النبوة تتضمن الولاية ، ولكنها أعلى درجة ومنزلة منها ، لأنها اصطفاء من الله :

(إنَّ الله اصطفى آدمَ ونوحاً . .) .

والأديان ـ على وجه العموم ـ : لا تنتهج نهج التطوريين أو النشوئيين ، الذين يرون أن العقل الانساني : درجات مختلفة ، وأن تطلعه إلى .

المعرفة الإشرافية ، إنما نشأ متأخراً ، أي عندما نضج وتهذب :

والحق : أنه ليس هناك دليل واحد على أن العقل درجات ، تتابعت رقياً ، وإنما كل الأدلة تثبت أن العقل ـ باعتباره عقلا « لا باعتباره معرفة مكتسبة » ـ : هو ، هو في بني البشر ، باديهم ، ومتحضرهم .

ولو أخذنا طفلا من البدائيين ، من مجاهل أفريقيا ، ووضعناه منذ نشأته في أرقى الأوساط الأدبية محضراً ، لنشأ نشأة أوربية بحتة .

وكذلك الأمر ، لو أخذنا طفلا من أرقى الأوساط الأوربية تحضراً ووضعناه مع البدائيين منذ الميلاد لنشأ نشأة بدائية .

العقل الانساني : هو ، هو ، منذ أن وجدت الانسانية إلى الآن ، والذي اختلف ، إنما هو المعارف المكتسبة ،وهذه المعارف المكتسبة هي وحدها التي تميز المتحضر عن البدائي ، والتي تميز رجل القرن العشرين بعد الميلاد ، عن الانسان فيما قبل الميلاد .

ومما هو جدير بالذكر : أن التصوف ـ في وجوده وتحققه ـ : غير محتاج إلى معارف مكتسبة ، طبيعية ، أو كيماوية ، أو فلكية ، أو غير ذلك . إنه محتاج إلى أساس من العقيدة الصحيحة .

والعقيدة الصحيحة وجدت مع ا نسان منذ أن سواه الله ، ونفخ فيه من روحه .

هذه النفحة الالهية ، أو هذا السر الالهي في الانسان ، أو هذه الروح التي بين جنبيه ، أو هذا القلب الذي منحه الله إياه : إذا ارتكز على أساس صحيح من الدين ، ثم جاهد في طريق التزكية والتصفية ، واتخذ الوسائل التي تؤدي إلى الاتصال بالملأ الأعلى ، فإنه ينتهي ـ بتوفيق الله ـ الى ما يريد من هذا الاتصال ، والى ما يطمح اليه من ثمار الاتصال ، أعني : المعرفة .

معرفة ما وراء الطبيعة . . انها الأمل العذب الذي يراود الكثير من النفوس التي تريد أن تتنزه عن المادة ، وأن تسمو على الحس ، وأن تصبح ربانية .

وهذا النمط من الناس موجود في كل زمان ، ومكان ، ولكنه من الطبيعي أنه من الندرة بمكان ، « وجلّ جناب الحق على أن يكون شرعة لكل وارد ، أو أن يصل اليه ، الا الواحد بعد الواحد » ، على حد تعبير « ابن سينا » .

ومن المعقول : أن هذا النمط وجد مع وجود الانسانية ، ما دام الطموح ، وحب الاستطلاع ، والتشوف إلى عالم الغيب ، ما دام كل ذلك فطرة في بعض الطبائع .

وجد التصوف ـ اذن ـ منذ أن وجد الانسان .

وفيما قبل الحضارة اليونانية ، كانت المسائل ـ فيما يتعلق بالمعرفة ـ تسير سيراً طبيعياً ، فقد كان هناك ميدان للحس ، يجول فيه ، كيفما شاء ، وهناك ميدان للعقل ، يبحث فيه ، كيفما يريد ، ولكن كان من المعروف في الحكمة الهندية مثلا ، والحكمة المصرية القديمة : أن عالم ما وراء الطبيعية انما هو من اختصاص البصيرة ، وما كان يسمح قط في تلك الحضارات : أن تختلط الأمور ، وأن تتعدى كل أداة من أدوات المعرفة اختصاصها .

وكانت ميادين المعرفة محددة تحديداً كاملا ، لا لبس فيه ولا غموض . كانت محدودة ، فيما يتعلق بالوسائل ، وكانت محددة ، فيما يتعلق بالموضوعات .

وكان لمعرفة الغيب رجال ، هيأت لهم فطرهم وظروفهم أن ينتهجوا سبيله . بل حدث في بعض الأحيان : أن حدد هؤلاء الرجال ، من بين طبقة معينة ، هي الطبقة التي يظن أنها ورثت نوعاً من الشفافية عن أسلافها .

وطبقة « البراهمة » عند الهنود طبقة محددة ، وما كان كل شخص يمكن أن يكون كاهناً عند قدماء المصريين .

ولا تزال هذه الفكرة للآن ـ فكرة تحديد ميادين المعرفة ، وتحديد وسائلها ـ : موجودة في الهنود المحافظين على تراثهم القديم .

أما حينما نشأت الحضارة اليونانية ، ولم تكن هذه الحضارة مرتكزة على دين صحيح ، ولم تكن مستقرة على دعائم من النصوص المقدسة الثابتة ، فإن الأمور بدأت تختلط ، وبدأت الحدود تزول ـ نوعاً ما ـ بين ميادين المعرفة ! وبدأت بالتالي ، تضطرب الأمور ، فيما يتعلق بأدوات المعرفة .

ومع ذلك فإن هذه الحضارة اليونانية القديمة نفسها ـ في بعض صورها . كانت تسير على نهج الحضارات الصحيحة : هندية كانت ، أو مصرية .

فهذا مثلا ، « فيثاغورث » ومدرسته : كانوا يسيرون في المعرفة على أسس صحيحة ، ولكن وجد بجوار « فيثاغورث » من انتهجوا النهج

العقلي ، في معرفة ما وراء الطبيعة ، وبدأ الأمر يختلط ، حتى كان « أرسطو » ، فذهب بهذا الخلط إلى أقصى مداه ، واضطرب الأمر بسببه اضطراباً لا يزال العالم يعاني الكثير من آثار انحرافه الى الآن .

ان ادخال العقل في مسائل ما وراء الطبيعة : انحراف يؤرخ بالعصر اليوناني ، ولكن هذا الانحراف لم يكن خفياً أمره ـ في العصر اليوناني ، وفيما تلاه من العصور ـ على كثير من ذوي البصائر النافذة ، الذين اتخذوا من الآثار المقدسة ملجأ وعصمة ، والذين اتخذوها دثاراً وشعاراً ، والذين عملوا بها ، وتشربتها أرواحهم حتى أصبحت ، وكأنها فطرة فيهم . . فقادتهم الى أن يكونوا ربانيين : لقد قادتهم الى الأمل المنشود : شهود ما وراء الطبيعة ، أو شهود التوحيد ، فانضووا تحت لواء الآية الكريمة :

(شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إلهَ إلا هُوَ ، والملائكةُ ، وأولوا العلمِ . .)

انهم أولياء الله ، إنهم « الصوفية » .

- ٦ -

لمحة عامة عن التصوف (١)

ربما كانت العقيدة الاسلامية من بين العقائد الموروثة هي العقيدة التي يظهر فيها بوضوح التفرقة بين جزأين متكاملين ، هما « الظاهر » و « الباطن » أعني « الشريعة » ، وهي الباب الذي يدخل منه الجميع ، و « الحقيقة » ولا

---

(١) هذه اللمحة كتبها بالفرنسية الحكيم الصوفي « رينيه جينو » الذي أسلم ، وسمى نفسه « عبد الواحد يحيى » وقد ترجمناها عن الفرنسية وعلقنا عليها بنصوص من شتى المصادر ، توضيحاً للبحث ، واستكمالا له . أما الشيخ « عبد الواحد » فقد كتبنا عنه ما يلي :

أما الذي كان إسلامه ثورة كبرى ، هزت ضمائر الكثيرين من ذوي البصائر الطاهرة ، فاقتدوا به : واعتنقوا الاسلام ، وكونوا جماعات مؤمنة مخلصة ، تعبد الله على يقين ، في معاقل الكاثوليكية في فرنسا ، وفي سويسرا . . فهو العالم ، الفيلسوف ، الحكيم الصوفي : « رينيه » الذي يدوي اسمه في أوروبا قاطبة وفي أمريكا ، والذي يعرفه كل هؤلاء الذين يتصلون اتصالا وثيقاً بالدراسات الفلسفية الدينية ، في أوربا ، أو في أمريكا .

وكان سبب إسلامه بسيطاً منطقياً في آن واحد :

لقد أراد أن يعتصم بنص مقدس ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فلم يجد - بعد دراسة عميقة - سوى القرآن ، فهو الكتاب الوحيد الذي لم ينله التحريف ، ولا التبديل : لأن الله تكفل بحفظه ، وحفظه حقيقة : « إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون » .

لم يجد سوى القرآن نصاً مقدساً ، صحيحاً ، فاعتصم به ، وسار تحت لوائه فغمره الأمن النفساني ، في رحاب الفرقان .

ومؤلفاته كثيرة مشهورة من بينها كتاب : « أزمة العالم الحديث » بين فيه الانحراف

يصل إليها إلا المصطفون الأخيار وهذه التفرقة ليست تحكمية ، وإنما تفرضها طبيعة الأشياء ، ذلك أن استعداد الناس متفاوت وبعضهم معد

الهائل ، الذي تسير فيه أوربا الان ، والضلال المبين الذي أعمى الغرب عن سواء السبيل .

أما كتابه : « الشرق والعرب » فهو من الكتب الخالدة ، التي تجعل كل شرقي يفخر بشرقيته . وقد رد فيه إلى الشرق اعتباره ، مبيناً أصالته في الحضارة ، وسموه في التفكير ، وإنسانيته التي لا تقاس بها مادية العرب ، وفساده ، وامتصاصه للدماء وعدوانه الذي لا يقف عند حد ، وظلمه المؤسس على المادية والاستغلال ، ومظهراً في كل صفحة من صفحاته نبل الشرقيين . وعمقهم ، وفهمهم للأمور فهماً يتفق مع الفضيلة ، ومع أسمى المبادىء الانسانية . . !

وقد كتبنا عنه تقريراً لاحدى جامعاتنا المصرية ، للتعريف به ، ننشره فيما يلي :

« رينيه جينو » من الشخصيات التي أخذت مكانها في التاريخ ، يضعه المسلمون بجوار الامام « الغزالي » وأمثاله ، ويضعه غير المسلمين بجوار « أفلوطين » ، صاحب الأفلاطونية الحديثة ، وأمثاله .

وإذا كان الشخص ، في بيئتنا الحالية ، لا يقدر التقدير الذي يستحقه . إلا بعد وفاته ، فقد كان حسن حظ « رينيه جينو » أنه قدر أثناء حياته ، وقدر بعد وفاته . أما في أثناء حياته : فكان اول تقدير له : أن حرمت الكنيسة قراءة كتبه ، والكنيسة لا تفعل هذا إلا مع كبار المفكرين الذين تخشى خطرهم ، وقد وضعته بذلك بجوار عباقرة الفكر ، الذين اتخذت تجاههم نفس المسلك ، ولكنها رأت في « رينيه جينو » خطراً يكبر كل خطر سابق ، فحرمت ، حتى الحديث عنه .

وإذا كان هذا تقديراً سلبياً له قيمته ، فهناك التقدير الايجابي ، الذي لا يقل في أهميته ، عن التقدير السلبي ، فهناك هؤلاء الذين استجابوا لدعوة :

« رنيه جينو » فألفوا جمعيات في جميع العواصم الكبرى في العالم ، وعلى الخصوص ، في «سويسرا » ، وفي « فرنسا » . والمكونون لهذه الجمعيات ، احتذوا حذو « رينيه جينو » فاتخذوا الاسلام ديناً ، والطهارة والاخلاص وطاعة الله ، شعاراً وديدناً ، ويكونون ـ وسط هذه المادية السابغة ، وهذه الشهوات المتغلبة ـ واحات جميلة ، يلجأ إليها كل من أراد الطهر ، والطمأنينة .

ومن التقدير الايجابي أيضاً ، أن كتبه ـ برغم تحريم الكنيسة لقراءتها ـ قد انتشرت في جميع أرجاء العالم ، وطبعت المرة بعد الأخرى ، وترجم الكثير منها إلى اللغات الحية الناهضة ، ما عدا العربية ، للأسف الشديد .

لمعرفة الحقيقة .

وكثيراً ما نجدهم يشبهون الشريعة والحقيقة ، بالقشر واللب ، أو بالدائرة

ومن الطريف : أن بعض الكتب ترجم إلى لغة : « الهند الصينية » ، ووضعت كشرح للوصية الأخيرة من وصايا « الدالاي لاما » . ولم يكن يوجد في الغرب شخص متخصص في تاريخ الأديان ، إلا وهو على علم بآراء « رينيه جينو » .

كل هذا التقدير كان في حياته .

أما بعد مماته ، فقد زاد هذا التقدير ، لقد كتبت عنه جميع صحف العالم ، ومنها بعض الصحف المصرية العربية ، كالمصور مثلا ، الذي كتب عنه . في استفاضة ، والصحف الافرنجية أيضاً ، كمجلة « إيجيبت نوفل » . التي أخذت تكتب عنه ، عدة أسابيع . ثم أخذت تكتب عنه كل عام في ذكرى وفاته .

وقد خصصت له مجلة : « فرنسا آسيا » وهي مجلة محترمة ، عدداً ضخماً ، كتب فيه كبار الكتاب الشرقيين والغربيين ، وافتتحته بتقدير شاعر فرنسا الأكبر . « أندريه جيد » لـ (رينيه جينو) وقوله ، في صراحة لا لبس فيها : إن آراء (رينيه جينو) لا تنقض .

وخصصت مجلة : (ايتودتر دبسيونيل) ، وهي المحلة التي تعتبر في الغرب كله : لسان التصوف الصحيح ، عدداً ضخماً من اعدادها ، كتب فيه أيضاً ، كبار الكتاب الشرقيين والغربيين .

ثم خصص له الكاتب الصحفي الشهير ، (بول سيران) كتاباً ضخماً ، تحدث فيه عن حياته ، وعن آرائه ، ووضعه ، كما وضعه الآخرون الذين كتبوا عنه في المكان اللائق به ، بجوار الامام « الغزالي » أو الحكيم « أفلوطين » . .

نشأ (رينيه جينو) في فرنسا من أسرة كاثوليكية ، ثرية محافظة ، نشأ مرهف الحس ، مرهف الشعور ، مرهف الوجدان ، متجهاً بطبيعته ، إلى التفكير العميق والأبحاث الدقيقة . وهاله حينما نضج تفكيره ، ما عليه قومه من ضلال ، فأخذ يبحث ، في جد عن الحقيقة ، ولكن أين هي ؟ أفي الشرق أم في الغرب ؟ وهل هي في السماء أم في الأرض ؟

أين الحقيقة ،؟ سؤال وجهه (رينيه جينو) إلى نفسه ، كما وجهه من قبل إلى نفسه : الامام « المحاسبي » ، والامام « الغزالي » ، والامام « محيي الدين بن عربي » وكما وجهه من قبلهم عشرات من المفكرين الذين أبوا أن يستنيموا للتقليد الأعمى ، وتأتي فترة الشك ، والحيرة ، والألم الممض ، ثم يتأتى عون الله ، وكان عون الله ، بالنسبة لـ (رينيه جينو) : أن بهرته أشعة الاسلام الخالدة ، وغمره ضياؤه الباهر فاعتنقه ، وتسمى باسم الشيخ « عبد الواحد يحيى » ، وأصبح جندياً من جنوده ، يدافع عنه ، ويدعو إليه . ومن

ومركزها . والشريعة تتضمن ـ فضلا عن الناحية الاعتقادية ـ الناحية التشريعية والناحية الاجتماعية ، وهما جزآن لا يتجزآن عن الدين الاسلامي : إنها أولا وقبل كل شيء قاعدة للسلوك . أما الحقيقة[1] . فإنها

أمثلة ذلك : ما كتبه في كتابه : (رمزية الصليب) تنفيذاً للفرية التي تقول : إن الاسلام انتشر بالسيف ، ومن أمثلة ذلك أيضاً ما كتبه في العدد الخاص الذي أصدرته مجلة : (كاييه دي سود) ، في عددها الخاص بالاسلام والغرب ، دفاعاً عن الروحانية الاسلامية ، لقد أنكر الغربيون روحانية الاسلام ، أو قللوا من شأنها ، وأشادوا بروحانية المسيحية وأكبروا من شانها ، ووضعوا التصوف المسيحي في أسمى مكانة ، وقللوا من شأن التصوف الاسلامي .

كتب الشيخ « عبد الواحد يحيى » ، مبيناً سمو التصوف الاسلامي وروعته ، وقارن بينه وبين ما يسمونه بالتصوف المسيحي ، أو « المستيسزم » ، وانتهى بان هذا « المستيسزم » لا يمكنه أن يبلغ ولا عن بعد ما بلغه التصوف الاسلامي ، من سمو ، ومن جلال .

على أن الشيخ « عبد الواحد يحيى » لم يشد بالاسلام فحسب ، وإنما أشاد في جميع كتبه . وفي مواضع لا يأتي عليها الحصر ، بالشرق ، ثم خصص كتاباً ضخماً بعنوان : (الشرق والغرب) تزيل قراءته من نفس كل شرقي مركب النقص الذي غرسه الاستعمار في نفوس الشرقيين ، في هذه السنوات الأخيرة .

لقد دأب الاستعمار على أن يغرس في نفوس الشرقيين : انهم أقل حضارة ، بل أقل إنسانية من الغربيين . . وأتى الشيخ « عبد الواحد » : فقلب الأوضاع رأساً على عقب ، وبين للشرقيين قيمتهم ، وأنهم منبع النور ، والهداية ، ومشرق الوحي ، والالهام .
إن كل شرقي يفخر بشرقيته ، بمجرد قراءته لهذا الكتاب ، وهو ليس كتاباً يشيد بالشرق على الأسلوب الصحفي ، أو على الطريقة الانشائية ، وإنما هو كتاب علمي بأدق المعاني لكلمة علم ، وهذا ـ وحده ـ يكفي لأن يقيم الشرقيون مظاهر التكريم للشيخ « عبد الواحد » اعترافاً منهم بالجميل ، والله الموفق .

(١) الشريعة أمر بالتزام العبودية ، والحقيقة مشاهدة الربوبية ، فكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة غير مقبولة ، كل حقيقة غير مقيدة بالشريعة غير محصول ، فالشريعة جاءت بتكليف الخلق ، والحقيقة إنباء عن تصريف الحق ، فالشريعة أن نعبده ، والحقيقة أن نشهده ، والشريعة قيام بما أمر ، والحقيقة شهود لما قضى ، وقدر ، وأخفى ، وأظهر . سمعت الأستاذ « أبا علي الدقاق » رحمه الله يقول : قوله « إياك نعبد » حفظ للشريعة ، « وإياك نستعين » إقرار بالحقيقة . واعلم أن الشريعة حقيقة ، من حيث إنها وجبت بأمره ، والحقيقة أيضاً شريعة من حيث إن المعارف به سبحانه أيضاً وجبت بأمره .
« عن الرسالة القشيرية »

معرفة محضة ، ولكن يجب أن تعلم أن هذه المعرفة التي تعطي للشريعة معناها السامي العميق ، بل هي التي تبرر وجود الشريعة ، إنها في الحقيقة - وإن لم يشعر بذلك المؤمنون - المركز الأساسي : مثلها في ذلك مثل مركز الدائرة بالنسبة لمحيطها .

بيد أن (الباطن) لا يعني فقط الحقيقة ، وإنما يعني كذلك السبيل الموصلة إليها ، أعني : الطرق التي تقود الانسان من الشريعة إلى الحقيقة .

وإذا رجعنا إلى الصورة الرمزية : الدائرة ومركزها ، قلنا : إن الطريقة هي الخط الذاهب من محيط الدائرة إلى المركز ، وكل نقطة على محيط الدائرة هي مبدأ الخط . وهذه الخطوط التي لا تحصى ، تنتهي كلها - الى المركز .

انها « الطرق » وهي طرق تختلف تبعاً لاختلاف الطبائع البشرية
ولهذا يقال : « الطرق الى الله كنفوس بني آدم » .

ومهما اختلفت فالهدف واحد : لأنه لا يوجد الا مركز واحد ، وإلا حقيقة واحدة . على أن هذه الاختلافات الموجودة في المبدأ ، تزول شيئاً فشيئاً مع زوال الانية ، وذلك حينما يصل السالك الى درجات عليا ، تزول فيها « صفات العبد » التي ليست الا سجناً : « الفناء » ، فلا تبقى الا الصفات الربانية ، وقد تحققت « الذات » بها : « البقاء » .

والطريقة والحقيقة مجتمعتان يطلق عليهما : التصوف ، وهو ليس مذهباً خاصاً : لأنه الحقيقة المطلقة ، وليست الطرق مدارس مختلفة : لأنها طرق ، أي : سبل موصلة جميعها الى الحقيقة المطلقة : « التوحيد واحد » .

ويجب أن يلاحظ أنه لا يمكن لأحد أن يطلق على نفسه أنه صوفي ، اللهم الا اذا كان ذلك منه جهلا محضاً ، لأنه بذلك يبرهن على أنه حقيقة ليس بصوفي : وذلك أن هذه الصفة « سر » بين الصوفي الحقيقي وبين ربه ، ويمكن أن يقول الانسان عن نفسه : إنه متصوف ؛ وهو عنوان يطلق على « السالك » في أيّ مرحلة كان . ولكن الصوفي بمعناه الحقيقي ، لا يطلق الا على من بلغ الدرجة العليا .

أما أصل هذه الكلمة : صوفي[1] ، فقد اختلف فيه اختلافاً كبيراً ، ووضعت فروض متعددة ، وليس بعضها بأولى من بعض ، وكلها غير مقبولة ، انها في الحقيقة تسمية « رمزية » . واذا أردنا تفسيرها ، ينبغي لنا ان نرجع الى القيمة العددية لحروفها ، وان لمن الروائع أن نلاحظ أن القيمة العددية لحروف « صوفي » تماثل القيمة العددية لحروف : (الحكيم الالهي) ، فيكون الصوفي الحقيقي هو الرجل الذي وصل الى الحكمة الالهية ، انه (العارف بالله) اذ إن الله لا يعرف الا به . وتلك هي الدرجة العظمى (الكلية) فيما يتعلق بمعرفة الحقيقة .

من كل ما سبق يمكننا أن نستنتج أن الصوفية ليست شيئاً أضيف الى الدين الاسلامي ، انها ليست شيئاً أتى من الخارج فألصق بالاسلام ، وانما هي ، بالعكس تكون جزءاً جوهرياً من الدين[2] . إذ إن الدين بدونها يكون ناقصاً ،

---

(١) هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة فيقال : رجل صوفي ، وللجماعة صوفية ومن يتوصل إلى ذلك يقال له متصوف ، وللجماعة : المتصوفة . وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ، ولا اشتقاق ، والأظهر فيه أنه كاللقب . فأما قول من قال : إنه من الصوف ، وتصوف إذا لبس الصوف ، كما يقال تقمص إذا لبس القميص : فذلك وجه ، ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف . ومن قال إنهم منسوبون إلى صفة مسجد رسول الله ﷺ ، فالنسبة إلى الصفة لا تجيء على نحو الصوفي . ومن قال : إنه من الصفاء فاشتقاق الصوفي من الصفاء بعيد في مقتضى اللغة . وقول من قال : إنه مشتق من الصف ، فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم ، من حيث المحاضرة من الله تعالى ، فالمعنى صحيح ، ولكن اللغة لا تقتضي هذه النسبة إلى الصف ، ثم إن هذه الطائفة اشهر من أن يحتاج في تعيينهم إلى قياس لفظ ! واستحقاق اشتقاق .

« عن الرسالة القشيرية »

(٢) قال الأستاذ « ماسينيون » في دائرة المعارف الاسلامية : الترجمة العربية ، مادة (تصوف) : أما دراسة مصادر التصوف فإن الشقة بيننا وبين استكمالها ما زالت بعيدة ، وقد حار علماء الاسلاميات الأول في تعليل ذلك الخلاف الكبير في العقيدة بين مذهب الوحدة الحالي ومذهب أهل السنة الصحيح ، فذهبوا إلى ان التصوف مذهب دخيل في الاسلام ، مأخوذ إما من رهبانية الشام ، وهو رأي (ماركس) وإما من « أفلاطونية اليونان ، الجديدة ، وإما من « زرادشتية الفرس » ، وإما من « فيدا الهنود » ، وهو رأي

بل يكون ناقصاً من جهته السامية ، أعني جهة المركز الأساسي ، لذلك كانت فروضاً رخيصة تلك التي تذهب بالصوفية إلى أصل أجنبي : « يوناني » أو « هندي » أو « فارسي » : وهي معارضة بالمصطلحات الصوفية نفسها ، تلك المصطلحات التي ترتبط باللغة العربية ارتباطاً وثيقاً . وإذا كان هناك من تشابه بين الصوفية ، وبين ما يماثلها في البيئات الأخرى ، فتفسير هذا طبيعي لا يحتاج إلى فرض الاستعارة . وذلك أنه ما دامت الحقيقة واحدة ، فإن كل العقائد السنية تتحد في جوهرها وإن اختلفت فيما تلبسه من صور .

ويجب أن لا نعطي عناية كبيرة ـ حينما نتحدث عن أصل التصوف ـ لتلك المناقشات ، التي لا تنتهي بين مؤرخي التصوف ، خاصة بتحديد الفترة الزمنية التي وجدت فيها لفظة صوفي .

فإن الشيء قد يوجد قبل اسمه الخاص ، سواء وجد تحت اسم آخر ، أو وجد ولم تكن هناك الحاجة لتسميته[1] وعلى كل حال ففيصل الحقّ في

(جونس) وقد بين « نيكلسون » . أن اطلاق الحكم بأن التصوف دخيل في الاسلام غير مقبول ، فالحق أننا نلاحظ منذ ظهور الاسلام أن الأنظار التي اختص بها متصوفة المسلمين نشأت في قلب الجماعة الاسلامية نفسها ، أثناء عكوف المسلمين على تلاوة القرآن ، والحديث وتقرئهما ، وتأثرت بما أصاب هذه الجماعة من أحداث ، وما حل بالأفراد من نوازل ، على أنه إذا كانت مادة التصوف إسلامية عربية خالصة ، فمما لا يخلو من فائدة أن نتعرف على المحسنات الأجنبية التي أدخلت عليه ، ونمت في كنفه .

(١) اشتهر هذا الاسم قبل المائتين من الهجرة ، فهو اسم محدث بعد عهد الصحابة والتابعين (ابن خلدون) .

ويقول بعض العلماء : إن هذا الاسم معروف في الملة الاسلامية من قبل ذلك ، بل يذهب بعضهم إلى أنه لفظ جاهلي ، عرفته العرب قبل ظهور الاسلام . قال « أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي » المتوفى سنة ٣٧٨ هـ (٩٨٨م) في كتاب « اللمع » في التصوف : وأما قول القائل إنه اسم محدث أحدثه البغداديون فمحال ، لأنه في وقت « الحسن البصري » كان يعرف هذا الاسم ، وكان « الحسن » قد أدرك جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ ، وروى عنهم ، وقد روي عنه أنه قال : (رأيت صوفياً في الطواف ، فأعطيته شيئاً فلم يأخذه ، وقال معي أربعة دوانيق فيكفيني ما معي) .

وروي عن « سفيان الثوري » رحمه الله أنه قال : لولا « أبو هاشم الصوفي » ما عرفت دقيق الرياء . وقد ذكر في الكتاب الذي جمع أخبار مكة ، عن «محمد بن إسحاق بن يسار »

مسألة أصل التصوف هو ما يأتي :

إن السنة ترشد في صراحة لا لبس فيها ـ إلى أن الشريعة والحقيقة ، كليهما ينبعان مباشرة من تعليمات الرسول صلوات الله وسلامه عليه . والواقع أن كل طريقة صحيحة تعتمد على (سلسلة) تصل دائماً إلى الرسول ، وإذا كانت بعض الطرق فيما بعد (استعارت) أو بتعبير أصح (تبنت) بعض التفاصيل في الطريق وإن كان التشابه هنا أيضاً يمكن أن يعزى إلى التماثل في المعارف ، وعلى الخصوص فيما يتعلق (بعلم المقاطع ، والأوزان في مختلف فروعه) فإن أهمية ذلك لا تعدو أن تكون أهمية ثانوية ، لا تمس الجوهر من قرب أو من بعد والحق أن التصوف عربي إسلامي كما أن القرآن ـ الذي يستمد التصوف أصوله منه مباشرة ـ عربي إسلامي . وإذا كان التصوف يستمد أصوله من القرآن ، فمن الطبيعي ألا يوجد قبل أن يفهم القرآن ويفسر ويتدبر تدبراً تنفجر عنه ينابيع (الحقائق) التي هي في الواقع معناه العميق . ولقد فسر القرآن أولا لغوياً ، ومنطقياً ، وكلامياً ، ولكن تفسيره صوفياً اقتضى مرور زمن لتأمله في عمق وشمول . وإذا كان القرآن مصدر الشريعة والحقيقة معاً ، فلا يوجد بينهما تناقض أو اختلاف ما . وكيف يوجد الاختلاف ومصدرهما واحد ؟ وكيف يوجد الاختلاف والحقيقة لا تقوم إلا على الشريعة في أساسها وفي سندها ؟

وعن غيره يذكر فيه حديثاً : أن قبل الاسلام قد خلت مكة في وقت من الأوقات ، حتى كان لا يطوف بالبيت أحد ، وكان يجيء من بلد بعيد رجل صوفي فيطوف بالبيت ، وينصرف ، فإن صح ذلك فإنه يدل على أنه ، قبل الاسلام كان يعرف هذا الاسم . وكان ينسب إلى أهل الفضل ، والصلاح والله أعلم .

ويعقب المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق على ذلك فيقول :

فاستعمال لفظ صوفي ومتصوف لم ينتشر في الاسلام ، إلا في القرن الثاني ، وما بعده سواء أكان هذا التعبير عن هذا « بالصوفي » حدث في أثناء المائة الثانية ، كما هو رأي « ابن خلدون » المتوفى عام ٨٠٦ هـ (١٤٠٦ م) في مقدمته ، أم كان لفظاً جاهلياً على ما ذكره صاحب « اللمع » الذي يحاول أن يبرىء الصوفية من انتحال اسم مبتدع ، لم يعرفه الصحابة ولا التابعون .

(عن دائرة المعارف الاسلامية : الترجمة العربية)

على أنه يجب ملاحظة أن التصوف الاسلامي ـ خلافاً للفكرة الشائعة حالياً عند الغربيين ـ لا يمت بأية صلة ، إلى ما يزعمون أنه تصوف مسيحي : أعني ذلك النوع الذي يطلق عليه : « الميستيسيسم » . أما أسباب ذلك فإنها سهلة الفهم وقد تضمنها ما سبق من حديثنا وهي .

١ ـ يبدو واضحاً أن الميستيسيسم شيء خاص بالمسيحية . وإنه لتشبيه قائم على ضلال ، ذلك الذي يستندون إليه في ادعاء وجود ما يماثل الميستيسيسم في الأوساط التي لا تعتنق المسيحية .

ولا شك في أن هذا الفهم الخاطىء يرتكز على شيء من التشابه الخارجي الذي يتمثل في استعمال بعض التعبيرات . ولكن هذا لا يبرر قط دعوى التشابه ، وذلك لأن الفروق الجوهرية تفجأ النظر ولا تدع مجالا : الميستيسيسم خاص بالمسيحية إذن .

٢ ـ ثم إنه جزء من الشريعة ، إنه من قسم الظاهر ، وهدفه بعيد كل البعد عن أن يكون المعرفة المحضة بينما التصوف على خلاف ذلك .

٣ ـ ثم إن المسيحي الذي اتخذ الميستيسيسم سبيلا في الحياة ينهج في سلوكه منهجاً سلبياً . إنه يقتصر على تلقي ما يأتيه دون أن يكون له أثر شخصي ، إنه لا طريقة له إذن يسلكها ، هادفاً من وراء سلوكها إلى بلوغ غاية معينة .

ومن أجل هذا لم يكن في المسيحية طرق صوفية . ولذلك لا يتخذ المسيحي (شيخاً) وليس عنده فكرة عن السلسلة ، أو الاسناد ، الذي

بواسطته يصَل إليه التأثير الروحي ، الذي لا بد منه في التصوف .

٤ ـ والاختلاف في الهدف أيضاً واضح : فهدف التصوف المعرفة ، وهدف الميستيسيسم الحب ، والنتيجة الحتمية من كل ما سبق هي أن التصوف والميستيسيسم مختلفان كل الاختلاف :

بل إن اللغة العربية لا تشتمل على أية كلمة تترجم ـ ولو تقريبياً ـ كلمة ميستيسيسم : ذلك أن الفكرة التي تعبر عنها هذه الكلمة غريبة كل الغرابة عن السنة الاسلامية .

علوم التصوّف

إن التصوف في جوهره معرفة في محيط ما وراء الطبيعة ، على أن التصوف وإن كان « معرفة » عليا ، فإن بعض العلوم يتصل به اتصالا وثيقاً ، بل إنها ليست إلا تطبيقاً لبعض جوانبه ، وهذا مما يميّزه أيضاً عن الميستيسيسم : من هذه العلوم علم الفلك القديم ، وهو ليس « تنجيماً » كما يعتقد الباحثون الحديثون ، وإنما يتعلق بمعرفة أسمى وأعمق . وكذلك الأمر في الكيمياء القديمة : إنها ليست استخراج الذهب الحقيقي ، وإنما كانت رمزاً لمعرفة لا صلة لها بالمادة ، وليس لها بالكيمياء الحديثة أي ارتباط ، أو تشابه . إن الباحثين الحديثين لا يعرفون عن المعنى الحقيقي لهذين العلمين شيئاً ، على أن هناك علوماً أخرى ، لا يعرف عنها متفلسفة العصر الحديث إلا اسمها ، مع أنها كانت من الدقة بحيث تبلغ درجة العلوم الرياضية .

الفصل الثاني

التصوف والمعرفة

- البحث العقلي فيما وراء الطبيعة عبث
- في وسيلة المعرفة
- التصوف والشك
- الشك ومدارج السالكين
- الإمام الغزالي يرسم طريق المعرفة
- مشكلة المعرفة والصوفية

مِنْ شُرُوطِ التَصَوّف

ولا بد في التصوف من شرط جوهري ، هو « التأثير الروحي » أو بتعبير أدق ، « البركة » وهي لا تتأتى إلا بواسطة « شيخ[1] » ، ومن هنا كانت السلسلة . وهل السلسلة إلا بركات ، تنتقل من شيخ الى مريد ، يوشك أن يصبح شيخاً ، فيؤثر بدوره في مريد أو مريدين ؟

ونختم هذه الكلمة بملاحظة جوهرية ، تتعلق بطبيعة التصوف ، وهي أن

---

(١) يجب على المريد ان يتأدب بشيخ ، فإن لم يكن له أستاذ ، لا يفلح أبداً . هذا « أبو يزيد » يقول : من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان . وسمعت الأستاذ « أبا علي الدقاق » يقول : الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس ، فإنها تورق . لكن لا تثمر ، كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يأخذ منه طريقته ، نفساً فنفساً . فهو عابد هواه لا يجد نفاذاً .

« الرسالة القشيرية ص ١٩٩ »

ويشترط الامام « الرازي » في الشيخ أن يكون مخلصاً صادقاً ، قد انتهج الصراط المستقيم ، وأن يكون سالكاً ، اما السالك ، فلأن الوصول تارة بالجذبة ، على ما قال عليه السلام : « جذبة من جذبات الحق ، توازي عمل الثقلين » وأخرى بالسلوك . والأول لا يصح أن يقتدى به ، لأنه مثل من وجد كنزاً فصار غنياً ، فإنه وإن كان ذا مال ، لكنه غير عالم بكيفية اكتساب المال ، فلا ينتفع به التلميذ الطالب لتعلم كيفية الاكتساب ،وأما الثاني فهو الذي يصلح لتربية المريد ؛ لأن من سلك الطريق ، وعرف مراحلها ، ومنازلها ، واطلع على متالفها ومعاطبها ، أمكنة إرشاد الغير إلى سواء السبيل ، والاخبار عن كيفية تلك الأحوال على التفصيل » .

(شرح الارشادات ١١٢)

التصوف ليس عملا علمياً ، ولا بحثاً نظرياً ، إنه لا يتعلم بواسطة الكتب[1] على الطريقة المدرسية ، بل إن ما كتبه كبار مشايخ الصوفية أنفسهم لا يستخدم إلا كحافز مقوٍّ للتأمل ، والانسان لا يصير بمجرد قراءته ، متصوفاً ، على أن ما كتبه كبار الصوفية لا يفهمه إلا من كان أهلا لفهمه ، ولأجل أن يسير الانسان في طريق التصوف لا بد له من :

---

(١) من كلام الامام « الغزالي » في المنقذ من الضلال :

« ثم إني فرغت من هذه العلوم ، أقبلت بهمتي على طريق الصوفية ، وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل » .

وكان حاصل عملهم قطعهم عقبات النفس ، والتنزه عن أخلاقها المذمومة ، وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى ، وتحليته بذكر الله .

وكان العلم أيسر عليّ من العمل ، فابتدأت بتحصيل علمهم ، من مطالعة كتبهم مثل : « قوت القلوب » لأبي طالب المكي ـ رحمه الله ـ وكتب « الحارث المحاسبي » ، والمتفرقات المأثورة عن « الجنيد » ، و « الشبلي » ، و « أبي يزيد البسطامي » قدس الله أرواحهم ، وغير ذلك من كلام مشايخهم ، حتى اطلعت على كنه : مقاصدهم العلمية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم ، بالتعليم والسماع .

فظهر لي أن أخص خواصهم ، ما لا يمكن الوصول إليه بالتعليم ، بل بالذوق والحال ، وتبدل الصفات .

وكم من الفرق بين أن يعلم حد الصحة ، وحد الشبع ، وأسبابهما وشروطهما ، وبين أن يكون صحيحاً وشبعان ، وبين أن يعرف حد السكر ، وأنه عبارة عن حالة تحصل من استيلاء أبخرة تتصاعد من المعدة على الفكر ، وبين ان يكون سكران .

بل السكران لا يعرف حد السكر وعلمه ، وهو سكران ، وما معه من علمه شيء .
والصاحي يعرف حد السكر ، وأركانه ، وما معه من السكر شيء .
والطبيب في حالة المرض يعرف حد الصحة ، وأسبابها ، وأدويتها ، وهو فاقد الصحة .
كذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطها ، وأسبابها ، وبين أن يكون حالك الزهد . وعزوف النفس عن الدنيا ، فعلمت يقيناً أنهم أرباب الأحوال ، لا أصحاب الأقوال ؛ وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته ؛ ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم ؛ بل بالذوق والسلوك . (المنقذ من الضلال)

١ ـ استعداد فطري خاص [1] ، لا يغني عنه اجتهاد أو كسب

٢ ـ الانتسا الى « سلسلة » صحيحة ، إذ ان « البركة » التي تحصل من الانتساب إلى السلسلة الصحيحة هي الشرط الأساسي الذي لا يصل الانسان بدونه إلى درجة من درجات التصوف حتى البدائية منها .

٣ ـ ثم يأخذ المتصوف ، الطيب الفطرة ، الذي باركه شيخه : في الجهاد الأكبر ، التأمل الروحي ، وفي الذكر : أي استحضار الله في كل ما يأتي وما يدع ، وفي تركيز الذهن في الملأ الأعلى ، فيصل موفقاً من درجة ، إلى درجة ، حتى يصل إلى أعلى الدرجات ، وهي حالة تسمو على حدود الوجود المؤقت ، فيصبح ربانيا . ذلك هو الصوفي الحقيقي .

---

(١) يرى الامام « الرازي » أنه لا بد ـ لتكون الرياضة نافعة ـ أن تكون نفس المريد : (مستعدة لهذا الحديث . ملائمة له : إذ لو لم يكن كذلك ، ما نجحت فيه الرياضة أصلا : لأن تأثير الرياضة ليس إلا في إزالة العوائق ، ورفع الحجب والأستار . وزوال العائق ، لا يكفي في حصول المطلوب ، بل لا بد معه من القابل المستعد ، فاذا لم تكن النفس مستعدة لم تفد الرياضة سعادة أصلا ، لكنها تفيد السلامة) .

(شرح الاشارات ص ١١٢)

مَقَاماتُ الوُصُولِ

وحينما يقطع الانسان الطريق يصل إلى الولاية :

والولي : إما أن يمكث وليا فقط ، فتكون معرفته خاصة ، أو يختاره الله لتأدية رسالة إلى الأخرين ، فيكون نبيا ، أو يكون رسولا .

والرسول نبي ولكن رسالته تأخذ صبغة عالمية . أما رسالة النبي فإنها محددة الأهداف محدودة المكان . ان الرسول مظهر الصفة الالهية « الرحمن » في جميع أنحاء العالمين . إنه « رحمة للعالمين » فلا تقتصر رسالته على دائرة خاصة .

ولا شك أن النبوة أسمى من الولاية ، ومع ذلك فقد رأى بعضهم أن مقام الولي « القرب » من الله بينما النبي متجه ، بطبيعة رسالته إلى الخلق ، ولكن ذلك خطأ محض ، فإن النبوة تتضمن الولاية ، فهي متضمنة لمقام القرب ، ثم إنها أكثر من الولاية ، وعلى ذلك فإن حالة الولي « ناقصة » بالنسبة لحالة النبي ، إنها ليست قاصرة بالنسبة لطبيعتها الخاصة ، ولكنها قاصرة بالنسبة لدرجتها في العموم . وهذا العموم يصل إلى درجات ازدهاره في الرسالة : إذ هي عالمية ، والرسول لا غيره ـ هو حقيقة « الانسان العالمي » .

وللرسول ـ كما للنبي ـ اتجاهان :

١ ـ اتجاه داخلي : إنه الاتجاه نحو الحق .

٢ ـ اتجاه خارجي : إنه الاتجاه نحو الخلق .

ودرجة الرسول العالمية أسمى من درجة النبي المحددة ودرجة النبي المحدودة ، أسمى من درجة الولي الخاصة ، ومقام الجميع القرب .

الفصل الثالث

التصوف والشريعة

- التصوف والتحلل من الشريعة
- وحدة الوجود
- السجود للأوامر الإلهية كمظهر للتدين السليم والتصوف الصحيح

-١-

التصوف والتحلل من الشريعة الإسلامية

- ١ -

في كل ميدان من الميادين نجد الأدعياء ، نجدهم في الميدان الديني ، وفي الميدان السياسي ، وفي الميدان العلمي ، ونجدهم كذلك في ميدان التصوف .

وهدف هؤلاء الأدعياء معروف : إنه الاستفادة المادية من أقصر الطرق . وكما لا يضر الدين ، ولا يضر العلم . أن ينتسب إليه الأدعياء المزيفون . فكذلك الأمر فيما يتعلق بالتصوف .

وكما أن للدين وللعلم حقائق معروفة ، وسمات معينة ، وحدوداً من شأنها أن تظهر زيف المزيفين ، وباطل المبطلين ، فكذلك الأمر في الجانب الصوفي .

نقول هذا بمناسبة ما سمعناه ـ حديثا ـ عن بدعة ضالة ، أخذت تتسرب الى بعض النفوس ، التي لم تتعمق في الجانب الديني ، عموما ، ولا في الجانب الصوفي خصوصاً .

هذه البدعة ترى : أن الشخص الذي وصل الى مرتبة معينة من المعرفة ، تسقط عنه التكاليف الشرعية ، فليس عليه صلاة ، ولا زكاة ، ولا حج . ولا غير ذلك مما يلتزمه المسلمون !

ومن المؤسف أن تكون هذه الفكرة قد نشأت أول ما نشأت ، في العصر الحاضر ـ بين رجال درسوا القانون والتشريع . يزعمون أنهم وصلوا إلى درجة من المعرفة الصوفية العليا ، وإلى حد لا تجب عليهم فيه التكاليف الشرعية .

وإذا بحثت عن مصدر هذه المعرفة التي وصلتهم ، فسترى عجبا عجابا ، ستعلم أن مصدر هذه المعرفة إنما هو الأرواح التي يستحضرونها ، فتلبس ـ فيما يزعمون ـ جسم الوسيط وتتقمصه ، وتكشف لهم عن الغيب ، من أزله إلى أبده ، ومن بدايته الى نهايته ، ومن مشرقه إلى مغربه !! .

وقد انتشرت بدعة تحضير الأرواح في وسطهم ، يتحدثون عنها مصبحين ، وممسين ، حتى لقد أصبحت دينهم ، الذي لا يدينون بغيره ، ولا يتلقون الوحي عن سواه ، وأصبحت كلمة الأرواح عندهم ، تحل محل القرآن الكريم ، والسنة المطهرة .

ومن الغريب أنهم يدعون انتسابهم إلى التصوف ، ويزعمون أنهم من كبار الصوفية ، ومن أساطين العارفين ، ومن عباقرة الملهمين .

وقد بلغ الأمر بأحدهم أن زعم ، في فترة من الفترات ، أنه من كبار الأولياء ، ثم لم يكفه ذلك ، فزعم أنه رسول ملهم ، ثم تجاوز ذلك إلى أنه « عيسى » عليه السلام ، ثم كان فيما بعد « محمداً » ﷺ ، ثم تخلص من البشرية جملة ، فزعم لأخصائه ان الألوهية جلت فيه ، والأرواح التي يستحضرها ، تؤيده في كل ما يزعم ، ولا ترى هذه الأرواح ـ كما لا يرى هو ـ في ذلك شذوذاً ، ولا تناقضاً ، وصدق الله تعالى ، إذ يقول فيه وفي أمثاله ممن يتصلون بالجن ، وينحرفون عن سواء السبيل .

(وأنَّهُ كانَ رِجالٌ مِن الانس يَعوذونَ برجالٍ مِن الجِنّ فزَادُوهُم رَهقاً) .

ولعلك تتساءل : هل بين تحضير الأرواح والتصوف من صلة ؟
وجواب رجال التصوف في ذلك حاسم قاطع :

ليس هناك من صلة بين تحضير الأرواح والتصوف ، اللهم إلا إذا كانت هناك صلة بين المتناقضات .

إن رجال التصوف يعتبرون تحضير الأرواح عملة زائفة ، لأنها تعامل مع الجن والشياطين !! ويتذكرون في هذه المناسبات قول الله تعالى :

(هلْ أنبئُكُمْ علىَ مَنْ تَنَزَّلُ الشياطينُ ؟ تَنَزَّلُ على كُلِّ أفاكٍ أثيمٍ ، يُلْقُونَ السَّمْعَ ، وأكثرُهُمْ كاذبونَ) .

وقوله تعالى :

(وَمَنْ يَعشُ عَنْ ذِكر الرحمنِ ، نُقَيِّضْ لهُ شَيْطاناً ، فَهُوَ لهُ قَرينٌ . وَإنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبيلِ ، ويَحسَبونَ أنَّهُمْ مُهْتَدونَ) .

وليس من غرضنا هنا أن نتحدث عن تحضير الأرواح ، كظاهرة خداعة ، وليس من غرضنا أن نتحدث عن التهريج والزيف ، والضلال والانحراف ، الذي يسود الأوساط التي تعمل على ترويجه ، وليس من همنا ، أن نبين نشأتها التاريخية في العرب ، وبين الأوساط اليهودية التي روّجت لها ، وأنفقت في سبيل نشرها الأموال الطائلة : لأغراض وأهداف يعرفها المحيطون بسر انتشار هذه الدعوة : « تحضير الأرواح » .

إن غرضنا الآن : إنما هو بيان موقف الصوفية من مسألة : « اسقاط التكاليف الشرعية » ، وهي مسألة لم يبتدعها من يزعمون التصوف في العصر الحديث ، وليس لهم حتى فضل السبق في الباطل ، إن كان السبق في الباطل له فضل .

إنها ضلالة قديمة ، نشأت في أوساط متحللة ، انتسبت إلى التصوف انتساباً باطلا ، وحاربها ممثلو التصوف في كل عصر ، وفي كل بيئة .

ومما لا شك فيه أن القول الفصل في كل مشكلة من المشكلات ، إنما يرجع فيه الى الذين يمثلون الموضوع ، الذي تنتسب إليه المشكلة ، وإذا رجعنا إلى زعماء التصوف الذين لا يختلف في زعامتهم اثنان ، نجدهم ـ سواء في ذلك القدماء منهم والمحدثون ـ ينكرون الفكرة ـ إنكارا تاما ، ويرونها زيفا ، وضلالا ، وانسلاخا عن الدين بالكلية .

وسنتحدث عن آراء بعض القدماء في هذا الموضوع ، ثم نفصل ، نوعا ما ، رأي الشيخ « عبد الواحد يحيى » وهو زعيم علم ، من زعماء الصوفية في العصر الحديث .

قال « أبو يزيد البسطامي » لأحد جلسائه :

« قم بنا حتى ننظر إلى هذا الرجل ، الذي قد شهر نفسه بالولاية ـ وكان رجلا مشهوراً بالزهد ـ فمضينا إليه ، فلما خرج من بيته ودخل المسجد ، رمى ببصاقة تجاه القبلة ، فانصرف « أبو يزيد » ولم يسلم عليه ، وقال : « هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فكيف يكون مأموناً على ما يدعيه ؟! » .

ومن كلام « أبي يزيد » .

« لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات ، حتى يرقى في الهواء فلا تغتروا به ، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي ، وحفظ الحدود ، وأداء الشريعة ؟» .

ويقول « سهل التستري » معبراً عن أصول التصوف . « أصول طريقنا سبعة : التمسك بالكتاب ، والاقتداء بالسنة ، وأكل الحلال ، وكف الأذى وتجنب المعاصي ، ولزوم التوبة ، وأداء الحقوق » .

ويقول « الجنيد » ـ سيد هذه الطائفة ، وإمامهم ـ على حد تعبير ـ « القشيري » .

« من لم يحفظ القرآن ، ولم يكتب الحديث ، لا يقتدى به في هذا الأمر ، لأن علمنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة » .

وقال :

« علمنا هذا مشيد بحديث رسول الله ﷺ » .

وقال :

« الطرق كلها مسدودة على الخلق ، إلا على من اقتفى اثر الرسول عليه الصلاة والسلام ، واتبع سنته ، ولزم طريقته » .

وذكر رجل المعرفة امام « الجنيد » وقال :

« اهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى

الله عز وجل ».

فقال « الجنيد »:

« إن هذا قول قوم تكلموا باسقاط الأعمال ، وهو عندي عظيمة ، والذي يسرق ويزني أحسن حالا من الذي يقول هذا ».

فإذا ما وصلنا إلى الامام « الغزالي » فإننا نجده يقول ، في شيء من التفصيل ، فيه دقة ، وفيه استدلال غاية في القوة :

« وأعلم أن سالك سبيل الله تعالى قليل ، والمدعي فيه كثير ، ونحن نعرفك علامة له :

وذلك : أن تكون جميع افعاله الاختيارية موزونة بميزان الشرع ، موقوفة على توقيفاته ، إيراداً واصداراً ، واقداماً واحجاماً ، إذ لا يمكن سلوك هذا السبيل الا بعد التلبس بمكارم الشريعة كلها ، ولا يصل فيه الا من واظب على جملة من النوافل ، فكيف يصل اليه من اهمل الفرائض ؟!

فإن قلت : فهل تنتهي رتبة السالك إلى الحد الذي ينحط عنه فيه بعض وظائف العبادات ، ولا يضره بعض المحظورات ، كما نقل عن بعض المشايخ من التساهل في هذه الأمور .

وأقول لك : اعلم أن هذا عين الغرور ، وإن المحققين قالوا :

« ولو رأيت انساناً يطير في الهواء ، ويمشي على الماء ، وهو يتعاطى امراً يخالف الشرع ، فاعلم أنه شيطان . . ». وهو الحق .

فإذا ما انتهينا أخيراً إلى « أبي الحسن الشاذلي » رضي الله عنه ، فإننا نجده يقول :

« إذا تعارض كشفك مع الكتاب والسنة ، فتمسك بالكتاب والسنة ، ودع الكشف وقل لنفسك : ان الله تعالى ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة ولم يضمنها في جانب الكشف ، ولا الالهام ، ولا المشاهدة ، الا بعد عرضها على الكتاب والسنة ».

والصوفية يتبعون في كل هذا ، النصوص القرآنية والسنة القولية والعملية للرسولﷺ ، وهم يعلمون ـ لا شك ـ البديهات التاريخية من أن الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، كان المثل الأعلى في أداء الشعائر ، الى آخر لحظة من حياته الظاهرة .

هذا رأي القدماء ، وخير ما نختمه به انما هو الحديث النبوي الكريم . « وسئل النبيﷺ ، عن قوم تركوا العمل بالدين ، وأحسنوا الظن في الله فقال : « كذبوا ، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل » .

التصوف والتحلل من الشريعة الاسلامية

ـ ٢ ـ

« رأي المرحوم الشيخ عبد الواحد يحيى »[1]

يبدو أن كثيراً من الناس يشكون في ضرورة التزام الشريعة لمن يريد أن يسلك السلوك الصوفي . وهذا في الواقع استعداد نفسي ، لا يوجد إلا في الغرب الحديث .

ولا شك في أن أسباب ذلك متعددة ، ولا يعنينا هنا البحث في مدى المسؤولية التي تقع على عاتق رجال الدين أنفسهم ، الذين يميلون إلى إنكار كل ما يتجاوز حدود الشريعة في مظهرها الحرفي ، فليس ذلك جوهر بحثنا هنا .

بيد أنه من المدهش أن بعض من يزعمون الانتساب إلى التصوف ، يقعون فيما وقع فيه رجال الشريعة ، وإن كان بطريقة عكسية ؛ ذلك أنهم ينكرون ضرورة الشريعة ، او يهملون العمل بها .

---

(١) الشيخ « عبد الواحد يحيى » من كبار المفكرين العالميين ، نشأ في فرنسا كاثوليكياً ، وانتهى به البحث إلى اعتناق الاسلام ، والأخذ بالتصوف ، ومارس التصوف نظرياً وعملياً ، حتى ليعد من أكبر الحكماء في العصر الحديث .

وقد توفي بالقاهرة منذ سنوات .

وترجمت كتبه إلى اللغات الحية .

وأثره في الغرب كبير ، إلى درجة أن كثيراً من الجمعيات في أوربا كونت باسمه ، لتتابع أثره وتحذو حذوه .

وهو في هذه الكلمة يكتب عن تجربة ، وخبرة وممارسة ، لا عن وجهة نظرية فحسب .

وقد يكون من المحتمل أن نرى أحد ممثلي الشريعة يجهل التصوف ، وإن كان جهله لا يبرر انكاره ؛ ولكن ليس من المحتمل ، وليس من الطبيعي أن يجهل رجل التصوف ميدان الشريعة ، ولو من جانبها العملي ؛ ذلك أن الأكثر ، وهو : « التصوف » يتضمن بالضرورة الأقل ، وهو : « الشريعة ».

على أن نظرة من يريد أن يسلك السلوك الصوفي ، الى الشريعة ، ومن حيث عدم أهميتها ، وعلى الخصوص ، أهمية الجانب العملي بالنسبة له . . هذه النظرة تتضمن ولو نظرياً تقليل من أهمية الجانب العملي في التصوف نفسه . وفي هذا الخطورة كل الخطورة ، فانه من المشكوك فيه كثيراً ، أن يتوفر للشخص الذي عنده هذه الفكرة ، الاستعداد الصوفي ، ومن الخير له ان يلتزم الشريعة التزاماً كلياً ، قبل أن يبدأ السلوك ، فإذا لم يمكنه التزامها فلا خير فيه ، بالنسبة للجانب الصوفي .

إن تقليل شأن الشريعة : انما هو مظهر من مظاهر الروح التي لا تبالي بما أنزل الله . واعادة تكون الروح الخاضعة لما أنزل الله ، هو أول خطوة في طريق السالكين .

وتجاهل الناحية العملية : انما هو سمة من سمات الغرب الحديث على الخصوص ؛ ومن الطبيعي أن يقوم الجو الدنيوي الذي يعيش فيه الغربيون عقبة في سبيل فهمهم للجانب العملي من الشريعة ، وممارستهم له ، بيد أن مقاومتهم لهذا الجو الدنيوي ، هو بالضبط العلاج لانحرافهم هذا ، وهو السبيل الى عودتهم إلى النهج المستقيم ، أعني التزام الشريعة .

قلنا : إن الاتجاه النفسي الذي نتحدث عنه هنا : إنما هو سمة من سمات الغرب الحديث ، وفي الواقع لا يمكن أن يوجدها هذا الاتجاه في الشرق ، ذلك أن الروح الدينية الصحيحة لا تزال مسيطرة في بيئاته .

ثم ان الشريعة والحقيقة متصلتان اتصالا يجعل منهما مظهرين لشيء واحد ، احدهما خارجي ، والآخر داخلي ، او احدهما ظاهر ، والآخر باطن .

لذلك كان ما يوجد في الغرب الآن من جماعات تدعى أنها على النهج

الصوفي ، وهي مع ذلك لا ترتكز على أية شريعة الهية مجرد خداع ، ومن البديهي أن هذه الجماعات ـ ومن وجهة النظر الصوفية الصحيحة ـ ليست على شيء .

ولشرح الأشياء بابسط الطرق نقول :

إن الانسان لا يشيد القصر في الهواء ، انه لا يشيده على غير أساس ، وكل فكرة لا ترتكز على أساس من السنة الصحيحة : إنما هي بناء في الهواء ، إنها بناء على غير أساس .

والبناء الذي يمكن أن يبقى على الدهر لا بد له من أساس مدعم ، وعلى الأساس يرتكز البناء كله ، حتى الاجزاء العليا منه ، والارتكاز على الأساس يستمر حتى بعد انتهاء البناء .

وعلى هذا النمط تكون النسبة بين الشريعة والتصوف ، فالشريعة الصحيحة هي الأساس ، الذي لا بد منه لكل سالك ، وكالأساس تماما ، لا يمكن طرح الشريعة بعد سلوك الطريق .

بل نقول أكثر من ذلك : إنه كلما سار التصوف في طريقه ، واستغرق فيه ، بدت له ضرورة الشريعة ، واستنارت معرفته بها . واصبح فهمه لها اكثر عمقا ، واكثر دراية بحقيقتها ، من هؤلاء الذين درسوها وآمنوا بها ، دون أن يضربوا بسهم في الميدان الصوفي ، ذلك أنهم لا يرون من الشريعة الا مظهرها الخارجي ولكن الصوفي يعيش في جوها الروحي ، ويحياها ، إذا أمكن هذا التعبير .

على أن هذا الذي لا يعتنق شريعة صحيحة ، ولا يلتزمها ، لا يمكن أن يحيا إلا حياة دنيوية بحتة ، فلا يمكن أن يطلق عليه رجل دين ، فضلا عن أن يطلق عليه وصف الصوفي .

على أن الغربيين الذين يجعلون الدين بمعزل عن نشاطهم اليومي ، كما هو شأن الأكثرية الساحقة منهم ، لا يمكن ان يوصفوا بأنهم متدينون ، وإن آمنوا « بعيسى » وأدوا الشعائر الكنسية .

وإذا كان لا يقبل من رجل الدين أن يعلن تدينه ، دون أن يجعل للشريعة

السيطرة على قياده ، فإنه لا يقبل ـ من باب أولى ـ من رجل التصوف أن يزعم انتسابه إلى الصوفية ، دون أن تسيطر شعائر الدين والتزاماته على حياته .

وهناك ، لا شك ، نوعان من الحياة : حياة دينية ، وحياة دنيوية . ومع ذلك فالفرق بينهما إنما هو من جهة ما تصطبغ به فكرة الانسان عن الأعمال التي يؤديها .

أريد أن أقول : إن الأعمال في نفسها لا توصف بأنها دينية ، أو دنيوية . وإنما يتأتى لها أحد الوصفين بسبب سيطرة الفكرة الدينية عند القائم بهذه الأعمال ، أو عدم سيطرتها . وقد يكون العمل واحداً في نوعه ، ويؤديه شخصان فيوصف عند أحدهما بأنه ديني ، وعند الآخر بأنه دنيوي . فإن كان القصد « الله » فالعمل ديني ، وإن كان القصد شيئاً آخر ، فالعمل دنيوي ، والحديث الشريف يوضح هذه الفكرة كل التوضيح .

« إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه[1] » .

ومن البديهي أن الحديث في أوله عام بالنسبة لكل الأعمال ، وأن مسألة الهجرة فيه : تطبيق جزئي لقضية عامة .

وفي العصور القديمة لم يكن هناك تفرقة بين دين ودنيا ، بل لم يكن هناك مجرد الفهم . أو مجرد التخيل لفكرة الانفصال هذه وإنما نشأت هذه الفكرة حينما تدهورت الانسانية ، وانحطت شيئاً فشيئاً ، وها نحن أولاء قد وصلنا في هذا التأخر الى أن الغرب حالياً يصعب عليه كل الصعوبة أن يفهم فكرة : ضرورة سيادة الروح الدينية ، في مجتمعاته ، إنه على نهج انفصالي ، لا يوجد في الحياة السليمة .

وإننا نرى ضرورة التزام الشريعة لكل إنسان ، ولكننا نؤكد ـ ونحن على يقين من الأمر ـ لهؤلاء الذين يريدون أن يسلكوا الطريق الصوفي ، بأنهم لن يصلوا حتى إلى أولى مراحل الطريق ، إذا لم يلتزموا الشريعة التزاماً تاماً وبالله التوفيق .

---

(١) رواه « البخاري » في صحيحه .

التصوف والتحلل من الشريعة الاسلامية

- ٣ -

فتوى للامام الغزالي (١)

كتب له بعض الزائغين :

ما فوله متع الله المسلمين ببقائه ، ومتع الطالبين بمشاهدته ولقائه ، ومنحه أفضل ما منح أفضل خاصته من أصفيائه وأوليائه في فلب خصه الحق بأنواع من الطرف والهدايا ، ومنحه أصنافاً من الأنوار والعطايا . يستمر له ذلك في جميع الأوقات والأحوال ، متزايدة مع عدم العوائق والآفات .

مع كون ظاهره معموراً ، بأحكام الشرع وأدائه ، منزهاً عن مآثمه ومخالفاته ، ويجد في الباطن مكاشفات ، وأنواراً عجيبة .

ثم إنه انكشف له نوع يعرفه ، أن المقصود من التكاليف الشرعية ، والرياضات الدينية : هو الفطام عما سوى الحق ، كما فيل لـ « موسى » صلى الله عليه وسلم :

(أخل فلبك ؛ أريد أن أنزل فيه) .

فإذا تم الفطام ، وحصل المقصود بالوصول إلى القربة ، ودوام الترقي من غير فترة ، حتى إنه لو اشتغل بوظائف الشرع وظواهره ، انقطع ، عن حفظ الباطن ، وتشوش عليه بالالتفات عن أنواع الواردات الباطنية ، الى مراعاة أمر الظاهر .

---

(١) هذه الفتوى ذكرها « تاج الدين السبكي » المتوفى سنة ٧٧١ هـ في كتابه « طبقات الشافعية » وهي موجودة في كتاب « سيرة الغزالي » للأستاذ « عبد الكريم العثماني » وفي المقدمة التي كتبها الأستاذ الدكتور « سليمان دنيا » لكتاب (فيصل التفرقة) !

وهذا الرجل لا ينـزع يده من التـكليف الظاهـر ، ولا يقصـر في أحـكام الشريعة ، لكن الاعتقاد الذي كان له في الظواهـر والتـكاليف ، وتنـاقص وتقاصر ، عما كان في الابتداء من التعظيم ، لوقعها عنده ، ولكنه يباشرها ويواظب عليها عادة ، لا لأجل الخلق ، وحفظ نظرهـم ومراقبـةً الله ، بل صارت إلفاً له ، وإن نقص اعتقاده فيها ، فهو يعظمها .

ما حكمها ؟

ثم إن عرضت له شبهة :

« ان المقصود من الداعي والدعـوة ، حصـول المعرفـة والقربـة ، وإذا حصل هذا استغنى عن الداعي ، والواسطة » .

كيف معالجتها ؟

فإن قلنا : المعرفة لا تنتهي أبداً ، بل تقبل الزيادة أبداً ، فلا يستغني عن الداعي أبداً لا محالة .

فربما قال : الداعي قد بين ما احتيج إلى بيانه ، وشرح معالم الطريق ، وذهب .

فلو احتاج السالك إلى مراجعته في زوائد وايرادات ، لم تمكن المراجعة في هذه الحالة .

فيقول :

ما هو طبيب علتي في هذه الحالة ؛ لأنه غاب عن إمكان المراجعة ، فما علاجه ؟

نعم : فالجواب مسوق حسبما عود من شافي بيانه :

الجواب : وبالله التوفيق : ينبغي أن يتحقـق المـريد هنـا أن من ظن أن المقصود من التكاليف والتعبد بالفرائض : الفطام عما سوى الله ، والتجرد له ، فهو مصيب في ظنه ، أن ذلك مقصـود ، ومخطـىء في ظنـه أنـه كل المقصود ولا مقصود سواه .

بل لله تعالى في الفرائض التي استعبد بها الخلق أسرار سوى الفطـام ،

تقتصر بضاعة العقل عن دركها .

ومثل هذا الرجل المنخدع بهذا الظن ، مثل رجل بنى له أبوه قصراً على رأس جبل ، ووضع فيه شجرة من حشيش ، طيب الرائحة ، وأكد الوصية على ولده مرة بعد أخرى ، أن لا يخلي هذا القصر ، عن هذا الحشيش طول عمره .

وفال : إياك أن تسكن هذا القصر ساعة من ليل ، أو نهار إلا وهذا الحشيش فيه .

فزرع الولد حول القصر أنواعاً من الرياحين ، وطلب في البر والبحر اوتاداً من العود والعنبر والمسك ، وجمع في فصره جميع ذلك من شجرات كثيرة ، من الرياحين الطيبة الرائحة .

فانغمرت رائحة الحشيش لما فاحت هذه الروائح .

فقال : لا شك أن والدي ما أوصاني بحفظ هذا الحشيش الا لطيب رائحته ، والآن فد استغنينا بهذه الرياحين عن رائحته . فلا فائدة فيه الآن الا أن يضيق على المكان ، فرماه من القصر .

فلما خلا القصر من الحشيش ، ظهر من بعض نقب القصر حية هائلة ، وضربته ضربة هائلة أشرف بها على الهلاك ، فتنبه حيث لم ينفعه التنبه ـ إلى أن الحشيش كان من خاصيته دفع هذه الحية المهلكة ، وكان لأبيه بالوصية بالحشيش غرضان .

أحدهما : انتفاع الولد برائحته ، وذلك فد أدركه الولد بعقله .

والثاني اندفاع الحيات المهلكات برائحته ، وذلك مما فصر عن دركه بصيرة الولد ، فاغتر الولد بما عنده من العلم ، وظن أنه لا سر وراء معلومه ومعقوله ، كما قال تعالى :

(ذَلكَ مَبْلغُهُمْ مِنَ العلم) .

وقال: (فَلمّا جاءَتهم رُسُلُهُمْ بالبيِّنات ، فَرحوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ العلْمِ) .

والمغرور من اغتر بعقله ، فظن أن ما هو منتفٍ عن علمه ، فهو منتفٍ في

نفسه .

ولقد عرف أهل الكمال أن قلب الآدمي : كذلك القصر ، وأنه معشش حيات ، وعقارب مهلكات ، وإنما رقيتها وقيدها بطريق خاصة المكتوبات والمشروعات .

بقوله سبحانه :

(إنَّ الصَّلَاةَ كانتْ علىَ المؤمنينَ كتاباً مَوقُوتاً) .

وقوله تعالى :

(كُتِبَ عليْكُمُ الصِّيامُ) .

فكما أن الكلمات الملفوظة والمكتوبة في الرقية تؤثر بالخاصة في استخراج الحيات ، بل في استسخار الجن والشياطين .

وبعض الأدعية المنظومة المأثورة ، تؤثر في استمالة الملائكة الى السعي في إجابة الداعي ، ويقصر العقل عن إدراك كيفيته وخاصيته ، وإنما يدرك ذلك « بقوة النبوة » إذا كوشف السر بها من اللوح المحفوظ .

فكذلك صورة الصلاة المشتملة على ركوع واحد ، وسجودين ، وعدد مخصوص ، وألفاظ معينة من القرآن ، متلوة مختلفة المقادير : عند طلوع الشمس وعند الزوال ، والغروب ، تؤثر بالخاصة في تسكين التنين ، المستكن في قلب الآدمي الذي يتشعب منه حيات كبيرة الرؤوس ، بعدد أخلاق الآدمي ، يلدغه وينهشه في القبر ، متمكنا من جوهر الروح وذاته ، أشد إيلاما من لدغ مكن من القالب أولا ثم يسري أثره إلى الروح .

وإليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم :

« يسلط الله على الكافر في قبره تنين ، له تسعة وتسعون رأساً صفته كذا وكذا . . » الحديث .

ويكثر مثل هذا التنين في خلق الادمي ، ولا يقمعه إلا الفرائض المكتوبة فهي المنجية من المهلكات ، وهي أنواع كثيرة بعدد الأخلاق المذمومة .

(وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إلاّ هُو) .

* * *

فإذن في التكليف غرضان :

أدرك (هذا المغرور) أحدهما ، وغفل عن الآخر .

وقد وقع لـ « أبي حنيفة » مثل هذا الظن في الفقهيات فقال :

« أوجب الله في أربعين شاة ، شاة ، وقصد به ازالة الفقر ، والشاة آلة في الازالة ، فإذا حصل بمال آخر ، فقد حصل تمام المقصود » .

فقال « الشافعي » رضي الله عنه :

« صدقت في قولك : إن هذا مقصود ، وركب متن الخطر في حكمك بأنه لا مقصود سواه ، فيم تأمره : إذا يقال له يوم القيامة : كان لنا سر في اشراك الغير الفقير ، مع نفسه في جنس ماله ؟ كما كان من يرمي سبعة أحجار في الحج ، يؤدي بدلها خمس لآل ، أو خمس أكبر إذ لم يقبله .

وإذا جاز أن يتمحض التقييد في الحج ، وأن يتمحض المعنى المعقول ، معاملات الخلق . فلم يستحل أن يجمع المعقول والتقييد جميعاً في الزكاة ، فتكون إزالة الفقر معقولة ، والسر الآخر غير معقول » .

وزاد « أبو حنيفة » على هذا فقال :

« المقصود من « كلمة التكبير » الثناء على الله بالكبرياء ، فلا فرق بينه وبين ترجمته بكل لسان . وبين قوله « الله أعظم » .

فقال « الشافعي » :

ومم علمت : أنه لا فرق في صفات الله بين « العظمة » و« الكبرياء » مع انه تعالى يقول :

« العظمة » إزاري و« الكبرياء » ردائي ، و« الرداء » أشرف من « الازار » وهلا استنبطت مقصود « الخضوع » من « الركوع » وأفمت مقامه السجود .·.؟ .

لأنه ابلغ منه في الاستكانة .

فإن قلت : لعل لله سراً في الركوع خاصة ، سوى ما فهمناه .

فلم يستحيل أن يكون له سر في كلمة « السلام » فلا يقوم مقامه « الحديث » وكل خطاب للآدمي ، وأن يكون له سر في القرآن المعجز ، ولا يقوم مقامه غيره وقد أقام الترجمة مقامه ، وأن يكون له سر في الفاتحة ، وقد أقام مقامها سائر القرآن .

فإن كان يقول : المقصود معاني القرآن ، وتأثر القلب ، لا حروفه وأصواته ، فإنها آلات ، فهلا قال : المقصود من حركة اللسان تأثر القلب ، فليكف عن القراءة للجلوس مع الله تعالى ، على هيئة الاجلال والذكر ، والسؤال بصورة الصلاة .

***

وجميع ما ذكر « أبو حنيفة » بطلان مظنون غير مقطوع .

أما إقامة القراءة بالقلب ، مع ترك حركة اللسان ، وملازمة الذكر ، مع ترك الركوع والسجود ، وصورة الصلاة فمقطوع ببطلانها بالاجماع ، وهذا ما انجرّ به ذلك الخيال الضعيف إلى خرق الاجماع ، ومخالفة الشرع القاطع .

فإذا كان المبتدىء في المعرفة يجرد عن الصور ، ويطرح الصور فيطفىء نور معرفته نور ورعة ، فيثور عليه التنين في قبره ، فيتعجب منه ، ويبدو له من الله ما لم يكن يحتسب ، فإذا أصابته ضربة التنين قال : ما هذا ؟ فيقال : إنما كان ترياق هذا التنين صور الفرائض المكتوبة ، واليه الاشارة بما يروى :

« إن الميت يوضع في قبره : فتأتيه ملائكة العذاب من وجهة رأسه ، فيدفعها القرآن ، فتأتيه من جهة رجليه فيدفعها الحج » . الحديث .

فإن أصر هذا المغرور على جهالته ، وقال : من بلغ رتبة الكمال ، كما بلغت أمن هذا التنين ، وطهر باطنه عنه ، فيقال له : إنك مغرور في أمتك :

(فإنَّهُ لا يأمَنُ مكْر اللهِ القَوْمُ الخاسِرُونَ » .

فسم تأمن أن يكون التنين مستكيناً في صميم الفؤاد ، استكنـان الجمـر ، تحت الرماد ، أو استكنان النار في الرماد ، وإن مات فيعود حيا فإن منبتـه ومنبعه هذا القلب الـذي هو مظنـة الشهـوات والصفـات البشـرية ، وفلـع الحشيش لا يؤمن عوده مرة أخرى ، بأن يتجدد نباته مهما كانت الأرض . معرضة لانصباب الماء اليها من منابعها .

فكذلك القلب ما دام مصباً لواردات المحسات ، والشهوات ، لـم يؤمن فيه عود النبات ، بعد الانقطاع والانبتات .

***

وتنبه على هذهِ المعرفة بالتأمل في ثلاثة أمور :

الأول : بداية حال « ابليس » وأنه كيف وصف بأنه كان معلم الملائكة ، ثم سقط عن درجة الكمال بمخالفة أمر واحد : اغتراراً بما عنده من العلم ، وغفلة عن أسرار الله في الاستبعاد ، ولـم يسقط عن درجتـه إلا بكياستـه ، وفطنته وتمسكه بمعقوله ، في كونه خيراً من آدم عليه السلام .

فننبه الخلق بهذا الرمز ، على أن البلاهة أدنى إلى الخلاص ، من فطانة بتراء ، وكياسة ناقصة .

الثاني : حال آدم عليه السلام ، وأنه لـم يخرج من الجنة إلا بركوبه نهياً واحداً ؛ ليعلم أن في ركوب النهي ابطال (اعتقاد) الكمال لخالقه .

الأمر الثالث : حال رسول الله ﷺ ، فإن هذا المغرور لعله يقول : إنه لم تسلم له رتبة الكمال .

ثم إنـه صلـى الله عليه وسلـم لم يزل يلازم الحـدود ، ويواظـب علـى المكتوبـات ، الـى آخـر أنفاسـه ، بل يزيد في فرائضـه ، وأوجـب عليه التهجد ، ولم يوجب على غيره ، وقيل له :

(يا أيُّها المزَّمِّلُ قُمِ الليلَ إلا قليلا ، نِصْفَهُ ، أو انقُصْ مِنْهُ قليلاً) .

وإنما أوجبت عليه هذه الزيادة : لأن الخزانة كلما ازداد جوهرها نفاسـة

وشرفاً . ينبغي أن يزداد حصنها إحكاماً وعلواً ، فلذلك قيل في تعليل ايجاب التهجد :

(إنّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثقيلاً ، إنَّ ناشئةَ الليل هيَ أشدُّ وطأً وأقومُ قِيلاً) فتبين له أن هذه الصلوات هي حصن الكمال ، فلا يبقى إلا به .

***

ولعلّ المغرور المعتوه يقول : إنه كان يواظب عليها إشفاقاً على الخلق ، لأجل الاقتداء ، لا لحاجته إليها في حفظ الكمال .

فيقال له :

فلم زاد عليه في التهجد وجوباً ؟

هلا قال : إن مبلغ درجة النبوة ، يستغني عما يحتاج إليه غيره ، ولو قال لقبل منه ، كما قبل منه ، أنه أحل له تسعة من النساء ، بل ما شاء ، فإنه بقوة النبوة يقوى على العدل ، مع كثرة النساء ، كما قبل من المدرس أن يأمر تلامذته بالتكرار والتسهد ليلا ، وهو ينام .

ويقول : إني بلغت درجة ، استغنيت بها عن ذلك .

وليس يترك أحد تكراره بهذه الشبهة .

ولعل هذا إذا اختاره ضحك الشيطان ، وسخر منه ، وقال له أنت أكمل من النبي ، والصديق ، وكل من واظب على الفرائض ، وعند هذا يقطع الطمع من صلاحه فهو ممن قيل فيهم :

(وإنْ تَدْعُهُمْ إلى الهدَى فلنْ يهتدوا إذنْ أبداً) .

« مسألة »

أما ما ذكره من أنه لو اشتغل بالتكاليف لشغله ذلك عن القربة التي نالها ، والكمال الذي بلغه، فهو كذب صريح ، ومحال فاحش قبيح ، لأن التكاليف قسمان .

أمر ونهي :

فأما المنهيات : مثل الزنا ، والسرقة ، والقتل ، والضرب ، والنميمة ، والكذب ، والقذف . .

فترك ذلك كيف يشغل عن الكمال ؟ وكيف يحجب عن القربة ؟ والكمال كيف يكون موقوفاً على ركوب هذه القاذورات ؟

وأما المأمورات : فكالزكاة ، والصوم ، والصلاة .

فكيف تحجبه الزكاة ، ولو أنفق جميع ماله ، فقد دفع السوء عن نفسه ؟

ولو صام جميع دهره ، فهل يفوته بذلك إلا سلطنة الشهوة ؟ فما الذي يفوت من الكمال بترك الأكل ضحوة النهار ، في شهر واحد ، هو رمضان !؟

وأما الصلاة فتقسم إلى :

أفعال ، وأذكار :

وأفعالها : قيام ، وركوع ، وسجود .

ولا شك في انه لا يخرج من القربة بالأفعال المعتادة ، فإن لم يصل ، فيكون إما قائماً ، أو مضطجعاً .

وغير المعتاد هو السجود والركوع ، وكيف يحجب عن القربة ، ما هو سبب القربة ؟ قال الله لنبيه ﷺ :

(واسْجُدْ وَاقْتَرِبْ) .

ومن عشق ملكا ذا جمال ، فإذا وضع وجهه على التراب بين يديه ، استكانة له ، وجد في قلبه مزيج روح ، وراحة ، وقرب .

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم :

« وجعلت قرة عيني في الصلاة » .

فاستدامة حال القربة واستزادتها : في السجود ، أيسر منه في الاضطجاع ، والقعود :

ومهما ألقي في قلبه أن السجود سبب حرمانه عن القرب ، كان ذلك أنموذجا من حال « إبليس » حيث ألقى في نفسه أن السجود بحكم الأمر ، سبب زوال قربته ، وكماله .

فكل وليّ سقط من درجة القربة ، إلى درجة اللعنة ، فسببه ترك السجود ، ومقتداه وإمامه « إبليس » .

فكل وليّ أسعد بالترقي ، إلى درجات القرب ، قيل له :

(واسْجُدْ واقْتَرِبْ) .

ومقتداه وإمامه الرسول ﷺ .

ولا ينبغي أن يتوهم الوليّ الخالص ، أنه بعيد عن خداع « إبليس » ، ما دام في هذه الحياة ، بل لا ينجو عنه الأنبياء .

. . . غير أنهم محفوظون كما قال تعالى :

(وَمَا أَرْسَلْنا من قبلِكَ مِنْ رَسُولٍ ولا نَبِيٍّ ، إلاّ إذا تَمنَّى ألقى الشَّيطانُ في أُمْنِيَّتِهِ ، فينسخُ اللهُ ما يُلقي الشَّيطانُ ، ثمَّ يُحْكِمُ اللهُ آياتِهِ ، واللهُ عليمٌ حكيمٌ) .

وأما أركان الصلاة ، فتكبير ، وفاتحة ، وركوع ، وسجود ، وتشهد ، لا فريضة الا هذا ، فما وجه الضرر في قوله :

« الله أكبر » وفي « الحمد لله » والالتجاء إليه ، واستعانته ، وطلب الهداية

إلى الصراط المستقيم ، وهذا مضمون الفاتحة .

وكل ذلك مناجاة مع الله تعالى .

وإن صح ما يقوله مثلا ، وفي كل يوم آلاف الأنفاس ، فليصرف هذه الأنفاس المعدودة إلى الذكر ، والسجود ، ولينقص هذه اللحظات من درجات كماله ، ليأمن بهذه المكتوبات عن ضرر « التنين » الذي لا يعتد بشر سواه ، ويتخلص من خطر الخطأ في هذا الاعتقاد .

ولا شك في أن الخطأ ممكن فيه ، إن لم يكن مقطوعاً به .

وإن قال : إن عزوف القلب ، إلى حفظ ترتيب الأفعال ، والأذكار ، هو الذي يشغلني عن درجة القرب ، فهو دعوى محال ، لأن الهدى لا يحتاج إلى تكلف الحفظ ، بل المشتهر غيره ، إذا حفظ شيئاً مرة ، يناسب حاله ، لم يعتبر اليقين به ، مع حفظ طريقه والحاحه ، بل يجد من نفسه في ذلك هزة ونشاطاً .

فكيف لا تكون قرة عين العبد في مناجاة محبوبه ، وخدمته ، التي رسمها ، وارتضاها له ؟ .

«مَسْـألة»
معنى ارتفاع التكليف
«عن الولي»

بل معنى ارتفاع التكليف عن الولي ، أن العبادة تصير قرة عينه ، وغذاء روحه ، بحيث لا يصبر عنه ، فلا يكون كلفة فيه[1] .

وهو كالصبي يكلف حضور المكتب ، ويحمل على ذلك قهرا ، فإذا اكتمل بالعلم . صار ذلك ألذ الأشياء عنده ، ولم يصبر عنه ، فلم يكن فيه كلفة .

وتكليف الجائع ليتناول الطعام اللذيذ ، محال : لأنه يأكله بشهوة ويتلذذ به ، فأي معنى لتكليفه ؟

فإذن تكليف الولي محال ، والتكليف مرتفع عن الولي بهذا المعنى ، لا بمعنى أنه لا يصوم ؛ ولا يصلي ، ويشرب ، ويزني .

وكما يستحيل تكليف العاشق النظر إلى معشوقه ، وتقبيل قدميه ، والتواضع له ؛ لأن ذلك منتهى شهوته ، ولذته ، فكذلك غذاء روح الولي ، في ملازمة ذكره ، وامتثال أمره ، والتواضع له بقلبه ، لا يمكنه إشراك القالب مع القلب في الخضوع ، إلا بصورة السجود ، فيكون ذلك كمالا للذة الخضوع ، والتعظيم ، حتى يشترك في الالتذاذ قلبه ، وقالبه كما قيل :

ألا فاسقني خمراً
وقل لي : هي الخمر

---

(١) وفي ذلك يقول صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم ، حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » ويقول : « نعم العبدُ صهيب ؛ لو لم يخف الله لم يعصه »..

أي ليدرك سمعي لذة اسمه ، كما أدرك ذوقي طعمه .

بل تنتهي لذة الوليّ من القيام لربه ، قانتا مناجياً ، إلى أن لا يدرك الورم في القدم .

فيقال له : ألم يغفر لك الله ما تقدم من ذنبك ، وما تأخر ؟

فيقول : أفلا أكون عبداً شكوراً ؟

« مسألة »

هل يسقط وقع العبادة من القلب بتكلف

(المواظبة عليها)

أما قولك : إنه إذا تكلف المواظبة على العبادات المشروعة ، وقد تغير اعتقاده فيها ، وسقط وقعها من قلبه ، فهل ينفعه ذلك ؟ فاعلم أنه لو لم يعتقد أنه لا فرق بين وجودها وعدمها ، في حفظ درجة الكمال والقرب ، أو دفع مهلكات الباطل ، وجوّز أن يكون لله تعالى سرٌّ فيها ، ليس يطلع عليه هو ، فعبادته صحيحة .

وإن اعتقد أنه لا فرق بين وجودها وعدمها ، وأنه لا يتصور أن يكون تحت خاصية سر ، هو لا يطلع عليه ، فعبادته باطلة .

بل إيمان بالالهية ، والنبوة ، تخيل باطل ؛ فإنه إذا لم يجوز في كمال قدرة الله تعالى سرا بعينه من الأسرار ، وخاصية من الخواص في الأعمال ، والأذكار ، فليس مؤمناً بكمال القدرة ، ويرى القدرة قاصرة على قدرة عقله ، وهو كفر صريح .

وإن جوّز ذلك ، وإن لم يكن اعتقد أنه لم يكلف به ، فهو كافر بالنبوة ، جاهل بما علم بالضرورة من الشريعة ، فإنه ، ﷺ بلغ قوله تعالى :

(إنَّ الصَّلاةَ كانتْ على المؤمِنين كِتاباً موْقوتاً) .

وفهم الصحابة ، وأهل الاجماع ، وجوب الصلاة على العموم من غير استثناء ، فإن شك في ايجاب الرسول ، فليتأمل القرآن والأخبار .

وإن شك في قدرة الله تعالى على نفسه في الأعمال ، والأذكار ، تكون الفريضة لأجله كالحصن له وجه الكمال ، وكالحراسة عليه من المهلكات الباطنة ، فليرجع إلى نفسه ، وليطالبها أنها عرفت استحالة ذلك بضرورة العقل ، أو نظره ، وأنه كيف يعتقد ذلك ، ويرى في عجائب صنع الله تعالى ما هو فرع منه ؟

حتى إن هذا الشكل المشتمل كل ضلع منه على خمسة عشرَ عدداً من حساب الجمل ، إذا أثبت رقومه على خزف ، لم يصبه ألم بشرط مخصوص .

ب	ط	د
ز	هـ	ج
و	أ	ح

ولو أعطي المرأة التي تعذرت عليها الولادة عند الطلق ، سهلت عليها الولادة .

وعرف ذلك بالتجربة ، وأنه يؤثر بخاصية تقصر عقول الأولين والاخرين عن ادراك وجه مناسبته .

ويكثر مثل هذا في عجائب الخواص .

فمن أين يستحيل أن يكون لنظم الكلمات الالهية في الفاتحة ـ مع الجمع بين أعمال جميع الملائكة من القيام ، والركوع ، والسجود والقعود ، فإن كل واحد عمل صنف من الملائكة ـ خاصية في النجاة الأخروية ، او في حفظ درجة الكمال ، والقرب ، أو دفع المهلكات الباطنة ، التي تلدغ في القلب لدغا أشد من لدغ الحيّات ، والعقارب ، أو مؤثر في سعادة الادمي بوجه آخر من الوجوه ، يقصر العقل عن إدراكه .

فمن لم يؤمن بامكان هذا ؛ فهو عديم العقل والايمان جميعاً .

« مسألة »

هل يستغني المـرء عن وسيلـة الوصـول إذا وصل

أما قوله : المقصود المعرفة ، والاستواء على طريق السير إلى الله تعالى . فقد استوى هذا السالك على الطريق ، وعرف الله ، وكان التكليف وسيلة الوصول الى هذا المقصود ، وقد وصل واستغنى عن الوسيلـة والمرشـد ، وإن احتاج فقد توفي المرشد وتعذرت مراجعته .

فهذا أيضاً يفهم جوابه مما سبق ، لأن جميع ذلك صادر عن ظنه أن ما ليس حاصلا في علمه ، فليس حاصلا في نفسه ، وهو كعجوز ظنت أن ما تخلو عنه حجرتها تخلو عنه خزانة الملك ومملكته ، وأنه ليس في العالم سماء إلا سقف بيتها . ولا أرض الا عرصة بيتها .

وهذا جهل عظيم ، فإن جميع ما وصل إليه الأولياء بالاضافة الى مقدورات الله تعالى ، أقل من قطرة في بحر ، وإن سلم له وصوله درجـة الكمـال ، فيجوز أن تكون صورة الصلوات الخمس بطريقة الخاصية ، سبباً للترقـي إلى درجات الكمال التي نالها ، أو يكون سبباً لبقاء الكمال ، أو دوامه ، أو يكون لرسوخه ، حتى لا يتزلزل في سكرات الموت .

فإن لم يواظب عليها ، فعساه أن يودعه الكمال عند الموت ، ويقال له : إنه إنما كان يثبت هذا إذا عصفت رياح الموت بالمسامير ، الخمس ، التي هي المكتوبات ، وكان يستحكم بها . فلمـا خلا من المسـامير ، تزعـزع وانقطع : فقد خبت وخسرت إذا فرحت بما عندك من العلم ، وسيقال لكم يوم القيامة : معاشر أهل الاباحة .

(ما سَلَكَكُم في سَقَر ؟) .

فتقولون :

(لَمْ نَكُ مِنَ المُصَلِّينَ) .

فعلاج هذا المغرور ، الضعيف العقل ، المريض القلب ، أن يتأمل هذه الأمور ، ويجوز الخطأ على نفسه . والسلام .

- ٣ -

وحدة الوجود

١ ـ نريد أن نبدأ مباشرة بملاحظة تزيل ـ بصورة متوقعة ـ حدة المناقشة في هذا الموضوع ، وذلك أننا بصدد « وحدة الوجود » ولسنا بصدد وحدة الموجود .

والموجود متعدد : سماء ، وأرض ، جبال ، وبحار ، أشجار وأناسي الخ ، وهو مختلف صلابة وهشاشة ، لوناً ورائحة وطعماً ، متفاوت ثقلا وخفة الخ .

ولم يقل أحد من الصوفيين الحقيقيين ـ ومنهم « ابن عربي » و « الحلاج » بوحدة الموجود .

وما كان لمؤمن ، أن يقول بوحدة الموجود ، وما كان للصوفية ـ وهم الذروة من المؤمنين ـ أن يقولوا ـ وحاشاهم ـ بوحدة الموجود .

وقد تتساءل : من أين إذن أتت الفكرة الخاطئة التي يعتقدها كثير من الناس : من أن الصوفية يقولون بوحدة الموجود ؟

وتفسير ذلك لا عسر فيه : إن فريقاً من الفلاسفة في الأزمنة القديمة ، وفي الأزمنة الحديثة ، يقولون بوحدة الموجود ، بمعنى أن الله ـ سبحانه وتعالى عن إفكهم ـ هو والمخلوقات شيء واحد .

قال بذلك « هيراقليطس » في العهد اليوناني : رالله عنده نهار وليل ، صيف وشتاء ، وفرة وقلة ، جامد وسائل ، أنه ـ على حد تعبيره ـ كالنار المعطرة تسمى باسم العطر الذي يفوح منها ، تقدس سبحانه وتنزه عما يقول :

والله سبحانه وتعالى ، في رأي « شلي » ، في العصور الحديثة ، هو هذه

البسمة الجميلة على شفتي طفل جميل باسم ، وهوهذه النسائم العليلة التي تنعشنا ساعة الأصيل ، وهو هذه الاشراقة المتألقة بالنجم الهادي ، في ظلمات الليل ، وهو هذه الورود اليانعة ، تتفتح وكأنها ابتسامات شفاه جميلة : إنه الجمال أينما وجد ؛ أيضاً ـ سبحانه وتعالى ـ القبح أينما كان : وكما يكون طفلا فيه نضرة ، وفيه وسامة ، يكون جثة ميت ، ويكون دودة تتغذى من جسد ميت ، ويكون قبراً يضم بين جدرانه هذه الجثة ، وهذا الدود ، أستغفرك ربي وأتوب إليك .

ولوحدة الوجود ـ بمعنى وحدة الموجود ـ أنصار في كل زمان .

ولما قال الصوفية « بالوجود الواحد » شرح خصومهم الوجود الواحد بالفكرة الفلسفية ، عن وحدة الوجود ، بمعنى وحدة الموجود ، وفرق كبير بينهما ، ولكن الخصومة كثيراً ما ترضى عن التزييف ، وعن الكذب ، في سبيل الوصول إلى هدم الخصم ، والغاية تبرر الوسيلة ، كما يقولون .

وشيء آخر في غاية الأهمية كان له أثر كبير في الخطأ في فهم فكرة الصوفية عن الوجود الواحد ، وهو أن الامام « الأشعري » رضي الله عنه ، رأى في فلسفته الكلامية ، أن الوجود هو عين الموجود ، ولم يوافقه الصوفية على هذه الفكرة الفلسفية ، ولم يوافقه الكثير من مفكري الاسلام وفلاسفته على رأيه . وهو رأي فلسفي ، يخطىء فيه « أبو الحسن الأشعري » أو يصيب ، وما مثله في آرائه الفلسفية إلا مثل غيره في هذا الميدان ، يخطىء تارة ، ويصيب أخرى .

ورأى مخالفوه : أن الوجود غير الموجود ، وأنه ما به يكون وجود الموجود ، ولما قال الصوفية بالوجود الواحد ، شرح خصومهم فكرتهم في ضوء رأي « الأشعري » . دون أن يراعوا مذهبهم ، ولا رأيهم ففسروا قولهم : بالوجود الواحد على أنه قول بالموجود الواحد .

وهذا التفسير بهذه الطريقة يسحب الثقة في آراء هؤلاء الخصوم .

وأمر ثالث : يجب ألا نعيره أدنى التفات ؛ لأنه أتفه ـ في منطق البحث ـ من أن نعيره التفاتاً ، وهو هذه الكلمات التي تناثرت هنا وهناك ، مخترعة ملفقة ، مزيفة ، ضالة ، في معناها ، تافهة في قيمتها الفلسفية ، غريبة على

الجو الاسلامي ، تنادى بصورتها ومعناها : أنها اخترعت تضليلا وافتئاتاً .

إنها هذه الكلمات التي يعزونها إلى « الحلاج » ، رضوان الله عليه ، أو إلى غيره لا توجد في كتاب من كتبه ، ولم يخطها قلمه . . . لقد اخترعوها اختراعاً ، ثم وضعوها أساساً تدور عليه أحكامهم بالكفر ، والضلال .

ويكفي أن يتشبث بها إنسان ، فيكون في منطق البحث غير أهل للثقة .

٢ ـ الوجود الواحد .

وهل في الوجود الواحد من شك ؟ إنه وجود الله المستغني بذاته عن غيره ، وهو الوجود الحق ، الذي أعطى ومنح الوجود لكل كائن ، وليس لكائن غيره ، سبحانه الوجود من نفسه ، إنه سبحانه الخالق ، وهو البارىء ، وهو المصور : (هُوَ الذي يُصَوِّرُكُمْ في الأرْحامِ كَيْفَ يشاءُ) .

ومن بعض معاني هذا التصوير قوله تعالى :

(ولَقَدْ خَلَقْنا الانسانَ منْ سُلالةٍ من طينٍ . ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً في قرارٍ مكينٍ . ثُمَّ خلقنا النُّطفةَ عَلَقَةً ، فخلقنا العلقةَ مضغةً ، فخلقنا المضغةَ عظاماً ، فكسونا العظامَ لحماً ، ثم أنشأناهُ خلقاً آخرَ ، فتباركَ اللهُ أحسنُ الخالقينَ) .

وصلة الله بالانسان إذن : هي أنه سبحانه ، يمنحه الوجود الذي يريده له ، في كل لحظة من اللحظات المتتابعة ، فتشكل حياته في كل لحظة ، بصورة أمده الله سبحانه وتعالى بها .

وصلة الله بكل كائن : إنما هي على هذا النمط : إنه سبحانه مثلا : (يُمْسِكُ السَّموات والأرضَ أنْ تزولا ، ولئن زالتا إنْ أمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ من بعده) . إنه يمسكهما وجوداً ، ويمسكهما تدبيراً ، ويمسكهما تماسكاً وتناسقاً . . إنه يمسك فيهما الكيف ، والكم ، وإذا ما سحب إمداده عنهما ، تلاشتا ، كماً وكيفاً .

إن الله سبحانه وتعالى : محيط بالكون ، مهيمن عليه ، قيوم السموات

والأرض ، قائم على كل نفس بما كسبت ، وقائم على كل ذرة من كل خلية ، وقائم على كل ما هو أصغر من ذلك ، وما هو أكبر ، بحيث لا يَعزب عن هيمنته وعن قيوميته مثقال ذرة في الأرض ، ولا في السماء .

هذه القيومية : أخذ القرآن والسنة يتحدثان عنها في استفاضة مستفيضة ؛ ليهز الانسان هزة عنيفة ، تجعله لا يخلد إلى الأرض ، ولا يتبع هواه ، وإنما يرتفع ببصره ويستشرف بكيانه إلى الملأ الأعلى ، مستخلصاً نفسه من عبودية المادة : ليوحد الله سبحانه وتعالى في عبودية خالصة له . وفي اخلاص لا يشوبه شرك من هوى ، أو شرك من سيطرة المادة أو الغرائز .

ونريد الآن أن نصور بعض مواقف القرآن في هذا الصدد :

إن الله سبحانه وتعالى : يوجه نظرنا في سورة « الواقعة » إلى مسائل نحن عنها في العادة غافلون .

(أَفَرَأَيْتُمْ ما تُمْنُونَ ؟! أأنتم تَخْلُقُونَهُ ، أَمْ نَحْنُ الخالقون) ! . . .

(أفرأيتُمْ ما تَحْرُثُونَ ؟! أأنتم تزرعونَهُ ، أَمْ نَحْنُ الزّارِعُونَ ؟) ! .

(أفرأيتمُ الماءَ الذي تَشْرَبونَ ؟! أأنتم أنزلتموهُ مِنَ المُزْنِ ، أم نحنُ المنزلونَ !) ؟

(أفرأيتم النّارَ التي تُورُونَ ؟ أأنتم أنشأتُمْ شَجَرَتَها ، أمْ نَحْنُ المنشِئونَ) ؟ . .

وعلى العكس من ذلك : لو شاء الله لما خلق هذا الفرد ، ولجعل الزرع حطاماً ، ولما أنزل الماء من المزن ، ولما أنشأ شجرة النار ، إنه سبحانه ، بيده الأمر سلباً وإيجاباً ، وبيده أمر الخلق إيجاداً وإعداماً . .

أرأيت إلى هذه الرمية التي ترميها : إنك ما رميت إذ رميت ولكن الله رمى .

أرأيت إلى الانتصار في الجهاد ؟ إن هذا الانتصار من عند الله ؛ فأما القتلى (فَلَمْ تَقْتلُوهُمْ ولَكِنَّ الله قَتَلَهُمْ) .

ورزق الانسان هذا وطعامه :

(فَلْيَنْظُرِ الانسانُ إلى طعامِهِ أنّا صَبَبْنا الماءَ صباً ثُمْ شَقَقْنا الأرضَ شقّاً ، فأنْبَتْنا فيها حَبّاً وَعِنَبَاً ، وَقَضْباً ، وَزَيتوناً ونخلاً ، وحدائقَ غُلْباً ، وفاكهةً ، وأبّاً ، متاعاً لكم ، ولأنعامِكُم . . .) .

٤ ـ هذه الهيمنة ، وهذه القيومية ، يمر بها قوم فلا يعيرونها التفاتاً ، إنهم يمرون بها مرور الحيوانات ، بما لا تدرك ولا تعقل : إن الله سبحانه وتعالى ، لا يحتل من شعورهم درجة أيا كانت ، وهمهم ـ كل همهم مصبحين ممسين ـ إنما هو ملء البطن ، أو كنز الذهب والفضة ، أو النزاع على جاه ، أو العمل لتثبيت سلطان : إنهم يمرون بآيات الله فلا يشهدونها ، وتحيط بهم آثاره ، فلا ينظرون إليها ، وتغمرهم نعماؤه وآلاؤه فلا يوجههم ذلك إلى الحمد ولا إلى الشكر ، إن الله سبحانه وتعالى ، لا يحتل في قلوبهم ، ولا في تفكيرهم ، ولا في بيئتهم ، ولا في حياتهم ، قليلا ولا كثيراً :

والطرف الآخر المقابل لهذا : هو هؤلاء الذين انغمسوا حقاً في محيط الالهية : سبحوا في بحارها ، واستنشقوا نسائمها الندية . وغمرهم لألاؤها وضياؤها ، لقد بدأوا بحمد الله ، وشكره على نعمائه ، وآلائه التي تحيط بهم من جميع أقطارهم ، فزادهم الله نعماً وآلاء .

(ولَئِنْ شكَرْتُمْ لأزِيدَنَّكُمْ . . .)

لقد اتقوا الله حق تقاته فعلمهم الله :

لقد اكتفوا بالله هادياً ونصيراً ، فهداهم الله إلى صراطه المستقيم ، ونصرهم على أنفسهم ، وعلى أعدائهم ، وأخذوا شيئاً فشيئاً ، يحاولون تحقيق التوحيد : قولا ، وعقيدة ، وتذوقاً ، وتحقيقاً ، أخذوا يرون في « أشهد ألا إله إلا الله » معاني لا يتطلع إليها غيرهم .

وبدأ معنى الشرك يتضح لهم في صورة لا تخطر على بال اللاهين ، الذين شغلتهم أموالهم وأهلوهم ، وبدأوا يحطمون الشرك : يحطمون أصنامه . وأوثانه من النفس ، والهوى ، والشيطان ، ومن الغرائز الحيوانية ، والغرائز

الانسانية . وانهار الشرك . حتى من همسات الفؤاد : لقد انهار الشرك الواضح ، وانهار الشرك الخفي . وثبت في أذواقهم ، واستقر في أحوالهم ومقاماتهم : أن « لا اله الا الله » وأنه (أينما تولوا فثم وجه الله) وأينما كانوا فالله معهم . وهو أقرب إليهم من حبل الوريد . وهو أقرب إليهم من جلسائهم ومعاشريهم : إنه يغمر كيانهم : فلا يرون غيره سبحانه . لا يرون غيره . قيوم السموات والأرض . ولا يرون غيره مصرفاً لليسير من الأمور ، وللعظيم منها . ولا يرون غيره مالكاً للملك : يؤتي الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء .

لقد أصبحوا ربانيين . وأصبح الله في بصرهم وسمعهم وجوارحهم وفي قلبهم من قبل ذلك ومن بعده : يشغله كله فلا يدع فيه مكاناً للأغيار .

٥ ـ وأخذ هؤلاء الصوفية يوجهون أفراد هذا القطيع من البشر الى الله تعالى : أخذوا في محاولة جاهدة مستمرة ـ لانتزاع الانسان من الاخلاد الى المادة ليتطلع الى السماء :

لقد حاولوا أن يوجهوا نظر الناس إلى الله ، عن طريق آلائه التي تغمرهم ، وعن طريق صنعه ، وقد أحسن كل شيء خلقه ، سبحانه .

أخذوا يوجهون نظر الناس إلى الله تعالى : في الزهرة تتفتح ، وفي الزرع ينبت ، متجهاً إلى السماء ، وفي الشمس تشرق ، وفي القمر يتألق ، وفي مواقع النجوم ومداراتها . .

وفي كل هذا الابداع الساري في الكون !

أخذوا يشرحون معنى تلك الآيات الكريمة :

(تَبَارَكَ الذي بيدِهِ الملكُ وَهُوَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ .

الذي خَلَقَ الموتَ والحياةَ ليبلوَكمُ أيكم أحسنُ عملاً وَهُوَ العزيزُ الغفورُ .

الذي خَلَقَ سبعَ سموات طباقاً ، ما ترى في خلق الرحمنِ من تفاوتٍ ، فارجعِ البصرَ هَلْ ترى من فطورٍ ؟

ثم ارجعِ البصرَ كَرَّتين ينقلب إليكَ البصرُ خاسئاً وهوَ حسيرٌ ؟)

وكانت تعبيراتهم تعبيرات متذوقين ،.وليست التعبيرات الجافة ، لعلماء الكلام أو الفلاسفة ، وهم ـ في تعبيراتهم يشرحون : ان الله سبحانه وتعالى ؛ الممدّ الوجود لكل موجود : إنه يمد القائم بالقيام ، ويمد الماشي بالمشي ، والمتحرك بالحركة . . .

إنه ـ على حد تعبير أهل السنة والأشاعرة ـ الذي يقطع ، وليست السكين هي التي تقطع ، وهو الذي يحرق ، وليست النار هي التي تحرق ، وهو الذي ، حينما يريد ، يقول للنار كوني برداً وسلاماً ، فتكون برداً وسلاماً .

ومهما عبر الصوفية ، في هذا الميدان ، عن الوجود الواحد ، فقالوا في ذلك ، وزعم الناس أنهم أسرفوا ، واشتطوا ، فإنهم : سوف لا يبلغون المدى الذي بلغته تلك الآية الكريمة التي تمثل في روعة رائعة ، الهيمنة المهيمنة ، والاستغراق القاهر ، والجلال الشامل ، والتي لا تعني وحدة متحدة ، ولا اتحاداً مطابقاً بين الخالق والمخلوق ، أو العابد والمعبود ، والآية هي :

(هُوَ الأولُ ، والآخرُ ، والظاهرُ ، والباطنُ) .

وهذه الآيات القرآنية التي ذكرناها إنما هدفها أن تدفعنا دفعاً إلى الشعور بقيومية الله ، سبحانه وتعالى ، مهيمنة ، وهيمنته مسيطرة ، وإلى الشعور بتوجيهه سبحانه وتعالى للانسان أن يفر إلى الله في كل أمر من أموره ، وأن يسمو بنفسه حتى يتحقق بأن :

« لا إله إلا الله » .

وما فعل الصوفية أكثر من ذلك ، إنهم مهتدون بهدي القرآن والسنة ، يريدون للانسان أن يكون ربانياً ، فإذا ما استمر الكثير من الناس يخلدون إلى الأرض ، وينظرون دائماً إلى أسفل ؛ فليس ذلك ذنب الصوفية ، فقد أدوا واجبهم نحو التوجيه إلى الله ، خير أداء .

أما إذا لم يكتف بعض الأفراد بالاخلاد إلى الأرض وبالنظر إلى أسفل ،

وإنما أخذوا يهاجمون من يدعوهم للتطلع إلى السماء ، ويوجههم إلى الله تعالى فهؤلاء : إنما يحاربون الله ورسوله ، وجزاؤهم معروف .

٦ ـ وقد تتساءل : فيم إذن حوكم « الحلاج » وقضي عليه بالقتل !؟

إن أمر هذه القضية : قضية « الحلاج » : معروف سرها ، وما كان سراً في يوم من الأيام .

لقد كان « الحلاج » قوة جارفة ، كان مركزاً للجاذبية لا يضارع ، يلتف حوله الناس أينما حل ، ويسيرون حوله أينما ارتحل .

وكان ككل صوفي ـ : يحب آل البيت ؛ لأنه كان يحب الرسول ﷺ ، وكان آل البيت إذ ذاك يطمحون في أن تكون الدولة لهم ، وما كان « بنو العباس » يطمئنون إلى شخصية كشخصية « الحلاج » المحبة لآل البيت ، نسل رسول الله ، صلوات الله عليه وسلامه .

وما دام « الحلاج » دعاية قوية تسير في كل مكان ، وتتجه إلى كل بلد ، فيجب ـ حفاظاً على أمن الدولة ، وتحصيناً لاستقرارها ـ : أن ينكل « بالحلاج » .

وما كان مقتل « الحلاج » دينياً قط ! كلا ، وإنما كان سياسياً بحتاً . ومن السهل على الملوك المستبدين أن يزيفوا القضايا ، أن يأتوا بشهود الزور ، وأن يعدوا القضاة بالمال والترقية ، وأن ينفذوا أهواءهم . .

فكان ما كان من قضية ومن قتل . . . والدين من كل ذلك براء ، والألفاظ التي ينسبونها « للحلاج » ليست في كتاب من كتبه ، وكتبه ـ وبعضها موجود ـ لا تسند خصومه ولا تؤيدهم .

هذا ما كان من أمر « الحلاج » . وبقيت كلمة .

إن المنطق الصحيح : ألا يفتي المهندس في أبحاث الأطباء ، وألا يحكم الأديب ـ باعتباره أديباً ـ في أعمال المهندسين . .

ومن العدالة ـ على هذا الوضع ـ . ألا يحكم على هذه القمم الشامخة « ابن عربي » ، « الحلاج » ، « ابن الفارض » ، من لم يبلغ مداهم ، أو يقاربه .

لقد قيل مرة لأحد شيوخنا الصالحين الأجلاء إن فلاناً ، ينتقد « ابن عربي » في المجلات ، فقال رضوان الله عليه : وهل من حق الخنافس أن تحكم على أعمال الأسد ، الخنافس لا تحكم على أعمال السباع ، وليس من حقها أن تتحدث فيما تفعله السباع ، ومنطقها دائماً منطق الخنافس . .

أما الامام « الشافعي » ـ رضوان الله عليه ـ فإنه يقول عن خصوم سيدنا « محيي الدين » : « إن حكمهم حكم ناموسة ، نفخت على جبل تريد إزالته من مكانه ، وتذهب الريح بأمم من الناموس ؛ وتبقى الجبال شوامخ راسيات ، بها تثبت الأرض ، وبها يحفظ ميزان الدنيا » ا هـ .

والرأي الذي لا يتأتى غيره من المنصف ، الرأي الحق ، هو ما قاله الامام « الشعراني » عن الصوفية عامة ، وعن سيدنا « محيي الدين » خاصة : « ولعمري إن عباد الأوثان لم يجرؤوا على أن يجعلوا آلهتهم عين الله ، بل قالوا : (ما نَعْبُدُهُمْ إلاّ لِيُقَرِّبونا إلى اللهِ زُلْفى ») ، فكيف يظن بأولياء الله أن يدعوا الاتحاد بالحق سبحانه ، هذا محال في حقهم ، رضوان الله عليهم » ا . هـ

فلا بد أن يبلغ الانسان المستوى ، أو يقارب المستوى ، وحينئذ سيقول كما قال أسلافنا ، الذين بلغوا المستوى أو قاربوه : رضي الله عن سيدنا « محيي الدين » ، ورضي الله عن « الحلاج » ، وعن « ابن الفارض » ، ونفعنا بهم ، وبكتبهم ، هذا وبالله التوفيق .

- ٤ -

السُّجُود[1]

- ١ -

يروي الامام « مسلم » - رضي الله عنه - في صحيحه : عن « أبي فراس ربيعة بن كعب الاسلمي » ، - خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن أهل الصفة - رضي الله عنه - قال :

كنت أبيت مع رسول الله ﷺ ، فآتيه بوضوئه وحاجته ، فقال : سلني :

فقلت : أسألك مرافقتك في الجنة .

فقال : أو غير ذلك ؟

قلت : هو ذاك .

قال : « أعني على نفسك بكثرة السجود » .

والسجود - إذن - مما يعين على ترويض النفس ، لتتزكى ، وهو بذلك من الوسائل التي توصل إلى الجنة .

وفي هذا المعنى ، يروي « مسلم » أيضاً ، عن « أبي عبد الرحمن ، ثوبان » مولى رسول الله ﷺ ، قال :

سمعت رسول الله ﷺ يقول : « عليك بكثرة السجود ، فإنك لن تسجد لله سجدة ، إلا رفعك الله بها درجة ، وحطّ عنك بها خطيئة » .

والسجود الذي يريده رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - في هذه الأحاديث ليس هو مجرد الحركة المعروفة ، وإنما هو - مع هذه الحركة - المعنى العميق في النفس ، الذي يتمثل فيه جلال الله وعظمته ، ورحمته

(١) إن موقف الصوفي من التعاليم الدينية هو موقف الساجد لها - وبدون ذلك لا يكون صوفياً . ومن أجل ذلك وضعنا هذه الكلمة في هذا الفصل .

ووده ، ويتمثل فيه الخضوع ، لهذا الجلال ، وهـذه العظمـة ، والانقياد المطلق لرحمة الله ، التي تتمثل في الرسالة الاسلامية : أوامرها ونواهيها .

ذلك أن الرسالة الاسلامية ، في تكاليفها سلباً وإيجاباً ، إنما هي رحمـة للعالمين ، يقول الله تعالى ، لرسوله ، صلوات الله وسلامه عليه :

(ومَا أرْسَلْناكَ إلاَ رحمةً للعالمين) .

فإذا ما كان السجود تعبيراً عن التطامن والتذلل ـ وذلك معناه الصـحيح ـ كان ذلك عبادة ، وخضوعـاً لله سبحانـه وتعالـى ، وكان بذلك سبيلا إلـى الجنة ، وإلى أكثر من الجنة ، وهو القرب من الله ، يقول الله تعالى في كتابه العزيز : (وَاسْجُدْ واقتربْ) .

ويقول ، صلوات الله وسلامه عليه ، في هذا المعنى : « أقرب ما يكون العبد من ربه ، وهو ساجد » ولقيمة السجود الكبيرة . عبر عن الصلاة أحياناً بالسجود فصلاة الضحى ، يسمونها : « سجود الضحى » .

ومن أجل هذه القيمة أيضاً ، مدح الله من يعبرون عن خضوعهم لآياتـه واستجابتهم لأمره ، يقول الله تعالى :

(إنّما يُؤْمِنُ بآياتِنا الذينَ ، إذا ذُكِّرُوا بها خَرُّوا سجَّداً ، وَسَبَّحوا بحمدِ ربِّهِمْ ، وَهُمْ لا يستكبرون) .

والذين هداهم الله ، واجتباهم :

(إذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وبكيّاً) .

ومن صفات عبادِ الرحمن ، التي يزكيهم الله بها أنهم : (يبيتونَ لربِّهمْ سُجَّداً وقياماً) :

ـ ٢ ـ

على أن حادثة من الحوادث قصها القرآن في غير ما موضع منه ، تبين لنا كثيراً مما نتحدث به من المعاني الخاصة بالسجـود ، تلك هي حادثـة آدم والملائكة .

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ للملائكةِ : إنّي خالقٌ بَشَراً مِنْ صَلصَالٍ مِنْ حمأ مَسنونٍ ، فإذا سَوّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فيهِ من رُوحي ، فَقَعُوا لَهُ ساجدينَ) .

بهذا النبأ ، حدَّث الله الملائكة عن عالم جديد من عوالمه ، سيبرئه سبحانه ، وأمر الملائكة ، أن يسجدوا له .

(فسجدَ الملائكة كُلُّهُم أجمعون) .

لم يشذ منهم أحد .

وكان من بينهم ـ مختلطاً بهم « إبليس » ـ وهو كائن يختلف عن الملائكة ، وعن الانسان ، إنه من فصيلة الجن .

وكان يعبد مع الملائكة ، ويسبح معهم ، حتى كان يلقب « بطاووس العباد » لكثرة عبادته ، وتفانيه في العبادة ، ولكنه لما سمع الأمر الالهي بالسجود ، لم يسجد ، لقد أبى ، والإباء ضد السجود ، واستكبر ، والاستكبار : ينافي الخضوع .

ويتحدث القرآن عن ذلك في صراحة فيقول :

(إلاّ إبليسَ أَبَى أنْ يكونَ معَ الساجدين) .

ويقول سبحانه أيضاً :

(إلاّ إبليسَ استكبرَ وكانَ مِنَ الكافِرينَ) .

هذه قصة معروفة ، نمر عليها فلا نكاد نعيرها التفاتاً ، بيد أنها جديرة بالتأمل والاعتبار .

والقضايا التي نريد أن نذكرها عظة واعتباراً ، وهي في نفس الوقت ذات دلالة عميقة هي ما يلي :

١ ـ لقد صدر أمر إلهي بالسجود ، فاستجاب له طائفة ، فنعموا برضوان الله ، وشذ فرد ، فطرد من رحمته سبحانه .

٢ ـ إنه طرد ؛ لأنه لم يستجب للأمر الالهي ، مع علمه بأنه أمر إلهي .

٣ ـ وكان عدم استجابته ناشئاً عن كبرياء في نفسه ، وعن تمرد في فطرته .

٤ ـ لم تلغ عبادته كبرياءه ، فهي ـ إذن ـ لم تكن خضوعاً ، لأنها لو كانت خضوعاً ، لنفت الكبرياء وأزالته ، هي إذن لم تكن عبادة بالمعنى الصحيح ، لأن العبادة والكبرياء لا يجتمعان .

٥ ـ هذا الكبرياء : كما تمثل في مخالفة الأمر الالهي ، تمثل في المحاولة التي أراد هذا المتمرد أن يبرر بها موقفه ، مستنجداً بمنطقه وعقله قائلا :

(أَنا خَيْرٌ مِنْهُ ، خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ ، وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ) .

ولم يكن هذا إلا منطق الهوى ، ومنطق الكبرياء ، فسجوده لآدم ، ليس عبادة له ، وإنما هو عبادة لله ، لأنه خضوع لأمر الله ، وحسب .

٦ ـ والموقف السليم ـ إذن ـ هو ما يرشد إليه روح القصة ، بل وتعبيرها من أنه عند الامر الإلهي : يجب أن تكون الاستجابة فورية ، هذا هو ما ترشد إليه في صراحة كلمة : « إذ » في قوله تعالى :

(ما مَنَعَكَ ألاّ تَسْجُدَ إذْ أَمَرْتُكَ) .

ومن الطبيعي أن تكون هذه الفورية في كل أمر بما يناسب وضعه الزماني والمكاني .

٧ ـ والقضية الأخيرة التي نختتم بها هذه القضايا ، أو هذه المفاهيم المستنتجة من القصة هي أن الله إذا كان قد أمر الملائكة والجن ، بالسجود للانسان الأول فليس معنى ذلك ، إلا التصريح الصريح ، بأن طبيعة هذا الانسان فيها الاستعداد الكافي للرقي ، في مدارج السمو الروحي ، درجة فدرجة ، حتى تسمو على الملائكة ، وعلى الجن .

ولا معنى ـ إذن ـ بعد هذا الأمر الالهي للملائكة والجن بالسجود للانسان ، أن يختلف علماء الاسلام في المفاضلة بين الانسان والملك .

ذلك أن الفيوضات الالهية على الانسان ، لا تنتهي إلى حد :
« ما وسعني أرضي ولا سمائي ، ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن » .
فباب الفيوضات الالهية ـ إذن ـ مفتوح على مصراعيه ، والقرب من الله ميسور .

وإذا ما سجد الانسان لله ، رفعه الله إليه ، وقرّبه منه ، وغمره برضوانه .

أما المبدأ الهام ، الذي نريد أن يجعله كل مؤمن نصب عينيه ، فهو أن الايمان ليس معرفة وحسب : ذلك أن « إبليس » كان يعلم علماً يقينياً ، أن الله موجود ، وقد علم فيما بعد أنه أرسل « نوحاً » و « إبراهيم » . . و « محمداً » عليهم الصلاة والسلام .

إنه يصدق بأن « لا إله إلا الله » ، ويصدق بأن « عيسى » و « موسى » وبقية الأنبياء رسل الله ، ومعرفته بهذه المسائل هي من القوة والثبات بحيث تزيد على معرفة كثير من المؤمنين . .

ولكنه مع ذلك مطرود من رحمة الله : ذلك أن الايمان ليس معرفة فحسب ، وإنما هو خشوع ، واستجابة : إنه سجود ، فإذا لم يتأت السجود فلا إيمان[1] .

لقد كان « سعيد بن جبير » ـ رضي الله عنه ـ يقول : « ما آسى على شيء من الدنيا إلا على السجود » .

أما « علي بن عبد الله بن عباس » ، فقد كانوا يسمونه « السَّجَّاد » لكثرة سجوده . وقد كان يكثر من السجود ـ كما هو المتبادر إلى الذهن ـ ليكون على النقيض من « إبليس » . ونختم هذه الكلمة بقول الله تعالى ، يصف الذين مع رسول الله ـ معه في حال حياته . وعلى مبادئه الالهية بعد وفاته ـ : (**سِيماهُمْ في وجُوهِهِمْ مِنْ أثر السُّجُودِ**) : إنه النور الذي يشرق على جباههم لسجودهم لله وحده ، وهو الغررُ التي ستكون في وجوههم يوم القيامة ، من أثر خشوعهم لله .

ـ ٣ ـ

ويتنافى السجود لله مع محاولة تحكيم العقل في أوامره ـ سبحانه وتعالى ـ أو نواهيه ، وكل محاولة من هذا القبيل ، إنما هي : كبرياء ، وهي إبليسية .

---

(١) يقول الله تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ، ويسلموا تسليماً) .

ويقول ، صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به »

وإذا كان « لابليس » خلفاء من بني آدم ، ههم هؤلاء الذين يحاولون أن يقوموا بدور « إبليس » في المجتمع الانساني ، إنهم هؤلاء الذين يرقضون الوحي الالهي جملة ، أو يحاولون أن يزنوا الوحي بميزان العقل ، فيرفضوا ، ويقبلوا ، ويؤولوا ما شاء لهم الهوى ، ويوفقوا ، ويلفقوا ، ويوجدوا بعقولهم المآزق ، التي يزعمونها مشكلات نظرية ، عقلية ـ ثم يحاولون الفرار منها .

وخلفاء « إبليس » هم أولا وبالذات : الملاحدة :

إنهم على نسق التعبير الجاري : إبليسيون أكثر من إبليس : ذلك :

أن « إبليس » لم ينكر وجود الله ، ولم ينكر بعثاً ولا رسالة ، ولكن هؤلاء أنكروا كل ذلك ، ففاقوا زعيمهم ، ولكنهم بتفوقهم على زعيمهم ، قد أرضوا غروره ، ذلك أنه خاطب الله قائلا (لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ (لبنّي آدم) صِراطكَ المستقيمَ ، ثُمَّ لآتينَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أيْدِيهِمْ ، وَمِنْ خَلْفِهِمْ ، وَعَنْ أَيْمانِهِمْ ، وَعَنْ شمائِلِهِمْ ، وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكرينَ) .

ولقد نجح « إبليس » نجاحاً تاماً ، في طائفة الملاحدة .

والالحاد درجات : وأخس درجات الملحدين ـ لا شك ـ إنما هي درجة الذين اعتقدوا ـ على حد تعبير « الغزالي » ـ « أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه ، وبلا صانع ، ولم يزل الحيوان من النطفة ، والنطفة من الحيوان ، كذلك كان ، وكذلك يكون أبداً » .

وإذا ما سألت هؤلاء : « أخلقوا من غير شيء ، أم هم الخالقون ؟ » كانت حيرتهم في الاجابة كافية في البرهنة على أنهم لا يتبعون إلا أهواءهم ، وأنهم ليسوا ـ إذن ـ إلا عبيداً « لابليس » .

وهنا الالحاد بإنكار البعث . . .
والالحاد بإنكار الرسالة . .
بيد أن هؤلاء وأولئك وتلكم يصدق عليهم :

(أفرأيتَ مَنِ اتَّخَذَ إلههُ هَوَاهُ ، وَأَضَلَّهُ على عِلْم ، وَخَتَمَ على سَمْعِهِ

وَقَلْبِهِ ، وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوةً : فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بعدِ اللهِ أفلا تَذَكَّرُونَ ؟) والطريق الذي ينقذ به هؤلاء نفوسهم وقلوبهم ، إنما هو المبادرة بالسجود لله لا للهوى المردي ، فيتكشف الله لهم في كل شيء ، وتظهر لهم آياته في الآفاق ، وفي أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق . وإن من أحدث اختراعات « إبليس » في هذا الزمن الحاضر إنما هو المذهب المسمى ، « الوجودية » : وهو مذهب يدعو كل إنسان أن يحقق وجوده حسبما يرى ، وتبعاً لما يريد ، غير متقيد بعرف ، ولا عادات ، ولا تقاليد ، ولا دين ، ولا أوضاع أيا كانت ، وهو ـ إذن ـ يهدم نفسه بنفسه ، لأنه لا يقوم على أسس ثابتة ، ولا ينتهي إلى مبادىء حقيقية ، وأحسن تشبيه للوجودي هو ما قاله أحد كبار الكتاب الغربيين :

« إن الوجودي مثله كمثل الكلب الذي يجري دائراً حول نفسه ، ليمسك بذنبه ، فلا يدرك ذنبه ، وهي لعبة تلعبها الكلاب ، حينما يجدون الفراغ فيلهون بما لا نتيجة له » .

على أن المذهب الوجودي قديم : إذ انه المذهب « السوفسطائي » اليوناني ، وهو مذهب يظهر دائماً في عصور الانحلال ، وفي البيئات المنحلة ، لا وجود له في عصور الجد ، ولا في البيئات الجادة : ذلك أن المجتمعات الناهضة الجادة ، لا تبيح لأفرادها أن يتشبهوا بالكلاب ـ حينما تلهو الكلاب ـ في الجري وراء أذنابها ، ليمسكوا بها .

فالوجودية ـ اذن ـ اختراع ابليسي . لاخراج طائفة من البشر عن نطاق السجود لله . إلى نطاق السجود للأهواء .

وخلفاء « إبليس » ثانياً هم : طائفة الفلاسفة العقليين الالهيين .

ذلك أن الفلسفة العقلية ـ مهما حاول المتفلسفون تزييف أهدافها وتزيين غاياتها ـ ليست الا محاولة لتحكيم العقل فيما أتى به الوحي . أو بتعبير أدق هي محاولة لاحلال العقل محل الوحي .

وهي من غير ما ريب تريد أو تخترع ـ عقلياً ـ ما فرغ منه الوحي في فضاياه ومبادئه . إنها تريد ابتداع دين عقلي . بجوار الدين الالهي ، وهذا الدين

العقلي يختلف من فيلسوف إلى آخر ، وهو من أجل ذلك يختلف في هذه القضية أو تلك . مع الدين الالهي .

فإذا كانت البيئة متشبعة بالدين الالهي : يغمر قلبها الايمان ، ويغمر وجدانها الهداية ، حاول المتفلسفون ـ في طريقة إبليسية ـ أن يوفقوا بين الدين والفلسفة .

ومعنى هذا : أنهم يجعلون موقف اختراعاتهم العقلية بالنسبة للدين ، موقف الند للند ، فيحاولون التوفيق ، فيخطئهم التوفيق ، فيما يأتون وما يدعون . ذلك أنهم ـ قلوبهم وأفئدتهم ـ هواء .

وإذا كان الاتفاق بينهم هم لم يتم . فإن التوفيق بين أهوائهم ، وظنونهم ، وشكوكهم ، وأوهامهم وبين الوحي والعصمة واليقين والهداية . إنما هو عمل لا يسير في ركابه إلا أتباع « إبليس » .

والفلاسفة ـ إذن ـ لم يسجدوا لله .

أما الطائفة الثالثة التي لم تسجد لله . إلا شكلا فإنها . طائفة « المعتزلة » من علماء الكلام . إنهم لم يسجدوا لله سجود خضوع واذعان . ومذهبهم قائم على تحكيم العقل في الدين . ووصل بهم الأمر إلى أنهم يوجبون على الله بعض الأعمال ، سبحانه وتعالى ، ويحرمون عليه إتيان بعضها ، سبحانه وتعالى ، فوضعوا أنفسهم ـ بعملهم هذا موضع المشرعين لله سبحانه . يلزمونه سلباً ، ويلزمونه إيجاباً . وزين لهم الشيطان أعمالهم . وصدق فيهم قول الله تعالى :

(أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوء عَمَلِهِ ؛ فَرَآه حَسَناً فإنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يشاءُ وَيَهدي مَنْ يشاءُ ، فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حسراتٍ ، إنَّ اللهَ عَلِيمٌ بما يَصْنَعُونَ) .

ثم إنهم خاضوا فيما نصح الدين بعدم الخوض فيه ، كالذات الالهية ، والصفات وكالقدر .

وكان لا بد وقد اتبعوا ـ أهواءهم ـ أن يختلفوا ويتفرقوا ، وتذهب بهم الأهواء كل مذهب : فكانوا فرقاً ، وأحزاباً شتى ، لا تكاد تدخل تحت حصر .

وكل من نهج النهج العقلي ـ أي يحكم العقل في الدين في العصر الحاضر ـ إنما هو تابع للمعتزلة ، وكل مدرسة من هذا القبيل في العصر الحاضر إنما هي مدرسة اعتزالية في مبادئها وأصولها ، وهي مدرسة اعتزالية في غاياتها وأهدافها : ذلك أنها تضع قضايا الدين . . . في ميزان عقلها ، فتنفي ، وتثبت ، حسبما تقتضيه الظروف والملابسات ، أي حسبما تقتضيه الأهواء والنزعات .

والمدرسة العقلية في الدين ، أيا كانت ، وفي أي مكان وجدت ، وفي أيّ زمان نشأت : لم تسجد لله سجود خضوع وإذعان ، وإنما سجدت للعقل ، وعبدت العقل ، فتفرقت إلى ما لا يكاد يحصى من الفرق : ومن (يَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ المؤمنينَ نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى) .

وسبيل المؤمنين ، إنما هو السجود لله وحده ، وذلك أيضاً سبيل الراسخين في العلم ، إذ الراسخون في العلم هم دائماً مؤمنون ، ساجدون لأمر الله ، وإليهم تشير الآية الكريمة :

(أمَّنْ هُوَ قانتٌ آناءَ الليلِ ساجداً وقائماً ، يَحْذَرُ الآخرةَ وَيَرْجُو رحمةَ ربِّهِ ، قُلْ هلْ يستوي الذينَ يعلمونَ والذينَ لا يعلمونَ ؟ إنَّما يَتَذَكَّرُ أولوا الألباب) .

ومن البديهي أن المؤمن الحقيقي ، هو « وإبليس » على طرفي نقيض ويرسم الله سبحانه وتعالى ، صورة المؤمن فيبين تعارضها مع كل الصور الابليسية على تفاوتها ، واختلافها ، ويبين جزاءها عنده فيقول سبحانه :

(إنَّما يؤمنُ بآياتِنا الذينَ إذا ذُكِّرُوا بها خَرُّوا سُجَّداً ، وَسَبَّحوا بحمدِ ربِّهِمْ ، وَهُمْ لا يستكبِرُونَ) .

(تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ المضاجعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خوفاً وطمعاً ، وممّا رزقناهُمْ يُنْفِقُونَ .

فلا تعلم نفسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ أعينٍ جزاءً بما كانوا يَعْمَلُونَ) .

هذا وبالله التوفيق .

- ١ -

البحث العقلي فيما وراء الطبيعة عبث

لا يمكننا أن نحدد بالضبط تاريخ نشأة الأبحاث في المغيبات ، ولكننا قد لا نعدو الصواب ، إذا قلنا : انها نشأت منذ نشأة الانسان ، على ظهر البسيطة ، وقد لا نعدو الصواب أيضاً ، إذا قلنا : إنها على مر الزمن ، قد اختلفت ؛ فيما يتعلق بمنهاج البحث ، واختلفت فيما يتعلق بالنتيجة .

وقد انتهى الاختلاف الى النتيجة الحتمية ، وهي : أن يكون شاملا لكل المساتير : فمن إنكار مطلق للألوهية ، وللروح ، إلى إيمان مطلق عآم ، يغرق في الوهم ، ويبعد في الضلال ، حتى يصل إلى التخريف باوسع معانيه .

وبين هذا وذاك ، مذاهب لا يحصيها العد : فمن تشبيه مطلق ، إلى تنزيه مطلق ، إلى تشبيه يشوبه التنزيه ، أو تنزيه مشوب بالتشبيه ، ومن حلول ، الى اتحاد ، ومن وحدة الوجود ، الى التفرقة بين العابد والمعبود ، الى مذاهب يبعث اختلافها الدوار في الرأس ؛ وتبعث براهينها الشك في جميعها ، الا من عصم ربي ، فوفقه إلى طريق الرشاد .

أجل : إلا من عصم ربي ، ذلك أن اتباع الطريق السويّ ، توفيق من الله ، وليس هو اكتساب العبد [1] ؛ فالحلول ـ مثلا ـ عقيدة راسخة ، آمنت

---

(١) قال الله تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء) .

بها البيئات المسيحية ـ وفيها من أساطين المفكرين ما لا يحصى ـ منذ ألفي سنة والتشبيه آمن به كثيرون .

ووحدة الوجود بالمعنى الفلسفي ، لها أنصارها المتحمسون لها ، الذين يرون ان ما عداها لغو ، أو ضلال .

ولو درسنا تاريخ العقائد لوجدنا أن كل فرقة تستند إلى منطق : وكل عقيدة قد سادت في فترة من الزمن ، او في بيئة من البيئات ، وكل بيئة تعتقد أن ما لديها خير ما أخرج للناس : و (**كُلُّ حِزْبٍ بما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ**) .

أما الصراع بين أدلة الفرق المختلفة ، فهو صراع دامٍ ، تتهافت فيه الأدلة ، مثخنة بالجراح ، ولكنها تأبى ـ في غطرسة ـ أن تعترف بالهزيمة ، فتأخذ في تضميد جراحها ، لتعاود النزال من جديد ، ولتنهار ـ أيضاً ـ من جديد .

ولو سرنا حقيقة في المنطق إلى غايته ، لوصلنا إلى الحيرة ، والشك في كل ما أنتجته العقول الانسانية من آراء .

ومع ذلك ، فاليقين موجود ، ومهما حاولت أن تنكر اشراق الشمس ـ إذا كانت مشرقة ـ فسوف لا يستجيب لك شخص ما ، وسوف لا تستجيب أنت لنفسك ، وهكذا الأمر في جميع المحسّات .

بيد أن ذلك ميدان ، والغيبيات ميدان آخر .

ربما يقال : إنه من الطبيعي : أن يكون الحس طريق المعرفة المادية ؛ وأن يكون العقل طريق المعرفة العقلية ، وما دامت المغيبات من المعقولات ، فالطريق الى معرفتها ـ اذن ـ إنما هو العقل ، وما دمنا قد وثقنا بالحس في معرفة الماديات ، فلنلتزم بالعقل في معرفة المغيبات .

هذا النمط من التفكير يبدو موفقاً ، ولكنه محض سفسطة ، فالتصور ـ وهو أساس المعقولات ـ لا يقوم إلا على الحس ، وإذا جردته من المدركات الحسية ، فقد أزلته ازالة لا تترك له من أثر ، ومهما أغرق الشعراء في الخيال ، ومهما أبعدوا في الوهم ، فابتداعاتهم ، وصورهم المبتكرة ، منتزعة من الواقع ، والاختراع : تنسيق للمحسّ على نمط جديد ، ولا فرق

مطلقاً بين ذهن العبقري الفذ وذهن الجاهل الغبي ، في أن كلا منهما يعتمد على الواقع المحس ، في تصوره ، وفي تخيله .

والصورة المبتكرة ـ من حيث عناصرها ـ أسطورة من الاساطير ، أو وهم من الأوهام التي لا وجود لها ، وما دام الأمر كذلك ، فالتفكير المجرد عن المحسات معدوم[1] وما دامت المساتير لا شأن لها بالحس ، فكل تفكير فيها لا يؤدي إلى نتيجة .

---

(١) منذ سنوات كتبت بحثاً عن التخيل ، أقتطف منه ما يلي ، توضيحاً لفكرة ارتباط التصور والتخيل ، بالمحسات .

(٩) الخيال والواقع ، إذا نظرنا إلى العناصر التي تكون مادة التخيل ، فإننا لا نجد فيها شيئاً جديداً ، وكل ما للمتخيل لا يعدو أن يكون تنسيقاً ، فصورة أبي الهول هي وحدها الجديدة ، أما ما تكون منه ـ نعني جسم الأسد ، ورأس الانسان ـ فليس ذلك بجديد .

وكل ما لم يخضع لحواس الانسان ، فإنه لا يمكن للانسان أن يتخيله ، إلا إذا شبهه بما وقع تحت حواسه ، وما تصور الناس الغول ، والعنقاء ، والجن ، والشيطان ، إلا على مثال ما سبق أن رأوا .

وحينما أراد المسيحيون أن يصوروا « جبريل » ، صوروه على صورة رجل له جناحان .

وتورع جمهور المسلمين فيما يتعلق بالله ، فقالوا : « كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك » إذ ان كل ما خطر بالبال لا يمكن إلا أن يكون مادياً محساً . وكمال الله يقتضي تنزيهه عن المادة وعلائقها .

أما هؤلاء الذين قصر تفكيرهم ، فإنهم تخيلوا الله ـ جل وعز ـ على صورة رجل ضخم .

ولعل الكثير قد قرأ حكاية ذلك الرجل الساذج ، الذي حضر مجلساً من مجالس المعتزلة ، فسمعهم يتحدثون عن الله ويقولون . . إنه سبحانه ليس بفوق ، ولا بتحت ، ولا بيمين ، ولا بشمال ، ولا بخلف ، ولا بأمام ، وليس بمادة ولا بعرض ، فخرج ثائراً يعلن أن . « هؤلاء قوم يريدون أن يقولوا : أن ليس في السماء إله » ، هذا الرجل الساذج لم يمكنه أن يتخيل موجوداً خالياً من المحسات ، ولم يمكنه أن يعقل ما لم يتخيله « فاعتقد » أن المعتزلة ينكرون الله .

هذا ، وحاول أن تتخيل أنت ما في الجنة ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، فإنه سوف لا يخطر لك على قلب ، ذلك أن ما يخطر على القلب ليس شيئاً آخر غير ما رأته العين ، أو سمعته الأذن .

لقد أطال العلماء في بحث الآراء الموضوعية والآراء الذاتية . ورأوا أن الأولى لا تقبل جدلا : ذلك لأنها : تعتمد ـ الاعتماد كله ـ على الحس ، أما الآراء الذاتية وهي قائمة على أسس اخرى ـ فانها مجال للأخذ والرد ، ولا يمكن الوصول فيها إلى نتيجة حاسمة مهما طال النقاش . وإذا كانت مادة الأخلاق ، هي الميدان الخصب للآراء الذاتية ، فإن الالهيات ـ وهي حجب ومساتير ـ ميدان أخصب لذلك لا يعدو البحث فيها ان يكون « علماً كلامياً » او « علماً جدلياً » .

ومهما أشاد « المعتزلة » بالعقل ، ومهما رفعوا من شأنه ؛ فمن البديهي : أن الميدان الذي يتخبط فيه العقل تخبطا لا نهاية له : إنما هو ميدان ما وراء الطبيعة .

ومن الواضح أن مذهب المعتزلة ، على ما فيه من روعة ، ودقة ، وجمال ، وعلى ما أداه من خدمات جليلة ، في ميدان المنطق الديني ، لا يقوم على أساس « معقول » .

ثم إذا كنت قد قرأت ما قيل عن مدينة المستقبل ، وما كتب عن المدينة الفاضلة ، فقد رأيت أنه ـ برغم إرادة الاغراب أو التجديد ـ لم تخرج تلك المدينة عما رأيته ، سوى أنه مكون تكويناً جديداً .

لا يخرج الخيال ـ إذن ـ في عناصره عن الواقع ، ولا يمكن للانسان ان يتخيل إلا المحس .

(ب) التخيل والبيئة . إذا قرأت تشبيهاً للعاب المرأة بماء غير آسن ، وللشيئين المتشابهين بأنهما كخفي بعير . فلا أظن أنه من العسير عليك أن تعلم الموطن الذي نبع منه هذان التشبيهان ، وربما تكون قد قرأت ما أجاب به « ابن الرومي » ، حينما عاب عليه بعضهم بأنه لا يتخيل كتخيل « ابن المعتز » ضاربين له مثلا ، تشبيه الهلال « بزورق من فضة أثقلته حمولة من عنبر » فأجاب:هذا يصف آنية بيته .

وأظنك تقر معي أيضاً ، أن البيئة العلمية في العصور الوسطى لم تكن تسمح باختراع « الراديو » فلم يخترع .

هذا وكثير غيره يرشدنا إلى ما للبيئة من أثر على التخيل ، وأن كل إنسان يتأثر تخيله بما في بيئته من صور طبيعية ، ومن ثروة ثقافية .

والأمر لا يقتصر على ذلك ، بل يتغير تخيل الشخص بتغير بيئته .

وكلما كثرت المثل العليا في بيئة ، وكلما سمت موازينها الأخلاقية ، كثر الرشد فيها ، وابتعد الخيال عن دائرة الآثام .

قد تقول : إن العقل ـ وهو أساس مذهب المعتزلة ، ومذهب العقليين عموماً ـ له مقاييسه وله موازينه التي لا يتطرق اليها الخلل . إن المنطق ، القديم منه والحديث : آلة تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في التفكير ، ولقد جاهدت الانسانية جهاداً طويلا ، حتى جعلت من الاستقراء والقياس أداتين للفصل بين الهدى والضلال ، والتفرقة بين العماية والعمياء والصواب والأصواب .

فالاستقراء والقياس ـ إذن ـ هما وسيلة العقل ، وهما فيصل التفرقة بين الغيّ والرشاد : فمن التجني على « المعتزلة وعلى العقليين ـ وقد اعتمدوا عليهما ـ ان نصم مذاهبهم بمجافاتها للطريق الأقوم .

إن وجهة النظر هذه تبدو ، وكأنها لا غبار عليها . بيد أنها عند النظرة الفاحصة تتزلزل وتنهار .

أما أولا : فلأن « المعتزلة » انفسهم ، والعقليين عامة ـ مع اعتمادهم على الاستقراء والقياس ـ قد اختلفوا فرقاً واحزاباً لا تحصى ، وكل فرقة أو شيعة تتبع رئيساً وصل به « استقراؤه » ووصل به « قياسه » إلى نتائج معينة تختلف ـ في قليل ، او في كثير ـ عن نتائج استقراء آخر ، وقياس مختلف .

وأما ثانياً : فلأن الفكرة ـ المنطق يعصم الذهن عن الخطأ في التفكير ، أو المنطق وسيلة التفكير الصحيح ، فكرة خرافية ، اكثر منها حقيقية ، وذلك يحتاج إلى تبيان :

إن المقاييس هي كما ذكرنا : الاستقراء ، والقياس .

أما الاستقراء ـ وهو أساس المفهومات العامة والقضايا الكلية ـ فإنه :

١ ـ مبني كله على الحس : إنه استقراء محسات ، إنه تتبع جزئيات ، لا تخرج عن نطاق المادة ، اما المساتير فهو بعيد عنها كل البعد ، إنها لا تدخل في دائرة اختصاصه : فهو عاجز عن ان يخترق الحجب ، ليصل إلى ما وراء الطبيعة .

٢ ـ ثم إن الاستقراء : تام[١] وناقص ، والتام ـ كما يعترف المناطقة ـ لا ثمرة له ، ولا فائدة فيه .

أما الناقص ـ وهو المهم في نظرهم ـ فإنه في رأيهم أيضاً ـ ظنيّ وهو ـ لذلك عرضة للتغيير ، في كل آونة .

« كل معدن يتمدد بالحرارة ، تلك قضية من قضايا الاستقراء ، إنها قضية عامة شاملة ، ولكن المعادن لم تكتشف بعد ، بأكملها ، ومن الجائز أن يكتشف في الغد معدن لا يتمدد بالحرارة ، انها إذن قضية مؤقتة ، ظنية ، يتبرأ منها اليقين الفلسفي .

« والعلم لا يعرف الكلمة الأخيرة في مسألة من مسائله ـ وإنما حقائقه كلها اضافية موقوتة ، لها قيمتها حتى يتكشف البحث عما يزيل هذه القيمة أو يغيرها[٢] .

وهكذا قضايا الاستقراء ، انها :

١ ـ خاصة بالطبيعة ، ولا شأن لها بما وراءها .

٢ ـ ظنية لا تعرف اليقين .

أما القياس :

١ ـ فإنه مبني على الاستقراء ، إذ هو منطوٍ دائماً على كلية استقرائية ، وما دامت قضايا الاستقراء ظنية ـ كما رأينا ـ وميدانها المحسات ، فنتائج القياس ظنية كذلك ، وميدانها المحسات .

---

(١) « الاستقراء : وهو حكم على كلي لوجوده في جزئيات ذلك الكلي : إما كلها : وهو الاستقراء التام الذي هو القياس المقسم . وإما أكثرها : وهو الاستقراء المشهور ، ومخالفته للقياس ظاهرة لأنه في القياس يحكم على جزئيات كلي لوجود ذلك الحكم في الكلي ، فالكلي يكون وسطاً بين جزأيه ، وبين ذلك الحلم الذي هو الأكبر ، وفي الاستقراء يقلب هذا ، فيحكم على الكلي بواسطة وجود ذلك الحكم في جزئياته » ، عن « البصائر النصيرية » .

(٢) مقدمة فجر الاسلام .

٢ ـ ثم إن المناطقة لا يشترطون في مقدمات القياس ، أن تكون مسلمة ، صادقة في نفسها ، وإنما يشترطون أن يسلمها المتجادلون فحسب ، وقد تكون كما يقول : صاحب « البصائر النصيرية » « منكرة كاذبة في نفسها » وفي هذه الحالة يكون القياس صحيحا ، ونتيجته باطلة .

وإذا كان الأمر كذلك فما فائدة القياس ؟

ما قيمته ، إذا كان لا يعول فيه إلا على ان تكون المقدمات مستوفية لشروط الانتاج ، بحيث تستلزم النتيجة ، وإن لم تطابق النتيجة الواقع ؟

ما قيمته إذا كان لا يحفل بصدق النتيجة أو كذبها .

إنك إذا قلت : الكثير من العلم ، يؤدي الى الاستقلال الفردي ، وكل ما يؤدي الى الاستقلال الفردي . مضر بالمجتمع ، فالكثير من العلم مضر بالمجتمع ، كان هذا قياساً صحيحاً في نظر المناطقة .

وإذا قلت : الكثير من العلم ، يؤدي إلى التماسك الاجتماعي ، وكل ما يؤدي الى التماسك الاجتماعي مفيد للمجتمع ، فالكثير من العلم مفيد للمجتمع ـ كان هذا أيضاً قياساً صحيحاً عند المناطقة ومع ذلك فالنتيحتان متعارضتان ! .

٣ ـ ومع هذا فالقياس استدلال دوري فاسد ، ذلك أن العلم بالنتيجة في نحو قولنا : « محمد إنسان وكل إنسان ناطق ، فمحمد ناطق متوقف على العلم بالكبرى ، والعلم بالكبرى متوقف على العلم بالنتيجة ، لأنك لا تستطيع ان تحكم بالناطقية على جميع افراد النوع الانساني ، إلا إذا تأكدت من ثبوت الناطقية لمحمد ، ولو كنت في شك من ذلك ، لما استطعت تعميم الحكم بالناطقية على جميع أفراد الانسان . وإذن تكون الكبرى : متوقفة على النتيجة ، والنتيجة متوقفة على الكبرى ، وعلى ذلك يكون القياس : استدلالاً دورياً فاسداً ، فلا يعول عليه .

٤ ـ وأخيراً ، فالمفروض أن نتيجة القياس جديدة كل الجدة ، إنها استنتاج مجهول ـ هو النتيجة ـ من معلوم ـ هو المقدمات .

ولكن النتيجة متضمنة في المقدمات ، انها ليست مجهولة ، والقياس لا يؤدي ، إذن ، الى معرفة جديدة ، أو إلى استنتاج مجهول من معلوم . إنه ـ إذا أردت الدقة ـ استنتاج معلوم من . . . معلوم .

تلك هي موازين العقل وسنزيد الأمر ـ أمر قصور العقل ـ ايضاحاً في فصل تال ـ وهي موازين لا غناء فيها ، ولا جدوى منها .

العقل ـ إذن ـ قاصر فيما يتعلق بالأخلاق ـ وهو قاصر على الخصوص فيما يتعلق بالالهيات .

ومن هنا كانت الحكمة في نزول الأديان .

ومن هنا كان السبب في اقتصارها على الأخلاق والالهيات .

وإذا كانت قد تحدثت في التشريع ، فان التشريع داخل في نطاق الأخلاق .

بيد أن الأديان اذا كانت قد اتخذت موقفاً حاسماً فيما يتعلق بتحديد الخير والشر ؛ فإنها ، في المغيبات : لم ترهق الانسان من أمره عسراً ، فتوضح له ما ليس في مقدوره ادراكه ، او تبين له ما يسمو عن التبيان .

أما هذا الذي يسمو عن التبيان ؛ فإنه ذلك النوع من المعرفة الذي لا يدخل في نطاق المحسات ، وبالتالي لا يدخل في نطاق العقليات أعني : المساتير .

وانه ليعجبني في هذا المقام قول « ابن عبد البر » المتوفى سنة ٤٦٣ هـ : « ان الله ليس كمثله شيء : فكيف يدرك بقياس أو بانعام نظر » .

لذلك رسمت الأديان في هذا المحيط اطاراً عاماً فقط ، وهذا الاطار العام نفسه مبني بعضه على الحس ، وهو داخل في الآيات المحكمات التي هي : أم الكتاب : (**لو كانَ فيهما آلهةٌ إلا اللهُ لَفَسَدَتا**) .

والعامي يقول عن المشاهدة : « المركب التي فيها رئيسان تغرق » .

أما بعضه الآخر فهو المتشابه (**فأمّا الذينَ في قُلُوبِهمْ زَيْغٌ فيتبعونَ**

ما تشابهَ منه ابتغاءَ الفِتْنَةِ وابتغاءَ تأويلِهِ ، وما يعلـمُ تأويلَـهُ إلا اللهُ ، والراسخونَ في العلمِ يقولونَ آمنّا بِه ، كلٌّ مِنْ عِنْدِ ربِّنا » .

وحكمة قدماء المصريين دقيقة كل الدقة إذ تقول :

« محال على من يفنى أن يزيل النقاب الذي تنقب به من لا يفنى » .

رسمت الأديان إطاراً عاما ، ولكن هذا الاطار لا يرضي النفوس الطلعة . التي أبت ـ خطأ ـ أن تعترف بحدود للعقل ، أو بقصور فيه ، فبحثت داخل هذا الاطار وخارجه ، فكان ما كان من تشعب ، وفرقة ، واختلاف .

إننا لا نشك في أن رؤساء الفرق الاسلامية ـ « معتزلة » كانوا أو « أشاعرة » « وشيعة » كانوا أم « سلفيين »ـ قد تشبعوا بايمان راسخ ، وحرارة دينية فائقة ، وعقيدة لاتزعزعها الأعاصير .

وقد اعتمدوا جميعاً على نصوص واحدة : كتاب الله ، وحديث رسوله . فلم كان الاختلاف ؟ ولم هذا التشعب الذي لا ينتهي ؟

لسنا ـ في تعليل ذلك ـ أمام مشكلة لا تحل ؛ إذ الشأن في ذلك إنما هو الشأن في كل الآراء الذاتية ، التي لا تخضع إلا إلى الاستعداد الشخصي وحده .

ولو استقامت أمور المسلمين الدينية ، لما حادوا عن موقف الامام « مالك » : التسليم المطلق :

« الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة » .

* * *

آراء ذاتية داخل الاطار العام ، آراء هي من صنع البشر ، آراء تتحد في نسبتها ـ من حيث القرب والبعد ـ إلى النصوص المقدسة إنها : (آراء » .

بيد أن النزعة التي صدرت عنها هذه الآراء ـ وهي الاستعداد الشخصي : نزعة مفرقة .

ثم إنها آراء غير مفهومة ، وكل من عالج ـ في إخلاص ـ تصور صفات

خارجة عن الذات ، أو تصور صفات هي الذات ، فإنه يقر معنا : أن ذلك انما : (عِلْمُهُ عِنْدَ رَبِّي) .

إن الطريق الأقوم ـ إذن ـ هو التسليم المطلق .

وهذا هو الايمان بمعناه الصحيح .

يقول الامام « الغزالي » .

« والتحقيق بالبرهان علم ، . .

والقبول مع التسامع والتجربة بحسن الظن : إيمان » .

ولكن ذلك ليس معرفة مباشرة .

لا شيء إذن مما سبق من وسائل المعرفة : يصل بنا إلى المعرفة المباشرة في محيط ما وراء الطبيعة .

وتلك هي النتيجة التي نريد من كل ما سبق الوصول إليها .

وإذا أردنا تلخيص ما نريد من ان نتتهي إليه قلنا .

(١) الحس عاجز عن الوصول بنا إلى المغيبات ، فإننا لا نحسها .

(٢) العقل ـ وهو مبني على الحس ـ: قاصر كذلك .

وإذن فعلم الكلام الذي لا يسير على نهج سلفي ـ وهو آراء من صنع البشر ـ ليس بدعة فحسب ، وانما هو ضلالة ، وهو عبث ، وهو انحراف عن سواء السبيل .

قال الامام « مالك »: الكلام في الدين أكرهه ، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه ، وينهون عنه : نحو الكلام في رأي « جهم » والقدر ، وما أشبه ذلك ولا احب الكلام الا فيما تحته عمل .

وقال الامام « أحمد » لا يفلح صاحب كلام أبداً ، ولا نكاد نرى أحداً نظر في الكلام الا وفي قلبه دغل .

وقال الامام « مالك »: أرأيت ان جاءه من هو أجدل منه ، أيدع دينه كل يوم

لدين جديد ؟

هل معنى ذلك : أن المعرفة ـ فيما يتعلق بالالهيات ـ: غير ممكنة ؟

هل معنى ذلك : ان الغطاء لا يمكن أن يكشف عن الحجب ؟ وأنـه لا سبيل الى المعرفة الحقيقية ؟

ذلك ما لا نقول به .

ما السبيل اذن الى المعرفة . . . ؟ .

ـ ٢ ـ

في وسيلة المعرفة

سيدنا رسول الله ، صلوات الله عليه وسلامه ، معجزة التاريخ ، وهو المنارة التي يهتدي بها الانسان كلما انبهمت الأمور ، أو ضلت الآراء .

وحياته قبل البعثة كحياته بعدها : عظة وعبرة ، وهداية ومثل أعلى لمن أراد الطريق الأقوم .

إن من يتدبر حياته ، صلوات الله وسلامه عليه ، قبل البعثة ، ولا يكون عنده فكرة صحيحة عن النبوة ، من حيث إنها لا تكتسب اكتساباً ، وإنما توهب من الله تعالى : يكاد يعتقد انه اقتنص الوحي اقتناصاً ، واضطره إلى النزول اضطراراً ، وأنه أبى إلا ان يظفر بما يريد ، فكان له ما أراد .

بيد أن الصواب هو أن الله اصطفاه ، وفضله على العالمين ، عندما حان الموعد الذي حددته العناية الالهية لتتجلى ، عن طريق اختياره رسولا .

يقول الامام « المراغي » رحمه الله :

« النبوة هبة لا تنال بالكسب ، لكن حكمة الله وعلمه : قاضيان بأن تمنح للمستعد لها ، القادر على حملها : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » .

ومحمد ، ﷺ : أعد لأن يحمل الرسالة للعالم أجمعه ، أحمره وأسوده ، انسه وجنه .

وأعد لأن يحمل رسالة أكمل دين .

ولأن يختم به الانبياء والرسل ، وليكون شمس الهداية وحده ، الى أن

تنفطر السماء ، وتنكدر النجوم ، وتبدل الأرض غير الأرض والسمـوات[1] أ. هـ .

أما هذا الاعداد ، فقد حاطه الله بعنايته التامة ؛ إنه أعد من ناحية أسرته : أعني من ناحية الوراثة ، وأعده من ناحية فطرته : أعني طبيعته الشخصية .

أما من ناحية أسرته ، فهذا جده « عبد المطلب » كان « سمح الطبع رضيّ النفس ، سخيّ اليد ، حلو العشرة ، عذب الحديث . وكان عبد المطلب أيضاً قويّ الايمان ، تملك قلبه ، وتسيطر على نفسه ، نزعة دينية حادة عنيفة ، ولكنها غامضة ، يحسها ، ويخضع لها ، ولكنه لا يتبينها ، ولا يستطيع لها فهما ولا تفسيراً[2] . .

« كان فتى من فتيان قريش ، ولكنه يمتاز من بقية فتيان قريش » :

فيه ذكاؤهم وفطنتهم ، وفيه إباؤهم وعزتهم ، ولكن فيه دعة ، لم تكن مألوفة عندهم ، وفيه شدة من الدين ، قلما كانوا يرضونها ، أو يبسمون لها .

على أن خصلة اخرى ميزته منهم أشد التمييز : فلم يكن يصدر في حياته ـ كما كانوا يصدرون ـ عن الروية والتفكير ـ وحسن التدبر ، وانما كانت تدفعه إلى العمل ، والاضطراب في الحياة ، قوة خفية ، يحسها ؛ ويأبى عليها ويغلو في الاباء ، ولكنه يضطر إلى أن يذعن لها ، ويصدر بامرها[3]» .

وكانت هذه القوة تصدر إليه امرها في أشكال مختلفة : تدفعه إلى العمل حيناً ، وكأنها ارادته الخاصة ، قد ملكت عليه حسه وشعوره ، فهو لا يستطيع عنها انصرافاً ، ولا يملك لها خلافاً .

وتتمثل له حيناً آخر شخصاً واضح المخايل ، بين الصوت ، يلم به إذا اشتمله النوم ، فيأمره أن يأتي كذا وكذا من الأمور .

---

(١) من مقدمة « حياة محمد » للدكتور هيكل .

(٢) انظر كتاب . « على هامش السيرة » .

(٣) انظر كتاب«على هامش السيرة ».

وكان في هذا الصوت غموض ، وكان في هذا الصوت إبهام .

وكان في هذا الصوت جلال ، مصدره هذا الغموض والابهام ، وكان الفتى ينكره ، ويرتاع له ، وكان الصوت يغمره ، ويلح عليه . وكان الفتى يخاف هذا الصوت ويهواه ، وكان هذا الصوت يتجنب الفتى يؤيسه من نفسه ، ويلم به فيكثر الالمام ، ولم يكن هذا الصوت يقع في أذن الفتى بالفاظ كالتي تقع في آذان الناس ، إنما كان يصطنع ألفاظاً خاصة ، غريبة الجرس ، غريبة المعنى »[1] أ.هـ .

أما والده ـ « عبد الله »ـ فقد كان صورة الأصل ـ من جده ، وكان شعاره « أما الحرام فالممات دونه » .

وتقول له « فاطمة الخثعمية » : إني لأعرف فيك نسك أبيك .

قبيلته : قريش : وأسرته : « بنو هاشم » وجده : « عبد المطلب » ، سيد قريش إذ ذاك ، ووالده « عبد الله » : فكان هو « محمداً » .

ولقد اختاره الله للرسالة ، ولكنه تعالى : اصطنعه لنفسه ، قبل أن يختاره . أجل ! وهذه الفترة من حياته التي سبقت البعثة . كانت فترة جهاد وصراع روحي هادىء بكل معنى الهدوء ، عنيف أشد العنف ، مستمر لا ينقطع ، فيه الخوف ، وفيه الرجاء وفيه الكثير من الأمل الوثاب ، الذي يشحذ العزيمة ، ويسد على اليأس القانط كل منفذ . إن هذه الفترة من حياته كانت ـ على حد تعبير « الجنيد » في تعريف التصوف ـ عنوة لا صلح فيها .

كان صلوات الله وسلامه عليه ، يتوج كل عام ، جهاده الروحي المتصل ، بشهر يقضيه في غار حراء : حيث الخلوة التامة ، وحيث التجرد المطلق أو شبه المطلق ، عن كل ما سوى الله ، وهناك في سجوة الليل ، او في رائعة النهار : يحاول محمد أن يحطم الحجب ، وأن يخترق المساتير . وأن ينفذ ببصيرته إلى عالم الغيب ، فيصل إلى سدرة المنتهى ، والى قاب قوسين أو أدنى . حتى يشاهد الجمال في سنائه ، والجلال في عظمته وكبريائه وجلاله .

---

(١) انظر كتاب « على هامش السيرة » .

ها هو ذا الرسول صلى الله عليه وسلم ، يبذل مجهوداً جباراً ، لا يكاد الانسان يتصوره ، فضلا عن أن يأتي بمثله .

وها هو ذا ، يرى الهدف بعيدا لا يكاد الانسان يفهمه ، فضلا عن أن يصل إليه .

ها هو ذا ، يرى الطريق وعثاء ، صعبة المرتقى . . بيد أن ذلك كله لم يكن إلا ليزيده عزما على عزم ، وارادة على ارادة ، ونشاطا مضاعفا .

إنه الجهاد الأكبر ، على حد تعبير الأثر المشهور ، عن جهاد النفس لتتزكى

وتمضي السنون ، بطيئة سريعة في آن واحد ، وجهاد الرسول ﷺ لا يفتر حتى أصبح ، أو كاد ، روحا خالصة ، أو قبسا من نور الله ، وانتهى به الأمر الى قرب ، يقول عنه الامام « الغزالي » إنه :

« أول حال رسول الله عليه الصلاة والسلام : حيث أقبل على جبل حراء حيث بتل ، حين كان يخلو فيه بربه ويتعبد ، حتى قالت العرب : « إن محمداً عشق ربه ! » .

ثم كانت الرسالة ، وكانت المعجزة التي غيرت مجرى التاريخ :

(اقرأ باسمِ ربِّكَ الذي خَلَقَ ، خَلَقَ الانسانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقرأ وربُّكَ الأكرمُ ، الذي عَلَّمَ بالقَلَمِ ، عَلَّمَ الانسانَ ما لمْ يَعْلَمْ) .

ويقول الدكتور « هيكل » :

وجد « محمد » فيه (في التحنث) خير ما يمكنه : من الامعان فيما شغلت به نفسه من تفكير ؛ وتأمل ، كما وجد فيه طمأنينة نفسه ، وشفاء شغفه بالوحدة يلتمس أثناءها الوسيلة إلى ما لم يبرح شوقه يشتد إليه ، من نشدان المعرفة ، واستلهام ما في الكون من أسبابها .

وكان بأعلى جبل حراء ـ على فرسخين من شمال مكة ـ غار ، هو خير ما يصلح للانقطاع والتحنث ، فكان يذهب إليه طوال شهر رمضان ، من كل سنة ، يقيم به مكتفيا بالقليل من الزاد يحمل إليه ، ممعنا في التأمل ،

بالعبادة ، بعيدا عن ضجة الناس وضوضاء الحياة ، ملتمسا الحق ، والحق وحده .

ولقد كان يشتد به التأمل ابتغاء الحقيقة حتى لقد كان ينسى طعامه ، وينسى كل ما في الحياة ؛ لأن هذا الذي يرى في حياة الناس مما حوله : ليس حقاً . .

« وشارف « محمد » الأربعين ، وذهب إلى غار حراء يتحنث ، وقد امتلأت نفسه إيماناً بما رأى في رؤاه الصادقة ؛ وقد خلصت نفسه . . وقد أدبه ربه ، فأحسن تأديبه ، وقد اتجه بقلبه إلى الصراط المستقيم ، وإلى الحقيقة الخالدة وقد اتجه إلى الله بكل روحه ، أن يهدي قومه ، بعد أن ضربوا في تيهاء الضلال ، وهو في توجهه هذا يقوم الليل ، ويرهف ذهنه وقلبه ، ويطيل الصوم ، وتثور به تأملاته ، فيتحدر من الغار إلى طريق الصحراء ثم يعود إلى خلوته ، ليعود فيمتحن ما يدور بذهنه ، وما يتبين له في رؤاه .

ولقد طالت به الحال ستة أشهر ، حتى خشي على نفسه عاقبة أمره ، فأسر بمخاوفه إلى « خديجة » وأظهرها على ما يرى ، وأنه يخاف عبث الجن به فطمأنته الزوج المخلصة الوفية ، وجعلت تحدثه بأنه الأمين ، وبأن الجن لا يمكن أن تقترب منه ، وإن لم يدر بخاطرها ، ولا بخاطره : ان الله يهيىء مصطفاه بهذه الرياضة الروحية ، الى اليوم العظيم ، وإلى النبأ العظيم ، يوم الوحي الأول ، يهيئه بها الى البعث والرسالة .

وفيما هو نائم بالغار يوما جاءه ملك وفي يده صحيفة فقال له : « اقرأ »[1] .

***

هذه الحياة التي هداه الله لها ـ لا علم الكلام ولا الفلسفة العقلية ـ هي التي رسمت لنا الطريق إلى الله : طريق الكشف ، طريق الالهام ، طريق البصيرة ، بل طريق المشاهدة ، على ما يرى الصوفية .

وهذه الحياة التي علمناها عن الرسول ﷺ اجمالا : قد فصلها الصوفية

---

(١) من حياة محمد (للدكتور هيكل) .

أدق تفصيل ، وبينوها بياناً « سيكولوجيا » غاية في الاحكام : يتدرج مع الانسان خطوة ، خطوة ، حتى يصل بنا إلى درجة ـ لا نقول : إنها النهاية ، إذ ليس لمعرفة الله نهاية ـ يكون ما بعدها بعيداً كل البعد عن إدراك الطبائع البشرية العادية ، فلا يمكن التعبير عنه بلسان المقال .

وهذا الطريق سماه الصوفية : معارج القدس ، وسموه : « منازل السالكين » ، و« مدارج السالكين » و« منازل الأرواح » ، وهو عبارة عن المقامات والأحوال التي يسلم كل مقام منها إلى ما بعده وكل حال منها إلى الذي يليه ، حتى يصل الانسان إلى القرب ، والمشاهدة . ويستغرق في ملكوت يسمو على الوصف .

يقول الامام « الغزالي » : « ومن أول الطريق تبتدىء المكاشفات . والمشاهدات حتى انهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة ، وأرواح الأنبياء ، ويسمعون منهم أصواتاً ، ويقتبسون منهم فوائد . ثم يترقى الحال : من مشاهدة الصورة والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق » .

- ٣ -

الامام الغزالي يرسم طريق المعرفة

١ - إن البحث العقلي في الالهيات أمر طبيعي بالنسبة للمفكرين الذين نشأوا في أقاليم لا يوجد فيها كتاب مقدس ، إنه من الطبيعي أن يوجد في هذه الأقاليم رجال يحاولون ابتداع مذهب فيما وراء الطبيعة : ذلك أن الانسان بفطرته طلعة ، وهو يحاول دائماً معرفة العلل والأسباب ، ويتشوف إلى رؤية المجهول ، إلى الكف عن عالم الغيب .

أما في البيئات التي فيها نص مقدس ، يحتفظ بنضرته ولا يشك إنسان في صحته ، فإنه من غير الطبيعي أن ينشأ بجوار هذا النص المعصوم اختراعات ذهنية تتصل بعالم الغيب . ذلك أن ثمرة التفكير الانساني عرضة للخطأ ، والخطأ في الذات الالهية او في الصفات الالهية ، الخطأ في عالم الغيب على وجه العموم فيه خطورة كبيرة .

الطريق المستقيم - إذن - هو ألا ينشأ بجوار النص المقدس اختراع عقلي يتصل بعالم الغيب تلافياً لما عساه أن يكون في نتائج البحث العقلي من أخطاء .

التسليم للنص المقدس - اذن - هو المبدأ السليم ، عند ذوي العقول الحكيمة ، وقد حدث مرة أن أخذ « سقراط » ورفقاؤه يتحدثون عن خلود النفس ، ويحاولون اقامة الأدلة على ذلك ، فلا يكاد يستقيم لهم الأمر في يقين جازم ، ثم يسكت « سقراط » ويسكت الجميع وبعد هنيهة يقول « سيمياس » : « إن العلم بحقيقة مثل هذه الأمور ممتنع أو عسير جداً في هذه الحياة ، ولكن من الجبن اليأس من البحث ، قبل الوصول الى آخر مدى العقل ، فيجب اما الاستيثاق من الحق ، وإما - ان امتنع ذلك - استكشاف الدليل الأقوى ، والتذرع به في اجتياز الحياة ، كما يخاطر المرء

بقطع البحر على لوح من خشب ، ما دام لا سبيل لنا إلى مركب أمتن وآمن ، أعني الى وحي إلهي[1] » .

المركب الأمتن والآمن في رأي « سيمياس » هو الوحي الالهي ، ومعنى ذلك ـ في وضوح لا لبس فيه ـ: أنه لو كان لدى « سيمياس » أو لو كان في العهد اليوناني نص مقدس صحيح ، لاستسلم إليه الجميع دون نقاش أو جدل . أما استعمال العقلي في عالم الغيب ؛ فإنه في أغلب الأحايين مخاطرة لقطع البحر على لوح من خشب ، وهيهات أن ينجو من يفعل ذلك !

واستسلم المسلمون الأوائل للنص المقدس ، متبعين في ذلك الطريق القويم ، ومضى الصدر الأول للاسلام دون جدال في العقيدة ، ودون محاولة عقلية للاختراع فيما وراء الطبيعة ، او بتعبير آخر ، دون محاولة عقلية لتحديد ما لا يحد ، وتقييد ما لا يقيد .

٢ ـ وكان أول انحراف منظم قوي عن هذا المبدأ السليم هو الطريق الذي سلكه « واصل بن عطاء » « وعمرو بن عبيد » ومدرستهما . إنهم لم يتعمدوا انحرافاً ، ولا خروجاً عن الطريق السويّ ، وإنما خيل إليهم أن عملهم إنما هو خدمة للاسلام وخدمة للمسلمين ، ولكنهم بعملهم هذا حكموا العقل القابل للخطأ ، في الدين المعصوم ، بل لقد أخذوا في وضع قانون تشريعي يفرض على الله سبحانه وتعالى الفروض ، لقد أخذوا يوجبون عليه ، ويمنعون عليه ، فهو سبحانه ـ على رأيهم ـ يجب عليه أن يفعل كذا . . ويجب عليه ألا يفعل كذا ، وحكموا ، هكذا ، عقولهم في الدين وفي الله . وما دام عقل كل إنسان يختلف عن عقل الآخر ، فقد انقسمت المدرسة الاعتزالية إلى مدارس ومذاهب لا تكاد تحصر .

وكانت النتيجة لتحكيم العقل في الدين ، أن بدأ الافتراق والاختلاف العقدي في البيئة الاسلامية .

لم يستسلم « المعتزلة » استسلام المؤمن المعترف بعجزه وقصوره تجاه الذات الالهية ، كما فعل الصدر الأول ، وإنما وثقوا بعقولهم الثقة

(١) « يوسف كرم » : تاريخ الفلسفة اليونانية .

المطلقة ، فكان من نتيجة ذلك الشقاق والتفرق .

وحينما بدأ المسلمون في أوائل العصر العباسي يترجمون الثقافات الاجنبية ، فانهم لم يستسيغوا ترجمة الالهيات والأخلاق ، ذلك أن يقينهم المطلق في نصهم المقدس جعلهم يستبهينون بكل ما عداه مما يتصل بما وراء الطبيعة أو بالأخلاق . وكان موقفهم ذلك سليما كل السلامة ، ذلك أن كل فكرة أو كل رأي متصل بما وراء الطبيعة يخالف ما أتى به الوحي ، إما أن يكون خرافة ، أو يكون ضلالا عقلياً ، والحياة الجادة لا تستسيغ انفاق الزمن في دراسة خرافات ، أو أضاليل عقلية .

ولكن « المأمون » ومن ورائه « المعتزلة » فعلوا ما امتنع جمهرة المسلمين عن فعله ، فترجموا إلهيات اليونان وأخلاق اليونان ، فأصبح بذلك الاختراع العقلي ، أو البحث العقلي ، أو الابتداع العقلي في الدين ، ارستقراطية عقلية ، يجري وراءها الكثيرون .

٣ ـ ونشأ الفلاسفة ، وأخضع الفلاسفة كل شيء لعقولهم ، وأخذوا يرسمون القواعد ، ويقيمون الأدلة ، ويبتعدون كثيراً او قليلا عما فهمه المسلمون عن رسولهم ، وعما استشعروه من الروح العامة للاسلام على وجه العموم .

والواقع أن إقامة ما وراء المادة على العقل ، إنما هو شهوة أو هوى، ذلك أنه منذ ابتداء العهد اليوناني وهذا النهج من البحث في اخفاق متتابع ، وفي فشل مستمر ، وفي تناقض ملازم ، ورجاله يناقض بعضهم البعض ، ويهدم كل ما بناه الآخرون ، وعلى توالي الزمن تنهار الآراء ، وتنشأ آراء أخر ، لا تلبث ان تنهار ، وهكذا دواليك .

ومع رؤية كل باحث عقلي لهذه النتائج المنهارة باستمرار ، فإن ذلك لم يقم عظة واعتباراً في نظرهم ، واستمروا على الطريقة العقلية برغم رؤيتهم في وضوح مآل بحوث سابقيهم المتهافتة .

٤ ـ ونشأ الامام « الغزالي » :

وكان من توفيق الله أن الامام « الغزالي » منح طبيعة طلعة ، وذهناً ثاقباً ،

وتفكيراً حكيماً ، وأتيحت له تربية دينية سليمة منذ نشأته الأولى ، وأخذ تفكيره يجول في جميع المناحي الدينية . فلاحظ أن اختلاف الخلق في الأديان والملل ، ثم اختلاف الأئمة في المذاهب على كثرة الفرق ، وتباين الطرق : بحر عميق غرق فيه الأكثرون ، وما نجا منه الا الأقلون فاقتحم لجة هذا البحر العميق ، وخاض غمرته خوض الجسور . لا خوض الجبان الحذور ، وتوغل في كل مظلمة ، وتهجم على كل مشكلة ، وتقحم كل ورطة ، وتفحص عن عقيدة كل فرقة . وكان نتيجة ذلك كله أن فقد ثقته في العلم ، ووْجد نفسه عاطلا عن علم يقيني ، فأراد أن يبدأ من البسائط ، وأن يجعل أساسه قوياً متينا ، حتى ينتهي إلى اليقين المطلق فيما يعلم .

ولكنه اختبر الثقة في المحسات فلم تسمح نفسه بالتسليم باليقين فيها ، وامتحن الثقة بالعقليات فانهارت العقليات[1] .

ومر ـ إذن ـ الامام « الغزالي » بتجربة قاسية ، هي تجربة الشك في الحسيات والعقليات ، فاستمر على ذلك شهرين ، وهو فيهما على مذهب السفسطة بحكم الحال ، لا بحكم النطق والمقال[2] .

ثم شفاه الله تعالى من ذلك المرض ، وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال ، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها على أمن ويقين .

ولم يكن ذلك بنظم دليل ، وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر . وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف[3]

خرج الامام « الغزالي » من هذه التجربة على نور من ربه ، وعلى بصيرة من امره ، فحاول ما استطاع أن يرسم الطريق الصحيح للشغوفين بالمعرفة ، والمتطلعين الى الهداية ، والمستشرفين الى العلم بالملأ الأعلى .

---

(١) المنقذ من الضلال :

(٢) المنقذ من الضلال .

(٣) المنقذ من الضلال .

لقد أراد أن يسلك الطريق الذي يرضي اتباعه الله ورسوله . أراد أن يرسمه للحيارى والمتطلعين إلى الهدى ، والشاكين الآملين في اليقين ، وللمسترشدين الذين يريدون أن يعتصموا بحبل الله المتين .

أراد أن يرسم هذا الطريق بعد تجربة مر بها ، فرسمه في ثقة المجرب ، وفي احكام الخبير :

ان الأساس الخادع الذي لا يعدو أن يكون هوة عميقة يتردى فيها الكثيرون انما هو ارادة تشييد ما وراء الطبيعة على العقل ، فما العقل بالنسبة إلى ما وراء الطبيعة الا السراب الخادع ، الذي غرر بكثير من الظامئين إلى معرفة الغيب .

ثم إن هذا الاتجاه خطر على الدين نفسه :

أنه من جانب انصراف عن النص الالهي الى العقل .

ومن جانب آخر اقامة مصدر لمعرفة الغيب غير النبوة .

وفي ذلك ـ لا شك ـ صرف للناس عن التأمل في النص المقدس ، كمصدر لمعرفة الالهيات ، وفيه كذلك تقليل من شأن النبوة .

وهجم الامام « الغزالي » بكل ما يستطيع على هذا النهج ، ولم يفتر قط عن مهاجمته منذ أن ألف كتابه القيم : « تهافت الفلاسفة » إلى أن انتهت به الحياة .

ولقد كان كتابه هذا محاولة جريئة كل الجرأة ، موفقة كل التوفيق ، وما كان المقصد الأول والهدف الأساسي لهجومه ، هو هدم الآراء في نفسها ، اذ ان بعضها صحيح موافق للدين ، وإنما كان هدف الامام هدم المنهج العقلي الذي استندت إليه هذه الآراء ، فخلود النفس مثلا رأي يقول به الامام « الغزالي » ، ويقول به الفلاسفة ، ولكن الامام حمل معوله ، وأخذ يهدم بيد قوية المسلك العقلي الذي أثبتت به الفلاسفة خلود النفس : فانهارت أدلتهم وتهافتت .

لقد فعل ذلك مع ايمانه بالخلود .

وهو لم يلتزم في هذا الكتاب إلا تكدير مذهبهم ، والتغيير في وجوه أدلتهم ، مما يبين تهافتهم[1]،ومقصوده ، تنبيه من حسن اعتقاده في الفلاسفة ، وظن أن مسالكهم نقية عن التناقض ، ببيان وجوه تهافتهم[2] » .

ويقول : « « أنا لا أدخل في الاعتراض عليهم إلا دخول مطالب منكر » . لا دخول مدع مثبت ، فأبطل عليهم ما اعتقدوه مقطوعاً بالزامات مختلفة ، فألزمهم تارة مذهب المنزلة ، واخرى مذهب الكرامية ، وطوراً مذهب الواقفية ، ولا أنتهض ذاباً عن مذهب مخصوص[3]» .

ويقول الأستاذ « بلاسيس » بحق : إن « الغزالي » حينما سمى كتابه : « تهافت الفلاسفة » كان يريد أن يمثل لنا أن العقل الانساني يبحث عن الحقيقة ويريد الوصول اليها ، كما يبحث البعوض عن ضوء النهار ، فإذا ابصر شعاعاً يشبه نور الحقيقة انخدع به ، فرمى نفسه عليه ، وتهافت فيه ، ولكنه يخطىء مخدوعاً بأقيسة منطقية خاطئة فيهلك كما يهلك البعوض .

فكأن « الغزالي » يريد أن يقول : إن الفلاسفة خدعوا بأشياء اسرعوا اليها بلا إعمال روية ، فتهافتوا ، وهلكوا الهلاك الأبدي[4] » .

٥ـ والمعرفة عند الفلاسفة العقليين مصدرها ـ إذن ـ العقل ، والعقل وحده . بيد أن الامام « الغزالي » يرى عن تجربة أن وراء العقل طوراً آخر ، تنفتح فيه عين أخرى ، يبصر بها الغيب ، وما يكون في المستقبل ، وأموراً أخرى العقل معزول عنها كعزل قوة التمييز[5] عن ادراك المعقولات وكعزل قوة الحس عن إدراكات التمييز وهناك ـ إذن ـ البصيرة ، وموضوعها الذي ينكشف لها إنما هو الغيب .

---

(١) تهافت الفلاسفة
(٢) المصدر نفسه .
(٣) المصدر نفسه .
(٤) تاريخ الفلسفة الاسلامية ترجمة الدكتور « ابو ريده »
(٥) المنقذ من الضلال .

وإذا تساءلنا مع الامام « الغزالي » عن مراتب المعرفة بالغيب التي هي الايمان فإننا نجده يحدد ثلاث مراتب :

١ ـ المرتبة الأولى ايمان العوام : وهو إيمان التقليد المحض .

٢ ـ المرتبة الثانية : إيمان المتكلمين ، وهو ممزوج بنوع استدلال ودرجته .
ـ حسبما يرى الامام ـ قريبة من درجة « **إيمان العوام** »

٣ ـ المرتبة الثالثة إيمان العارفين ، وهو المشاهد بنور اليقين .

ولا شأن لنا في حديثنا هذا بالمرتبة الأولى ، أما المرتبة الثانية ، وهي مرتبة المتكلمين . وهم يدعون أنهم أهل الرأي والنظر ، أو أرباب البحث والاستدلال فانهم يشاركون الفلاسفة بهذا الاعتبار في منهج البحث . والامام « الغزالي » يرى أن درجتهم قريبة من درجة العوام .

وهو من جانب آخر ، لا يرى في منهج المتكلمين ما يؤدي إلى كشف الحقائق ، انه يقول ـ حرفياً ـ عن علمْ الكلام : « وأما منفعته فقد يظن أن فائدته كشف الحقائق ومعرفتها على ما هي عليه ، وهيهات ، فليس في الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف . ولعل التخبيط والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف وهذا إذا سمعته من محدث أوحشوي ، ربما خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا ، فاسمع هذا ممن خبر الكلام ثم قلاه بعد حقيقة الخبرة وبعد التغلغل فيه الى منتهى درجة المتكلمين ، وجاوز ذلك إلى التعمق في علوم أخر ، تناسب نوع الكلام ، وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود[1] .

ويرى في موضع آخر أن المتكلم لا يزيد على العامي إلا في صنعة الكلام ولأجله سميت صناعته كلاماً[2] .

أما المرتبة العليا فإنها الهدف الأسمى ، وهي مقصد الطالبين ، ومطمح

---

(١) الاحياء ص ١٩٨ .
(٢) الاحياء ص ٨٧ .

نظر الصديقين ، إنها مشاهدة روحية ، إنها يقين مطلق ، إنها المشاهدة بنور اليقين .

٦ ـ ولكن مشاهدة ماذا ؟ ويقين في ماذا ؟ ما هو موضوع هذه المرتبة ؟ إنه ـ إذا أردنا الاجمال ـ الغيب .

أما إذا أردنا شيئاً من التفصيل فإنه أمور كثيرة ، كان يسمع العارف من قبل أسماءها فيتوهم لها معاني مجملة غير متضحة ، فتتضح إذ ذاك ، وتحصل المعرفة .

بالله سبحانه وبصفاته الباقيات التامات وبأفعاله ، وبحكمته في خلق الدنيا والآخرة ، ووجه ترتيبه الآخرة على الدنيا .

والمعرفة بمعنى النبوة والنبي ، ومعنى الوحي ، ومعنى الشيطان ، ومعنى لفظ الملائكة ، وكيفية معاداة الشياطين للانسان ، وكيفية ظهور الملك للأنبياء ، وكيفية وصول الوحي اليهم ، والمعرفة بملكوت السموات والأرض ، ومعرفة القلب ، وكيفية تصادم جنود الملائكة ، والشياطين فيه ، ومعرفة الفرق بين لمة الملك ولمة الشيطان ، ومعرفة الآخرة ، والجنة والنار ، وعذاب القبر ، والصراطوالميزان ، والحساب ومعنى قوله تعالى :

(اقرأ كِتابَك كَفَى بِنفْسِكَ اليومَ عليكَ حسيباً) ومعنى قوله تعالى : (وإنَّ الدارَ الآخرةَ لهيَ الحيوانُ لَوْ كانوا يَعْلَمُونَ) .

ومعنى لقاء الله عز وجل ، والنظر إلى وجهه الكريم ، ومعنى القرب منه والنزول في جواره ، ومعنى حصول السعادة بمرافقة الملأ الأعلى ، ومقارنة الملائكة والنبيين ، ومعنى تفاوت أهل الجنان ، حتى يرى بعضهم البعض كما يرى الكوكب الدري في السماء . إلى غير ذلك مما يطول تفسيره[1] .

ذلك بعض موضوع الغيب الذي يتطلع إلى معرفته ـ دون جدوى ـ المتكلمون والفلاسفة .

ولأنهم لم يتخذوا إليه السبيل الصحيح ، فقد اختلفوا فيه .

---

(١) الاحياء ص ٣٤ ، ٣٥

لقد اختلفوا في معاني هذه الأمور بعد التصديق بأصولها مقامات شتى ، فبعضهم يرى أن جميع ذلك أمثلة ، وأن الذي أعده الله لعباده الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وأنه ليس مع الخلق من الجنة إلا الصفات والأسماء .

وبعضهم يرى أن بعضها أمثلة ، وبعضها يوافق حقائقها المفهومة من ألفاظها .

وكذلك يرى بعضهم أن منتهى معرفة الله عز وجل الاعتراف بالعجز عن المعرفة .

وبعضهم يدعي أموراً عظيمة ، في المعرفة بالله عز وجل .

وبعضهم يقول حد معرفة الله عز وجل ما انتهى إليه اعتقاد جميع العوام وهو أنه موجود ، عالم ، قادر ، سميع ، بصير ، متكلم .

اختلف الناس هذا الاختلاف ، لأنهم لم يتبعوا النهج الصحيح في معرفة الغيب ، وهذا النهج الصحيح إنما هو جلاء البصيرة .

ولو اتبعوا الكشف عن البصيرة لارتفع الغطاء حتى تتضح للانسان جلية الحق في هذه الأمور اتضاحاً يجري مجرى العيان الذي لا يشك فيه ، وهذا ممكن في جوهر الانسان[1] .

أهذا ممكن حقاً في جوهر الانسان ؟

إنها دعوى من الامام « الغزالي » تحتاج إلى اثبات ، وهي دعوى ينكرها الكثيرون .

ولكن الامام « الغزالي » يرى أن الدليل القاطع ، الذي لا يقدر أحد على جحده أمران :

أحدهما : عجائب الرؤيا الصادقة ، فإنه ينكشف بها الغيب ، وإذا جاز ذلك في النوم ، فلا يستحيل أيضاً في اليقظة ، فلم يفارق النوم اليقظة إلا في

---

(١) الاحياء ص ٣٤ ، ٣٥

ركود الحواس ، وعدم اشتغالها بالمحسات ، فكم من مستيقظ غائص لا يسمع ولا يبصر لاشتغاله بنفسه .

والثاني : إخبار رسول الله ﷺ عن الغيب وأمور في المستقبل ، وإذا جاز للنبي ﷺ ، جاز لغيره ، إذ النبي عبارة عن شخص كوشف بحقائق الأمور ، وشغل باصلاح الخلق فلا يستحيل أن يكون في الوجود شخص مكاشف بالحقائق ولا يشغل باصلاح الخلق . وهذا لا يسمى نبياً . بل يسمى ولياً ، فمن آمن بالأنبياء وصدق بالرؤيا الصحيحة ، لزمه ـ لا محالة ـ أن يقر بالبصيرة ، أو بتعبير آخر ان يقر بباب للقلب ينفتح على عالم الملكوت ، هو باب الالهام والنفث في الروع والوحي[1] .

والامام « الغزالي » يتشبث بالرؤيا ، كبرهان ودليل ، على أن هناك آلة للمعرفة غير الحس والعقل ، ويردد ذلك في كثير من كتبه.أنه يتحدث في المنقذ عن النبوة فيقول : « وقد قرب الله تعالى ذلك على خلقه ، بأن أعطاه نموذجاً من خاصية النبوة وهو النوم ، إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب ، إما صريحاً ، وإما في كسوة مثال يكشف عن التعبير ، وهذا ولو لم يجربه الانسان من نفسه ، وقيل له : إن من الناس من يسقط مغشياً عليه كالميت ، ويزول عنه إحساسه وبصره ، فيدرك الغيب ، لأنكره وأقام البرهان على استحالته ، وقال : القوى الحساسة من أسباب الادراك ، فمن لا يدرك الأشياء مع وجودها وحضورها فبألا يدركها مع ركودها أولى وأحق وهذا نوع قياس يكذبه الوجود والمشاهدة[2] ».

ولكن « الغزالي » لا يكتفي بهذين الوجهين من الاستدلال ، بل يأتي بشواهد الشرع ؛ ويذكر التجارب والحكايات ، أما الشواهد ـ فيما يرى ـ فهي قوله تعالى : (والذينَ جاهَدُوا فينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلنا)[3] وقوله سبحانه : (يا أيُّها الذينَ آمنوا إنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فرقاناً)[4] . قيل

---

(١) الاحياء ص ٣٨٩ .

(٢) المنقذ ص ١٣٤ .

(٣) سورة العنكبوت آية : ٦٩ .

(٤) سورة الأنفال آية : ٢٩ .

نوراً : يفرق به بين الحق والباطل ؛ ويخرج به من الشبهات ؛ وقوله ﷺ : « من عمل بما علم ، ورثه الله علم ما لم يعلم » .

وسئل ﷺ عن قوله تعالى : (أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ للاسلامِ فَهُوَ على نورٍ من رَبِّه . .)[١] ما هذا الشرح ؟ فقال : هو التوسعة . إن النور إذا قذف به إلى القلب ، اتسع له الصدر ، وانشرح .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إن من أمتي محدثين ومعلمين ومكلمين ؛ وإن عمر منهم » .

والمحدث هو الملهم ؛ والملهم هو الذي انكشف له الحق في باطن قلبه ، من جهة الداخل ، لا من جهة المحسات الخارجية .

والقرآن مصرح بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف : (وَمَنْ يُؤْمِنْ باللهِ يهدِ قلبَهُ)[٢] (أوَ مَنْ كانَ مَيْتاً فأحييناهُ وَجَعَلنا له نوراً ، يمشي بهِ في النّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ في الظُّلُماتِ ليس بخارجٍ منها)[٣] (أفمن شَرَحَ الله صدره للاسلامِ فَهُوَ على نورٍ من ربِّهِ) ؟

ولم يكن علم « الخضر » عليه السلام علماً حسياً ، أو عقلياً . وإنما هو العلم الرباني . واليه الاشارة بقوله تعالى : (وَعَلّمْناهُ مِنْ لَدُنّا عِلْماً[٤]) .

كيف تنجلي البصيرة ؟ كيف يتأتى الكشف والالهام والنفث في الروع ؟ كيف تتأتى معرفة الغيب معرفة مباشرة ؟

إن الطريق إلى ذلك إنما هو تقديم المجاهدة . ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها . والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى .

ومهما حصل ذلك كان الله هو المتولي لقلب عبده ، والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم .

---

(١) سورة الزمر آية : ٢٢

(٢) سورة التغابن آية : ١١

(٣) سورة الأنعام آية : ١٢٢

(٤) الاحياء ص ٤١ ، ٤٣

وإذا تولى الله امر القلب فاضت عليه الرحمة ، وأشرق النور في القلب ، وانشرح الصدر ، وانكشف له سر الملكوت ، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة ، وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية ، وقال تعالى : (**والذينَ جاهَدُوا فينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلنا**) .

فليس على العبد إلا الاستعداد بالتصفية المجردة واحضار الهمة ، مع الارادة الصادقة والتعطش التام والترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله تعالى من الرحمة .

وهو بفعله هذا يصير متعرضاً لنفحات رحمة الله ، وليس له اختيار في استجلاب هذه النفحات ، وليس له إلا الانتظار لما يفتح الله من الرحمة ، كما فتحها على الأنبياء والأولياء بهذه الطريقة .

وإذا صدقت إرادته ، وصفت همته ، وحسنت مواظبته ، تلمع لوامع الحق في قلبه ، ويرتفع الحجاب بلطف خفي من الله تعالى ، فينكشف له الغيب ويحصل له اليقين[١] .

٧ ـ هذا النهج الذي رسمه الامام « الغزالي » لمعرفة الغيب له آثار عميقة بالنسبة للفرد ، في خاصة نفسه ، وبالنسبة للمجتمع ، وبالنسبة للدين .

ولتوضيح ذلك بعض الايضاح ، ولذكر بعض الآثار التي كانت لهذا النهج نذكر ما كتبه الدكتور « محمد إقبال » في كتابه : « تجديد التفكير الديني في الاسلام » عن الامام « الغزالي » .

يقول الدكتور « إقبال » : « على أنه لا سبيل إلى انكار أن الدعوة التي نهض لها « الغزالي » تكاد تكون دعوة للتبشير بمبدأ جديد ، مثلها في ذلك مثل الدعوة التي قام بها « كانت » في ألمانيا في القرن الثامن عشر ، ففي ألمانيا ظهر المذهب العقلي لأول عهده حليفا للدين ، ولكن سرعان ما تبين أن جانب العقيدة من الدين لا يمكن البرهنة عليه حسياً ، فكان الطريق الوحيد إذن أن تنمحي العقيدة الدينية من سجل المقدسات . وقد جاء مع

---

(١) الاحياء ص ١٣٧٧ ، ١٣٧٨ .

محو العقيدة مذهب المنفعة في فلسفة الأخلاق ، وبـذلك مكن المذهـب العقلي من سيادة الالحاد .

تلك كانت الحال في ألمانيا عندما ظهر « كانت » وكشف كتابه المذهب العقلي من قبل ، وصدق عليه القول بأنه كان أجل نعم الله على وطنه ، وإن التشكك الفلسفي الذي اصطنعه « الغزالي » ـ على تطرفه بعض الشيء ـ قد انتهى الى النتيجة نفسها في العالـم الاسلامـي ، إذ قضـى ذلك المذهـب العقلي الذي كان موضع الزهو على الرغم من ضحالته ، وهو المذهب الذي سار في نفس الاتجاه الـذي اتجـه إليه المذهـب العقلـي في ألمـانيا قبـل « كانت » .

غير أن هناك فارقا هاما بين « الغزالي » و« كانت » . فإن « كانتَ » تمشى مع مبادئه تمشيا لـم يستطع أن يثبت أن معرفة الله ممكنة . اما « الغزالـي » فعندما خاب رجاؤه في الفكر التحليلي ولى وجهه شطر الرياضـة الصـوفية وألفى فيها مكانا للدين قائما بنفسه ، وبهذه الطريقة وفق لأن جعل للدين حق الوجود مستقلا عن العلم ، وعن الفلسفة الميتافيزيقية[1] » .

---

(١) تجديد التفكر الدينى فى الاسلام ١٠ ، ١١

- ٤ -

مشكلة المعرفة والصوفية[1]

- ١ -

يتسم التـاريخ ـ سياسياً كان أو فكرياً ـ بفتـرات ، تبـدو فيهـا ، الحيوية الجارفة ، وهذه الحيوية ، تتركزفي شخص ، أو أشخـاص نابغين يلقـون بأنفسهم في مجرى الحياة الهادىء الـوديع ، فتضطـرب الحياة وتمـوج ، ويعلو موجها وينخفض ، وتصطرع القوتان ـ قوة الشعب الذي يتبع التقاليد ـ وقوة المصلحين النابغين ـ فترة تطول أو تقصر ، ثم تنحصر الأمواج وتهدأ الأمور ، فإذا بالحياة تأخذ لوناً جديداً ، وإذا بالقيم قد تغيرت ، في قليل أو كثير .

ومهما يكن من شيء ، فإن عظماء الرجال ـ على أي وضع قضوا نحبهم ـ لا يتركون هذا العالم ؛ إلا وقد تركوا أثراً لا ينمحي أبد الدهر .

وقد ينشأ النابغة ، فيجد نفسه في ميدان المعركة ، مختاراً أو مضطـراً ، وتشرع نحوه الأسنة ، وتتجـه إليه السيوف المهنـدة ، فيدافـع ويهاجـم ، ويغلب أو يغلب ، ويترك على كل حال أثراً مؤثراً .

---

(١) هذه الكلمة كتبتها بمناسبة طبع كتاب الرعاية للمحاسبي وهي ، وإن كانت قد كتبت في مناسبة خاصة . فإنها من حيث الفكرة . عامة ، فيما يتعلق بالمعرفة الصوفية .

- ٢ -

ونشأ « المحاسبي » وفي العالم الاسلامي قوتان هائلتان تصطرعان :

١ ـ أهل السنة ويمثلهم الامام « أحمد بن حنبل » .

٢ ـ « المعتزلة » ولهم ممثلوهم في البصرة ، والكوفة ، وبغداد .

وهذا الصراع بين « المعتزلة » و« أهل السنة » : صراع طبيعي ، لا يخلو من مثله دين من الأديان :

إنه الصراع الخالد بين النصيين والعقليين .

إنه النزاع الأبدي بين الذين يقولون :

إن الدين نص تفسره أسباب النزول ، واللغة ، والرواية .

والذين يقولون :

إن الدين نص : يفسره العقل ويوضحه .

ويظن بعض الناس ـ للوهلة الأولى ـ أنه لا يمكن أن يكون هناك طرف ثالث في هذه الخصومة .

فالانسان إما : نصي ، وإما عقلي . ولا يحتمل الأمر حلا ثالثاً .

- ٣ -

ونشأ « المحاسبي » ليعلن هذا الحل الثالث ، أو بتعبير أدق ، ليذكر بهذا الحل الثالث :

لقد هاجم « المعتزلة » هجوماً عنيفاً ، وألف كتاباً خاصاً في الرد عليهم ، سماه : « فهم القرآن » .

لقد رأى في نزعتهم العقلية طغياناً ، لا يتناسب ومقام العبودية ، ورأى أن نزعتهم : تحكم العقل في القرآن ، وتجعله يسيطر على النص ، ولو كان الأمر كذلك لكان القائد في الحقيقة وواقع الأمر هو : العقل ، لا الكتب المقدسة . وإذا كان المعتزلة قد خدموا الدين خدمات جليلة ، تتمثل في دفاعهم المجيد عنه . ورد هجمات أعدائه ، وتأييده منطقياً وعقلياً ، فإنه

مما لا شك فيه : أن العقل لو ترك وشأنه لا يمكنه أن يتسلل إلى عالم : « ما وراء الطبيعة » فيفسر لنا غامضه ، ويوضح لنا من أمره ما انبهم .

لا بد ـ إذن ـ أن يخضع العقل للنص .

ومذهب « المعتزلة » ـ إذن ـ لا يسير في عالم : « ما وراء الطبيعة » على النهج الصواب .

ـ ٤ ـ

هناك ـ إذن ـ إفراط وتفريط .

والعبودية الحقة ـ فيما يرى « المحاسبي » ـ : هي النهج الصحيح للوصول إلى المعرفة الحقة .

ودخل « المحاسبي » المعركة ، وسلاحه فيها : عبودية حقة : وإخلاص لا حد له ، وتقوى تغمر كل الجوارح ، ومن قبل ذلك ومن بعده : دراسة مستفيضة للدين : وسائله وغاياته ، وجزئياته وكلياته .

التقوى والعلم ـ إذن ـ كانا سلاحه في المعركة .

واحتدم النزاع ، وكان لا بد من أن يحتدم ، وثار الفقهاء على « المحاسبي » .

وكان لا بد أن يثوروا ، فقد كان « المحاسبي » ينهج في درسه نهجاً آخر غير الطريق العادي التقليدي .

كان يتحدث في الاخلاص ، وفي الورع ، وفي الزهد ، وفي الخشوع الخالص لله .

وكان يتحدث في محبة الله ، والأنس به ، والقرب منه .

وكان يتحدث في هيبته وجلاله وعظمته .

وكان حديثه عذباً ، طلقاً ، سامياً ، فكانت تخشع له الأفئدة ، وتلين له القلوب ، وتسيل له الدموع ، ويتذكر الناس ما لله من فضل ، فترق قلوبهم ويعاهدون على الاستقامة .

- ٥ -

وملأت سمعة « المحاسبي » أرجاء بغداد ، ثم عبرتها إلى جميع أرجاء المملكة الاسلامية المترامية الأطراف ، وكلما أخذت شهرته في الازدياد كلما كثر خصومه وشانئوه !!

ولكنه كان يسير في طريقه ، ثابت الخطى ، لا يعنيه سوى أن يكون الله راضياً عنه !

وتكشفت له الحجب ، وزالت عنه المساتير . ووصل إلى المعرفة الحقة فأعلن طريقها .

وطريقها ليس حساً يخطىء ، وليس عقلا يضل ، وإنما هو : بصيرة وضاءة وروح صاف .

- ٦ -

واستمرت الخصومة بين :

النصيين ، ويمثلهم الامام « المحاسبي » .

والعقليين ، ويمثلهم المعتزلة .

ومن غريب الأمر : أن أية قوة من هذه القوى ، لم تخر صريعة بل بقيت قوية ، واستمرت في كفاح ونضال ، حتى يومنا هذا .

تسلسلت فكرة « المحاسبي » ، وتمثلت خير تمثل في الامام « الغزالي » ، ثم في بقية الصوفية من بعده ، حتى كان العصر الحاضر ، فكان يمثلها في أسلوب جديد ، وتعبير صادق ، المرحوم : « الشيخ عبد الواحد يحيى » الذي توفي منذ سنوات .

وتسلسلت فكرة الامام « أحمد » ، فتمثلت في الامام : « ابن تيمية » الذي وضع لها المنطق ، وأرسى لها القواعد والأصول ، وانحرف بها إلى الشكل أكثر من الجوهر ، واستمرت قوية إلى عهدنا الحاضر ، وكان يمثلها المرحوم : « الشيخ رشيد رضا » تمثيلا قوياً

وتسلسلت فكرة المعتزلة ، راكدة حيناً ، وقوية حيناً آخر ، حتى كان جمال الدين الأفغاني ، فدفعها قوياً إلى عالم الظهور .

وكان « الشيخ محمد عبده » من أهم العوامل في نشرها . ملطفة خفيفة تكاد تخفى ، أو تكاد تلبس ثوب السلفية الأولى الأصيلة التي كانت قبل ابن تيمية والتي لا يمثلها ابن تيمية .

وحمل اللواء من بعده المرحوم : « الشيخ المراغي » والمرحوم : « الشيخ مصطفى عبد الرازق » .

وفكرة « الامام محمد عبده » تتمثل فيهما حقيقة ، لا في الشيخ رشيد رضا كما يظن كثير من الناس .

- ٧ -

لا تزال تلك القوى الثلاث تتصارع حتى عهدنا هذا ، ونعتقد أنها ستستمر ، ذلك أنها تمثل نزعات فطرية في بني الانسان .

فبعضهم : واقعي يتجه إلى النص ، ولا يريد ، أو لا يمكنه أن يسير إلى أبعد منه .

وبعضهم : يحتفظ بشخصيته قوية جارفة لا تلين ، فهو عقلي أو اعتزالي .

وبعضهم : رقيق الشعور ، مرهف الحس ، ملائكي النزعة ، فهو بصيري أو صوفي .

نزعات ثلاث تقوم على فطر مختلفة ، وهذه الفطر ستستمر في بني البشر ما دام على وجه الأرض ، أفراد من النوع الانساني ، ومن هنا كان خطأ هؤلاء الذين يحاربون التصوف ، أو الاعتزال ، أو النصيين على أمل أن يقضوا على اتجاه من هذه الاتجاهات قضاء تاماً .

وبالله التوفيق .

الفصل الخامس

قضية التصوف

- إنكار التصوف
- تحديد موطن النزاع
- المشاكل التي يراد حلها
- الحس ومشاكل ما وراء الطبيعة
- العقل ومشاكل ما وراء الطبيعة
- البصيرة ومشاكل ما وراء الطبيعة
- الطريق إلى المعرفة
- التصوف أرستقراطية
- التصوف والرهبانية
- التصوف في العصر الحديث

قضيّة التصوّف

إنكار التصوف :

إن الذين ينكرون « التصوف » ليسوا من رجال العصر الحديث فحسب . ذلك أن النزاع بين « الفقهاء » و « الصوفية » قديم قدم « التصوف » نفسه ، ورجال « الظاهر » على وجه العموم ينفرون من « الصوفية » ويحاربونهم أينما كانوا حرباً لا هوادة فيها .

والحرب قائمة أيضاً بين « الصوفية » ومن يتخذون العقل مقياساً للآراء ويرون أنه وحده الهادي إلى الرشاد .

ولم يهدأ الصراع قط بين « الصوفية » وغيرهم ـ فقهاء كانوا أو عقليين على مر الزمن :

ما هي مآخذهم على « التصوف » ؟

أولا : يرى « الفقهاء » ـ ويشاركهم في هذا الرأي كثير من الباحثين : أن « التصوف » دخيل على الاسلام : إذ ليس في الاسلام إلا التقوى ، والورع ، ونوع من الزهد يشبه أن يكون عفة أو قناعة . .

ثانياً : الأدلة على وجود الله ووحدانيته ، وقدرته وإرادته ، موجودة في القرآن الكريم ، في وضوح لا لبس فيه . فإذا ما تركناه ، وذهبنا نلتمسها في متاهات « التصوف » فإننا لا نأمن أن نضل في مجاهل الطريق .

ثالثاً : « التصوف » ليس في متناول الجميع ، فهو إذن « أرستقراطية » تتنافى مع روح الاسلام « الديمقراطية » .

ولأن « التصوف » ليس في متناول الناس جميعاً ، فهو إذن تكليف بما لا يطاق والله سبحانه لا يكلف نفساً إلا وسعها .

رابعاً : « التصوف » ضعف ، والاسلام قوة ، والله سبحانه وتعالى يقول : (وَأَعِدُّوا لَهُمْ ما اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الخَيْلِ) والجهاد باب من أبواب الاسلام لا يتلاءم مع صوم النهار وقيام الليل .

أما العقليون : فإنهم يرون أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ منحنا العقل لنهتدي به إليه ، فإذا ما احتقرناه ـ كما يفعل « الصوفية » ـ فقد احتقرنا أجل نعمة وهبها الله لنا .

ويرى « العقليون » أن العقل : هو الوسيلة الوحيدة للوصول إلى اليقين في محيط « ما وراء الطبيعة » ، وهم يبرهنون على وجود الله ـ عقلياً ـ ويرون في براهينهم غناء ودقة ، ويقيناً ووضوحاً لا لبس فيه .

وقد حث الله في القرآن على استعمال العقل ، والآيات التي تخاطب العقل وتدعو إلى استعماله كثيرة متعددة .

هذه هي أهم ما يأخذه منكرو التصوف على « التصوف » و« الصوفية » وأما ما عداها مما يتهكمون به على الأشكال ، والطقوس والعادات التي يلصقونها بـ « التصوف » وليست منه ، فإنا نضرب عنها صفحاً ، ذلك أننا نتحدث عن « التصوف » الحقيقي و « الصوفية » الحقيقيين .

تحديد موطن النزاع :

ونريد الآن أن نبين ـ في إيجاز ـ بعض ما يراه « الصوفية في هذه الاعتراضات ، لنتبين الحق في هذا الغموض والاضطراب » والخلط الذي يسود قضية « التصوف » .

إن الاستدلال على وجود الله لا يحتاج ـ في نظر الصوفية ـ إلى كد الذهن وإعمال الفكر .

كيف يتأتى أن يخفى الله ، وأن يكون من الخفاء بحيث نحاول جهدنا أن نتطلب ما يثبت وجوده من أدلة ؟

إن إثبات وجود الله ليس مشكلة في نظر « الصوفي » ، وإذن فإنه لا يؤخذ على الصوفي أنه يذهب إلى طرق خفية لينتهي من ورائها إلى الاستدلال على وجود الله . إن الصوفية يرون أن مجرد محاولة إثبات وجود الله ، إنما هي انتقاص من جلاله سبحانه ، فمتى خفي سبحانه حتى يحتاج إلى دليل يدل على وجوده ، إنه سبحانه أظهر من كل موجود .

ولكن البشرية ـ شرقية كانت أو غربية ، ومسلمة كانت أو مسيحية ، وقديمة كانت أو حديثة ـ لا تخلو من طائفة كبيرة تتطلب في إلحاح ، وفي قلق ، وفي تحمس جارف ، ما وراء إثبات وجود الله ؛ النفس الانسانية هكذا خلقت : فكلما منح الله الانسان عقلا كبيراً ، وذكاء حاداً ، ونفساً طلعة ، كان ذلك مدعاة إلى التوغل في البحث فيما وراء الطبيعة .

إن وجود الله ووحدانيته ، وكونه عالماً ، مريداً ، قادراً كل هذه مسائل هينة .

لو وقفت عندها النفوس لما كانت هناك فلسفة .

ولما كان علم الكلام .

ولما كانت الأبحاث النظرية فيما وراء الطبيعة .

ولما كان التصوف .

ولكن النفوس لم تقتصر على ذلك ، ولا يمكنها الاقتصار على ذلك ولن يتأتى لها ـ عن رغبة أو رهبة ـ أن تقتصر على ذلك ! !

المشاكل التي يراد حلها :

كيف خلق الله العالم ! أخلقه من العدم المطلق ، فكيف إذن ينتج شيء من لا شيء ؟ .

إن شيئاً من لا شيء لا يتصوره العقل ، بل إنه يحكم باستحالته .

أم خلقه من مادة كانت موجودة : فالمادة إذن قديمة ، قدم الله نفسه ، وهناك إذن قديمان : الله والمادة .

والله لا نهائي الذات : ومقتضى هذا أن لا يخرج عن ذاته مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، إنه الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو على كل

شيء ، وفي كل شيء . وبهذه النظرة يخاطب « شلي » الله ـ سبحانه وتعالى ـ فيقول :

« إن أصغر ورقة من أوراق الأشجار التي يلاعبها النسيم ليست إلا بضعة منك : (جزءاً من أجزائك) كلا ، ولا أحقر دودة تسكن القبور ، وتسمن من لحوم الموتى أقل مشاركة لك في حياتك السرمدية » .

ويقول : إن هذه الروح التي توجد في كل مكان ، بها يحيى كل موجود ، وهي هو[1] .

أحق هذا ؟ أم أن ذات الله لا تتضمن أرضاً ولا سماء ، ولا براً ولا بحراً . فهي ، إذن ، محدودة ؛ لأنها ما عدا هذا الكون .

ثم إن الله ـ زيادة على ذلك ـ لا يمكن أن يوجد في كل مكان . والله عالم .

أهو عالم بما كان على أنه كان ؟ وبما سيكون على أنه سيكون ؟ وبما هو كائن على أنه كائن ؟

أم أنه عالم بما كان ، وبما هو كائن على أنه سيكون ؟
أم أنه عالم بما هو كائن وبما سيكون على أنه كان ؟
أيسيطر الزمن على علم الله ؟
أم أن الله فوق الزمن ؟ وأنه في حاضر لا يزول ؟

ولكن كيف يتأتى لنا حقاً أن نفهم أن الله في حاضر لا يزول ؟ مع بداهة شعورنا بالماضي ، والحاضر ، والمستقبل .

والله عالم ـ كما قلنا ـ أهو عالم بذاته فحسب ، لأن علمه في شرفه وسموه وكماله ، إنما يتعلق بما يناسبه من شرف وكمال وسمو ، وليس ذلك إلا ذاته ، سبحانه وتعالى .

أم أن علم الله يتعلق بذاته ، وبالكليات ، ولا شأن له بالجزئيات . لأنها تافهة لا قيمة لها ، والله منزه عن أن يتعلق علمه بالتافه ؟

---

(١) عن مبادىء الفلسفة ، ترجمة الدكتور « احمد أمين » .

أم علم الله يتعلق بذاته ، وبالكليات ، والجزئيات ، على الرغم مما في الجزئيات من نقص وتفاهة ، ومن مناظر تشمئز منها النفس ويعافها النظر .

والله قادر : أهو قادر على كل شيء ؟ أقادر هو على الجمع بين الضدين مثلا ؟ أقادر على أن يجعل الثلاثة أكثر من العشرة ؟ والجزء أكبر من الكل ؟ أم أن هناك المستحيل بالنسبة إلى قدرة الله .

وإذا كان هناك المستحيل بالنسبة إلى قدرته ، أفيتصف إذن بالكمال ؟ أم أن قدرته تتعلق بالمستحيل ـ كما يقول علماء الكلام ـ معتقدين أنهم بذلك قد حلوا الاشكال ؟

والله مريد :

أيريد الخير والشر ؟ فلم الحساب ، والعقاب أو المثوبة إذن ؟

وكيف يريد الشر ؟ مع أن طبيعته خير محض ؟ كيف يريد الشر مع أن إرادة الشر في بني البشر تعتبر نقصاً .

وإذا لم يكن يريد الشر ، فهل يحدث الشر في هذا العالم رغماً عنه ؟
أم أنه يحدث وهو عنه راض ، وإن لم يكن له مريداً ؟
أيرضى الله عن الشر ؟ أم يكرهه ؟
إن رضاءه بالشر يتنافى مع كماله .
واذا كان يكره الشر ، فكيف يوجد مع كراهيته له ؟
أيحب الله أن يعصى ؟ أم أنه يعصى رغماً عنه ؟

وصفات الله عامة ، مطلقة ، شاملة ، لا نهائية : إنه رحمن رحمة مطلقة ، لا نهائية ورحمته وسعت كل شيء ، وهو جبار ذو جبروت لا نهائي ، ولطيف لا حد للطفه :

فكيف تنسجم الرحمة المطلقة مع الجبروت المطلق ، مع أن البداهة تقضي بأن تنفي كل صفة منها وجود الأخرى ؟ وإنه لمن الرائع حقاً : أن ما يريد أن يراه الشاعر « إسماعيل صبري » حينما خاطب الله قائلا :

ومر الوجود يشف عنك لكي أرى
غضب اللطيف ورحمة الجبار

أيمكننا أن نرى حقاً غضب اللطيف الذي لا نهاية للطفه ؟ ورحمة الجبار الذي لا نهاية لجبروته ؟

والله عفو ، وعفوه مطلق شامل : إذ إن صفاته كلها مطلقة شاملة ، فهل « اسماعيل صبري » محق اذن حينما يقول :

يا رب أين ترى تقام جهنم   للظالمين غداً وللأشرار
لم يبق عفوك في السموات العلا   والأرض شبراً خالياً للنار

وكيف يلقي الله بالمعرفة إلى رسله ، بأي لغة يخاطبهم ، وكيف ينزل « الملك » على رسول الله ، فيراه ويسمعه في حين أن من كانوا معه لا يرونه ولا يسمعونه ؟!!

ومن أين يأتي « الملك » ؟ أمن السماء ؟ ولم ؟ مع أن الله في كل مكان !

إن مشكلة الوحي ، هي الأخرى ، من المشاكل التي استنفدت الكثير من المدد .

وماذا بعد هذه الحياة ؟ أحياة أخرى جسمانية ، نأكل فيها . ونلهو ، ونلعب ونسرح ونمرح ، ونأخذ بذلك ثمن ما أديناه في حياتنا الدنيا العابرة ، من عبادة وطاعة ؟

أم أنها حياة روحانية لا صلة لها بالمادة البتة ؟
أم أنها مزيج من الحياة المادية ، والحياة الروحية ، تأتلف فيها المادة بالروح ائتلافاً منسجماً متناغماً ؟

إن الذاهبين الأولين لم يعد منهم أحد ليصف لنا الحالة في دقة دقيقة ، وفي تحديد محدد .

والقرآن يتحدث عن نعيم الآخرة وعذابها ، فيفسر قوم وصفه على أنه حسي وروحاني ، ويفسر آخرون وصفه على أنه روحاني بحت . .

وما هدف الله في إيجاد هذا العالم ! أخلقه ليعبده : (**وما خَلَقْتُ الجِنَّ والانْسَ إلاّ لِيعْبُدُونِ**) ، أم خلقه ليعرف كما قيل : « كنت كنزاً مخفياً

فخلقت الخلق فبي عرفوني ؟ » .

ان كمال الله غني عن أن يكون في حاجة إلى طاعة البشر ، وأسمى من أن يكون في حاجة إلى أن يعرف : (يا أيُّها النَّاسُ أَنْتُمُ الفقراءُ إلى اللهِ ، واللهُ هُوَ الغَنِيُّ الحميدُ) .

أخلق الله العالم اعتباطاً ، أم خلقه لحكمة ؟

إن الله يتنزه عن أن يعمل العمل اعتباطاً : (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً ؟) تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً !

والحكمة : إنما هي تعبير عن الغرض ، أو الهدف ، أو الغاية ، وذلك ينبيء عن الحاجة ، والله تعالى منزه عن الحاجة .
نعود فنتساءل : لم وجد الله العالم ؟

والشيخ « محمد عبده » يذكر بعض المشاكل التي أثارت العقل ، وجعلته ينشط إلى البحث والنظر ، وبعدها من المشابه . قال رحمه الله في رسالة التوحيد :

« جاء القرآن يصف الله بصفات ، وإن كانت أقرب إلى التنزيه مما وصف به في مخاطبات الأجيال السابقة ، فمن صفات البشر ما يشاركها في الاسم ، أو في الجنس : كالقدرة ، والاختيار ، والسمع ، والبصر .

وعزا إليه أموراً يوجد ما يشبهها في الانسان : كالاستواء على العرش ، وكالوجه ، واليدين .

ثم أفاض في القضاء السابق ، وفي الاختيار الممنوح للانسان ، وجادل الغالين من أهل المذهبين .

ثم جاء بالوعد ، والوعيد ، على الحسنات والسيئات ووكل الأمر في الثواب والعقاب إلى مشيئة الله ، وأمثال ذلك .

ويقول : وما حكاه الله من قصة آدم وعصيانه بالأكل من الشجرة فمما خفي فيه سر النهي عن الأكل والمؤاخذة عليه .

الحس ومشاكل ما وراء الطبيعة :

هذه المشاكل لم أخترعها اختراعاً ، ولم أبتدعها ابتداعاً ، وإنما هي . موجودة تصادفك في الفلسفة ، وتصادفك في علم الكلام ، وهي موجودة قديماً ، وموجودة حديثاً ، وهي بعض من كل :

كيف نصل حقيقة الى الاجابة عليها ؟ ما هو السبيل الصحيح للاطمئنان التام فيما يتعلق بشأنها ؟ هل مرد الأمر فيها الى الحواس والملاحظة ، والتجربة ، والعلم الحديث ، وما فيه من طبيعة وكيمياء ، أو من فلك وطب ؟ اللهم ، لا .

العقل ومشاكل ما وراء الطبيعة :

هل مرد ذلك الى العقل إذن ؟ أيكشف العقل حقاً عن ذلك ؟ أيصل العقل الى كشف مساتير ما وراء الطبيعة ؟ واختراق حجب ما وراء المادة والصعود الى الملأ الأعلى ؟

وعقل من ؟ أعقلي أنا ؟ أنحتكم الى عقلي وهو - فيما أرى - ناضج ؟ وسيحلها دون أن يكون مسيراً بهوى ، أو بعصبية ، أيرضى بعقلي حكماً ؟ أم تحتكم الى عقلك أنت أيها القارىء العزيز ؟ وهو فيما ترى ناضج ؟

وسيحلها دون أن يكون مسيراً بهوى أو بعصبية .

ولكن إمام « الشيعة » - بحسب نظرهم - معصوم ، وهم يلجأون اليه فيما ادلهم من الأمور ، وسوف لا يرضون بغير حكمه بديلا ، وهم ملايين عدة. أنستلهمهم الرشد في هذه المسائل ؟

ان الكاثوليك يرون أن « البابا » معصوم ، إنه على الأقل - فيما يرون - معصوم في الأمور الدينية ، ورأيه هو الفيصل في كل ما يتعلق بمسائل الدين ، أترضي آراؤه البوذيين ، أو المسلمين ، أو اليهود ؟

هل حل هذه المسائل من اختصاص أصحاب القبعات ، أم من اختصاص أصحاب العمائم ؟

أحلها محصور في السوربون ؟ أم هو من اختصاص الأزهر .

إن هذه المسائل « شغلت الرؤوس على اختلاف أنواعها : من ذوات القلانس من قدماء المصريين ، إلى حملة العمائم ، إلى لابسي القبعات السود ، إلى أرباب الضفائر ، إلى ألوف تصببت عرقاً من البحث »[1] .
إلى أي هؤلاء نلجأ في حلها ؟ لقد :

تحيرت البدو ماذا تكون   وضلت بوادي الظنون الحضر

قد تقول : إنها من اختصاص الفلاسفة ، ويجب أن نلجأ إذن إلى أهل الاختصاص .

أنلجأ إلى عقل « أفلاطون » أم إلى عقل « أرسطو » .
وهل نلجأ إلى عقل « بيكون » أم عقل « ديكارت » .
هل نلجأ إلى عقل « فيلسوف » حسي ؟ أم إلى عقل « فيلسوف » مثالي . . ؟

أم نلجأ إلى علماء الكلام ؟ وأيهم ؟ : أللنظام ، وقد كان حاد الذكاء متوقد الذهن ، صاحب منطق وجدل ؟ . إن « ابن تيمية » لا يرضى لنا ذلك « وابن تيمية » رجل واسع الاطلاع ، حاد الذكاء ؛ متوقد الذهن فهل نتبعه ؟

أم نتبع شخصية من شخصيات العصر الحديث ؟ فهل نتبع « الشيخ محمد عبده » ، أم « الشيخ عليش » ؟ إن كلا منهما رجل فاضل ، واسع الاطلاع ولكنهما لا يكادان يلتقيان في شيء من آرائهما سواء في ذلك الوسائل والأهداف ؛ فإلى عقل أيهما نحتكم ؟ . .

وبعد كل ذلك أليس رأي « كانت » هو الحكمة كل الحكمة حينما يقول : « إن عقل الانسان مركب تركيباً يؤسف له فإنه مع شغفه بالبحث في مسائل لا تدركها حواسنا ، لم يستطع أن يكشف عن معمياتها » .

أو الامام « الرازي » فإنه يقول في عجز العقل :

نهاية إقدام العقول عقال   وأكثر سعي العالمين ضلال

---

(١) عن مبادىء الفلسفة . ترجمة « الدكتور أحمد امين » .

ولـم نستفـد من بحثنـا طول عمرنا سوى أن جمعنـا فيه قيـل وقالوا

ومن كلامه الحكيم : « ولقـد تأملـت الطـرق « الـكلامية » ، والمناهـج « الفلسفية » فما رأيتها تشفي عليلا ، ولا تروي غليلا » .

ويقول في وصيته التي أملاها على تلميذه إبراهيم بن أبي بكر الأصفهاني : « ولقد اختبرت الطرق « الكلامية » والمناهج « الفلسفية » فمـا رأيت فيهـا فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن العظيم » .

والامام « الرازي » هذا ، هو الذي يقول فيه صاحب « وفيات الأعيان » : فاق أهل زمانه في علم « الكلام » و « المعقولات » وعلم « الأوائل » .

وليس « كانت » وليس « الرازي » إلا مثلين من أمثلـة عديدة تتلاقـى في النهاية مع الشاعر الرقيق « إسماعيل صبري » فترجو من الله ما يرجو حينما يلجأ إليه قائلا :

يا رب أهلني لفضلك واكفني شطط العقول وفتنة الأفكار

ومع ذلك فهذه المشاكل تقض مضاجع كثيرين من ذوي الاحساس الديني المرهف ، وتؤرق أعينهم ، وتشغلهـم ـ مصبحين ممسين ـ ومثلهم في ذلك مثل « إبراهيم » ـ عليه السلام ـ إذ قال .

(رَبِّ أرِنِي كَيْفَ تُحْيِي المَوْتَى ؟

قَالَ : أوَ لَمْ تُؤْمِنْ ؟

قالَ : بَلَى ، وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي . .)

فما هي الوسيلة التي يروون عن طريقهـا غلتهـم ، وتشفـي صدورهـم ، وتطمئن قلوبهم .

إن الدين لـم يتعرض لهذه المشاكل ، والحس لا يصل الى حلها ، والعقل بموازينه ومقاييسه وقواعده : عاجز كل العجز كما رأينا سابقاً عن الوصول الى حلها ، وليس أدل على عجزه من التجربة الواضحة لكل ذي عينين : ان

الفلسفة منذ عهد سقراط تتخبط وتتعثر ، وتتضارب وتتناقض ، وتحل وتعقد ، ولا تصل ألبتة الى نتيجة حاسمة في أية مسألة من مسائل ما وراء الطبيعة الشائكة .

وعلم الكلام مختلف مضطرب ، يحارب بعضه بعضاً ، ويكفر رجاله بعضهم البعض :

إلامَ نتجه اذن ؟

إننا اذا نفضنا أيدينا من الحس ، فذلك لأننا لم نجد فيه غناء فيما وراء الطبيعة ، واذا أعرضنا عن العقل ، فليس ذلك احتقاراً له ، لأننا نستعمله معترفين بفضله في ميدانه الخاص به ، وانما كان إعراضنا عنه فيما وراء الطبيعة لأننا لا نريد أن نقحمه في غير دائرة اختصاصه .

نعود : فنقول إلامَ نتجه ؟ إن الأمر ليس بهين ! ! وتكشف الطريق الصواب ليس من السهولة بمكان .

البصيرة ومشاكل ما وراء الطبيعة :

ولكننا إذا ما لجأنا إلى الله نستلهمه الخير ونستهديه طريق الرشاد .
وإذا ما توجهنا إلى القرآن نسترشده فيما ادلهم وخفي ، فماذا نجد ؟

نجد أن القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، يرشد في مواطن عدة ، إلى نوع من المعرفة ، ليس طريقه الحس ؛ وليس طريقه العقل ، ولا يستمد صراحة من الكتب المقدسة ، ذلك النوع في أبسط صورة وأعمها وأشملها هو الرؤيا . فالقرآن يحدثنا في سورة يوسف عن عدة رؤى :

(إذْ قالَ يوسفُ لأبيهِ : يا أبتِ ، إنـي رأيتُ أحـدَ عشـرَ كوكبـاً ، والشَّمْسَ والقمرَ رأيتهم لي ساجدين) .

ويعتقد والده في رؤياه ، ويؤمن بها ، ويسدي إليه النصيحة .

(يا بُنَيَّ ، لا تَقْصُصْ رؤياكَ على إخوتِكَ فَيَكيدوا لكَ كيدا) .

وحينما سجن العزيز يوسف (وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فتيانِ .
قالَ أحَدُهما : إني أراني أعصِرُ خَمراً .
وقالَ الآخرُ : إني أراني أحملُ فوقَ رأسي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ) .

وذهبا إلى يوسف واستنبآه الأمر ، وطلبا إليه مستعطفين .

« نَبِّئْنـا بتأويلـهِ إنّـا نراكَ مِنَ المحسـنين » ونبأهمـا يوسف بتـأويل الرؤى . .
ولا تقتصر السورة على ذكر ذلك :

(وقالَ الملكُ إني أرى سَبْعَ بقراتٍ سمانٍ ، يأكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجـافٌ ، وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خضرٍ ، وأُخَرَ يابساتٍ ، يا أيُّها الملأ أفتوني في رؤيايَ إنْ كنتم للرؤيا تَعْبُرونَ) .

ويفسر « يوسف » تلك الرؤى ، فيرى أن نفس « الملك » تكشف لها المستقبل ، ورأت الغيب المحجوب ، وعبرت عنه في صورة رمزية ، ويعبر « يوسف » الرمز فيقول : (تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً ، فَما حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ في سُنْبُلِهِ إلاّ قليلاً مِمّا تَأْكُلُونَ .

ثُمَّ يأتي مِنْ بَعْدِ ذلكَ سبعٌ شدادٌ يَأْكُلْنَ ما قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إلاّ قليلاً مِمّا تُحْصِنُونَ .

ثُمَّ يأتي مِنْ بَعْدِ ذلكَ عامٌ فيهِ يُغاثُ النّاسُ وفيهِ يَعْصِرُونَ » .

ولما اجتمع شمل « يوسف » بأبيه وإخوته وخر له إخوته سجداً .

ذكر « يوسف » أباه برؤياه السابقة وقال : (يا أبتِ هذا تأويلُ رؤياي مِنْ قبلُ قَدْ جَعَلَها ربّي حقاً) .

والحديث الشريف يذكر أن الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة .

ليست الرؤيا معرفة حسية ، وليست معرفة عقلية ، وليست معرفة مصدرها الكتب المقدسة .

ولكن « قد قرب الله تعالى على خلقه بأن أعطاهم أنموذجاً من خاصية النبوة ، وهو النوم ، إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب ، إما صريحاً ، وإما في كسوة مثال يكشف عنه التعبير . وهذا لو لم يجربه الانسان من نفسه . وقيل له : إن من الناس من يسقط مغشياً عليه . كالميت ، ويزول عنه إحساسه وسمعه وبصره . فيدرك الغيب ـ لأنكر ، وأقام البرهان على استحالته ، وقال : القوى الحساسة سبب الادراك ، فمن لا يدرك الأشياء مع وجودها وحضورها ، فبأن لا يدركها مع ركودها ، أولى وأحق .

وهذا نوع قياس يكذبه الوجود والمشاهدة[1] .

والنبوة ، هي الأخرى ليست معرفة حسية ، وليست معرفة عقلية ، إنها ليست تجربة ، وليست منطقاً ، ليست استقراء ناقصاً ، أو تاماً ، وليست قياساً من الشكل الأول ، أو الرابع ، ولكنها وحي من الله .

(١) الغزالي في المنقذ من الضلال .

والقرآن غاص بهذا النمط من المعرفة الالهية . إنه غاص بذكر الأنبياء والرسل الذين كلمهم الله وحياً ، أو من وراء حجاب ، أو بإرسال الرسل إليهم ، أعني الملائكة .

والقرآن يحدثنا أيضاً في أسلوب قصصي طريف شائق عن العبد الصالح الذي أخذ سيدنا « موسى » في البحث عنه جهده ، حتى وجده وأبدى رغبته في اصطحابه ومرافقته ، فقال له العبد الصالح :

(إنَّكَ لَنْ تَسْتطِيعَ معي صَبْراً) .

وألح « موسى »
وقبل العبد الصالح ـ في النهاية ـ على شروط اشترطها .
ولم يكن فيها رفيقاً « بموسى » أو عطوفا عليه . . .

وسارا فأخذ العبد الصالح يأتي بأعمال لا تنسجم مع العاطفة ، ولا مع المنطق ، ولا مع العقل ، ولا مع القانون .

ولم يكن موسى ليحتمل الصبر على ما يرى ، دون تفسير له وتعليل .

وكان من أول شروط العبد الصالح عليه ، ألا يسأله عن شيء ، ولم يجد « موسى » إلى الصبر سبيلا ، ولم يجد العبد الصالح ـ وقد أخل موسى بالشرط ـ مناصاً من أن يعلنها صريحة واضحة ، (هذا فراق بيني وبينِكَ) والقصة كلها حرية بأن تذكر بأسلوب القرآن الطريف الشائق :

(وَإِذْ قَالَ موسَى لِفَتَاهُ : لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ البَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً . فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا ، فَاتَّخَذَا سَبِيلَه في البَحْرِ سَرَباً . فَلَمَّا جاوزَا قَالَ لفتاهُ .
آتِنَا غداءَنَا ، لقد لقِينَا مِن سَفَرِنا هَذا نَصَباً .

قالَ : أَرَأَيتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلى الصَّخْرَةِ ، فإنِّي نَسِيتُ الحوتَ ، وَمَا أَنسانيه إلا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكرَهُ ، وَاتخذَ سَبِيلَهُ في البَحرِ عَجَباً .

قَال : ذلكَ ما كُنَّا نَبْغِ ، فارْتَدَّا على آثارِهما قَصَصاً ، فوجدا عَبْداً مِنْ عِبَادِنا آتيناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلماً .

قالَ له موسى : هَلْ أَتَّبِعُكَ على أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ؟

قالَ : إنَّكَ لن تستطيعَ مَعِيَ صَبْراً ،وكَيْفَ تَصْبِرُ على ما لَمْ تُحِطْ به خبْراً !!!

قالَ : ستَجِدُني إن شاءَ اللهُ صابراً ولا أَعْصي لكَ أمراً .

قالَ : فإنِ اتَّبَعْتني فلا تَسْألني عَنْ شيءٍ حتى أحْدِثَ لكَ مِنْهُ ذِكْراً .

فانْطَلَقا حتى إذا ركِبا في السَّفِينةِ خَرَقَهَا

قالَ : أخرَقْتَها لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا !! لقد جِئْتَ شيئاً إِمْراً !!

قالَ : أَلَمْ أَقُلْ : إنَّك لَنْ تستطيعَ معي صَبراً ؟

قالَ : لا تُؤَاخِذْني بما نَسِيتُ ولا تُرهِقْني من أَمْري عُسْراً .

فَانْطَلَقا حتى إذا لَقِيَا غُلاماً فَقَتَلَهُ .

قالَ : أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْر نَفْسٍ ، لقدْ جِئْتَ شيئاً نُكْراً .

قالَ : أَلَمْ أَقُلْ لك ، إنَّكَ لنْ تستطيعَ مَعِيَ صبراً ؟

قالَ : إنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شيءٍ بَعْدَهَا فلا تُصَاحبني ، قد بلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً .

فَانطلقا حتى إذا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا ، فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُما ، فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يريدُ أَن يَنقَضّ فَأَقامَهُ .

قالَ : لو شئْتَ لتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً .

قالَ : هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بتـأويلِ ما لَمْ تَسْتَطِـعْ عليهِ صبراً .

أَمَّا السَّفِينَةُ فكانَتْ لِمساكِينَ يَعْمَلونَ في البَحْرِ فَأَرَدْتُ أَن أَعِيبَهَا ، وكان وَرَاءَهُمْ ملكٌ يأخذُ كُلَّ سفينةٍ غَصْباً .

وأما الغلامُ فكان أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْن فخشينا أن يُرْهِقَهما طُغْيَاناً وكُفْـراً ، فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهما خيراً منه زكاةً وأَقْرَب رُحْماً .

وأَمَّا الجدارُ ، فكانَ لغلامَين يَتِيمَيْنِ في المدينَةِ ، وكانَ تَحْتَهُ كنـزٌ لهما ، وكان أبوهُما صالحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغا أشُدَّهُما ، وَيَسْتخرجـا كَنْزَهُما ، رَحْمةً من رَبِّكَ ، وما فَعَلْتُهُ عَنْ أمري ، ذلكَ تأويلُ ما لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صبراً)[1] .

هناك إذن طريق للمعرفة ، غير الحس وغير العقل :
ما السبيل إليه ؟

---

(١) سورة « الكهف » ٦٠ ـ ٨٢ .

الطريق إلى المعرفة :

إن تجارب الصالحين ، منذ عصور متطاولة ، دلت على أن تزكية النفس ، وتطهيرها والالتجاء إلى الله ، والتقرب إليه ، كل ذلك يسمو بالانسان إلى عالم من الروحانية تستشرف فيه النفس إلى الملأ الأعلى ، فتفيض عليها منه نفحات ، وإلهامات ، ومعرفة لاتتأتى لذوي النفوس المادية ، الذين شغلوا بالدنيا عن الدين ، وبالمادة عن الله .

طريق البصيرة طريق صواب :

ولكن الكثيرين يشكون في هذا الطريق ـ طريق البصيرة ، الذي سبيله التزكي والتطهر ـ الموصل إلى المعرفة ، ويرون أنه أسطورة من الأساطير أو خرافة من الخرافات ، ويطلبون في إلحاح الاستدلال على أن هذا الطريق صحيح .

ويرون أن النبوة والرسالة ، والعبد الصالح ، كل هذه أمور خارقة للعادة ، أرادها الله فكان ما اراد ، ولكن ليس هناك من دليل على أن غيرهم من البشر يستطيعون أن يصلوا إلى معرفة إلهامية ، فما الدليل إذن على ان التصوف وسيلة من وسائل المعرفة ؟ .

إلى هؤلاء نقول ما قاله الشيخ « عبد الواحد يحيى » لأمثالهم من المعترضين . قاله في ساحة « السربون » لأساتذة الجامعة . وعلماء باريس ، حينما دعوه ليحاضرهم في « ما وراء الطبيعة » .

« سيتساءل قوم : أمن الممكن أن نتخطى الطبيعة ، فنصل إلى ما وراءها ؟

إننا لا نتردد في أن نجيبهم في وضوح واضح : ليس ذلك ممكناً فحسب ، ولكن ذلك واقع موجود .

سيقولون : تلك قضية تفتقر إلى برهان :

ولكن أي برهان يمكن أن يقدمه الانسان على وقوع هذا الأمر ووجوده ؟ إنه لمن الغريب حقاً أن يطلب البرهان على إمكان نوع من المعرفة ، بدلا من أن يحاول الانسان أن يصل إليها بتجربته الشخصية ، سالكاً إليها ما

تتطلبه من سبل .

إن الشخص الذي وصل إلى هذه المعرفة لا يعنيه ـ في قليل أو كثير ـ ما يثور حولها من جدل ونقاش .

وإنه لمن البين الواضح أن إحلال « نظرية المعرفة » محل « المعرفة » نفسها إعلان صريح على عجز الفلسفة الحديثة » ا هـ .

وهذا الرأي نفسه هو ما يراه كثير من كبار المفكرين في كل عصر :
إنه رأي « الفارابي » ، ورأي « ابن سينا » ، ورأي الشيخ « محمد عبده » .
يقول الأستاذ الامام في رسالة التوحيد .

« أما أرباب النفوس العالية ، والعقول السامية ، من العرفاء ، ممن لم تدن مراتبهم من مراتب الأنبياء ، ولكنهم رضوا أن يكونوا لهم أولياء ، وعلى شرعهم ودعوتهم أمناء ، فكثير منهم نال حظه من الأنس بما يقارب تلك الحال : « حال الاتصال » في النوع أو الجنس ، لهم مشارفة في بعض أحوالهم ، على شيء من عالم الغيب ، ولهم مشاهد صحيحة في عالم « المثال » لا تنكر عليهم لتحقق حقائقها في الواقع ، فهم لذلك لا يستبعدون شيئاً مما يحدث به عن الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ ومن ذاق عرف ، ومن حرم انحرف .

ودليل صحة ما يتحدثون به وعنه : ظهور الأثر الصالح منهم ، وسلامة أعمالهم ، مما يخالف شرائع أنبيائهم ، وطهارة فطرهم ، مما ينكره العقل الصحيح ، أو يمجه الذوق السليم ، وانتفاعهم بباعث من الحق الناطق في سرائرهم ، المتلألىء في بصائرهم ، إلى دعوة من يحف بهم إلى ما فيه خير العامة ، وترويح قلوب الخاصة .

ولا يخلو العالم من متشبهين بهم ، ولكن ما أسرع ما ينكشف حالهم ، ويسوء مآلهم ، ومآل من غرروا به ، ولا يكون لهم إلا سوء الأثر في تضليل العقول ، وفساد الأخلاق ، وانحطاط شأن القوم الذين رزئوا بهم ، إلا أن

يتداركهم الله بلطفه ، فتكون كلمتهم الخبيثة : كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار[1] » .

(١) رسالة « الشيخ محمد عبده » في التوحيد ط صبيح ص ٦١ - ٧٠

التصوف أرستقراطية :

مما سبق نتبين : أن « الصوفية يرون أن الحس وسيلة إلى المعرفة ، له ميدانه .

وأن العقل وسيلة إلى المعرفة ، له ميدانه هو أيضاً .

والبصيرة ـ التي سبيلها تزكية النفس ـ وسيلة إلى المعرفة ، لها ميدانها .

ولا صلة لتزكية النفس بالعاطفة و « الصوفية » أقل الناس ، تأثراً بالعواطف ، على خلاف ما هو مشهور عادة ، وإذا استعملوا أحياناً كلمة القلب ، فلا يعنون بها ما يتصل من قرب أو من بعد بالعاطفة .

وتزكية النفس طريق صعب المرتقى ، وتركيز الانتباه في الله ـ وهو المقصود بـ « الذكر » وعر المسلك ، ولذلك كان طريق التصوف طريقاً خاصاً لا يمكن سلوكه إلا لطائفة قليلة من الناس ، وإذا نظرنا إلى الشروط التي يجب توافرها في السالك ، علمنا أن النفوس الجديرة بسلوك هذا الطريق من الندرة بمكان .

ومن هنا يعترض خصوم التصوف قائلين :
« التصوف » إذن : « أرستقراطية » .

وهذا اعتراض لا قيمة له : فـ « التصوف » حقاً « أرستقراطية » .

وطبيعة الأمور تأبى إلا أن يكون « أرستقراطية » ؛ إنه نظام الصفوة المختارة ، إنه نظام هؤلاء الذين وهبهم الله حساً مرهفاً ، وذكاء حاداً ، وفطرة روحانية ، وصفاء يكاد يقرب من صفاء « الملائكة » ، وطبيعة تكاد تكون مخلوقة من النور .

الديمقراطية أسطورة :

وإذا كانت « الديمقراطية » معناها التساوي في كل شيء ، فهي أسطورة من الأساطير : فالتساوي لا يوجد في عالم الطبيعة ، بحال من الأحوال : إنه لا يوجد بين الحيوانات في الغاب ، ولا يوجد بين بني آدم في المدن أو في القرى .

إن الله لم يسو بين الناس في ألوانهم ، ولا في قوتهم الجسمانية ، ولا في ذكائهم ، ولا في دهائهم ومكرهم ، ولا في أرزاقهم وحظوظهم . . ونظام « الطبقات » الذي يسود في « الهند » ، والذي ننتقده ونشنع عليه ، إنما هو النظام الواقع فعلا في جميع أقطار الأرض .

و « الروس » الذين بلغت « الديمقراطية » عندهم حد الفوضى ، فيهم الرئيس والمرؤوس ، والسائد بذكائه وقوته . والمسود بغبائه وضعفه .

و « الانجليز » فيهم « الملك » و « الأمراء » و « النبلاء » ، وفيهم « عامة الشعب » .

و « أفلاطون » ؛ وهو « فيلسوف » نابه ، قسم جمهوريته المثالية إلى « طبقات » وذلك بحسب استعداد كل طائفة من الطوائف : ففي « جمهوريته » : طائفة « الانتاج » وهي الطائفة ذات « المعدة » الشرهة ، والشهوات الغلابة .

وطائفة (الجند) ذات العاطفة القوية .

وطائفة « القادة » معدن العقل والحكمة ، والبصيرة ، والاشراق .

التصوف نهج الخاصة :

« التصوف » « أرستقراطية » وهو في ذلك منسجم مع طبيعة الأمور :

وعلى هذا لا يمكن أن يوجه إلى « التصوف » الاعتراض الرخيص ، الذي يقول : لو شمل « التصوف » كل الناس ، لفسد العالم : ذلك أن الناس جميعاً لا يمكن أن يصبحوا متصوفين ، فطبيعتهم تأبى ذلك ، وأئمة « التصوف » يعلمون ـ حق العلم ـ أنه لا يمكن أن يطلب من طائفة الانتاج : طائفة المعدة والشهوة ، أن ينهجوا نهج السادة المختارين : معدن الصفاء والحكمة .

الناس معادن ـ على حد تعبير الرسول ﷺ ـ : ومعادنهم ثابتة لا تتغير فـ « خيارهم في الجاهلية ، خيارهم في الاسلام ، إذا فقهوا » إن فيهم المعدن الذهبي وفيهم المعدن الفضي ، وفيهم غير ذلك .

ويصور الشيخ « محمد عبده » ذلك خير تصوير ، فيقول في رسالة التوحيد :

« مما شهدت به البديهة ، أن درجات العقول متفاوتة : يعلو بعضها بعضاً ، وأن الأدنى منها لا يدرك ما عليه الأعلى ، إلا على وجه من الاجمال ، وأن ذلك ليس لتفاوت المراتب في التعليم فقط ، بل لا بد معه من التفاوت في الفطر التي لا مدخل فيها لاختيار الانسان وكسبه ولا شبهة في أن من النظريات : عند بعض العقلاء ما هو بديهي عند من هو أرقى منه . ولا تزال المراتب ترتقي في ذلك إلى ما لا يحصره العد ، وأن من أرباب الهمم وكبار النفوس من يرى البعيد عن صغارها قريباً ، فيسعى إليه ، ثم يدركه ، والناس دونه ينكرون بدايته ويعجبون لنهايته ، ثم يألفون ما صار اليه ، كأنه من المعروف الذي لا ينازع ، والظاهر الذي لا يجاحد ، فإذا أنكره ثاروا عليه ثورتهم بادىء الأمر على من دعاهم إليه ، ولا يزال هذا الصنف من الناس على قلته ، ظاهراً في كل أمة إلى اليوم »[1] .

والله سبحانه يذكر تمايز الناس فيما ينعم عليهم به ، ويبين أن منهم

---

(١) رسالة التوحيد (للشيخ محمد عبده) ط صبيح ص ٦٧

الأنبياء ، ومنهم الصديقون ، ومنهم الشهداء الخ . قال تعالى :

(وَمَنْ يُطِعِ اللهَ والرَّسولَ فأولئكَ مَعَ الذينَ أنعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ : من النَّبِيِّينَ ، والصِّدِّيقينَ ، والشُّهداءِ والصالحينَ ، وَحَسُنَ أولئكَ رفيقاً . ذلك الفضلُ مِنَ اللهِ ، وكفى باللهِ عليماً[1]) .

لا يدعو « الصوفية » إلى أن يكون الناس جميعاً متصوفين : و« جل جناب الحق ، عن أن يكون شرعة لكل وارد ، أو أن يطلع عليه إلا الواحد بعد الواحد » .

إن أهل الحق نادرون ، وهذه فكرة بديهية ، لا تحتاج إلى الاستفاضة ، بيد أن « الصوفية » : إذا كانوا لا يدعون الناس جميعاً إلى « التصوف » فإنهم يعملون جهدهم للوصول إلى مجتمع أسمى ، إنهم يريدون أن يسود بين جنبات المجتمع جو من الروحانية ، والرحمة ، والمحبة ، يجعل الناس إخواناً متعاونين ، متكاتفين .

---

(١) سورة النساء ٦٩ ، ٧٠ .

تفاوت الناس في فهم الدين :

أما الاعتراض : بأنه إذا كان الاسلام الحق هو « التصوف » فالاسلام إذن دين طائفة محدودة ، لا يتيسر لكل إنسان : فهو اعتراض لا ينسجم مع النزعة العامة عند « الصوفية » .

إن « الصوفية » لا يكفرون من عداهم ، إنهم يرون أن طائفة الانتاج ناحية .

ونحن جميعاً نعلم أن التحقق بالاسلام ليس بدرجة واحدة ، عند جميع الناس : إن إيمان « أبي بكر » ـ رضوان الله عليه ـ ليس كإيمان غيره والرسول ، صلى الله عليه وسلم ، يمثل تفاوت الطبائع في الاسترشاد فيقول :

« إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم ، كمثل غيث أصاب أرضاً ، فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير .

وكان منها أجادب أمسكت الماء ، فنفع الله تعالى بها الناس فشربوا منها وسقوا ، وزرعوا .

وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان : لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ .

فذلك مثل من فقه في دين الله تعالى ، ونفعه ما بعثني الله تعالى به ، فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به .

التصوف قوة :

والتصوف قوة : ذلك أن نفوس « الصوفية » هينة : عندهم في سبيل الله ؛ يبذلونها عن رضى لاعلاء كلمة الله ، فهم الذين جشموا أنفسهم المشاق لنشر الاسلام بين ربوع أفريقيا ، وأقطارها ، التي لم تفتحها الجيوش الاسلامية .

وقد كان لهم الفضل الأكبر في نشر الاسلام في « أندونيسيا » وغيرها من الأقطار النائية .

وكانوا ينشرونه بالقدوة الطيبة ، والخلق الكريم ، أكثر مما ينشرونه بالدعاية التي قد لا تجدي .

وكان الكثير منهم من المرابطين ، ومعروف أن المرابط هو ذلك الشخص الذي يعيش على الحدود الاسلامية : مكرساً حياته لصد غارة الأعداء .

والعبادة والروحانية ، والزهد والورع ، كل ذلك ليس من مظاهر الضعف وإنما هو قوة .

يقول « ابن سينا » عن الصوفي « العارف الشجاع » وكيف لا وهو بمعزل عن تقية الموت .

« التصوف » روحانية ، والروحانية قوة ، ولا يتمارى في ذلك اثنان .

التصوف ليس دخيلا على الاسلام :

أما أن « التصوف » دخيل على الاسلام ، فيكفينا في الرد على ذلك أن نذكر ثلاثة آراء ، أولها : للشيخ « عبد الواحد يحيى » ، وهو فيلسوف مسلم صوفي .

والثاني : للمستشرق الشهير الأستاذ « ماسينيون » الذي يعتبر أعظم باحث في « التصوف » بين المستشرقين في العصر الحاضر :

والثالث لصاحب كتاب « التبصير في الدين » وهو معني أشد عناية بالرد على كل من يخالف مذهب أهل السنة :

ومؤلفه هو : (الامام الكامل ، الفقيه الأصولي المفسر) « الاسفراييني » .

ويرى الشيخ « عبد الواحد » أن « التصوف » يكون جزءاً جوهرياً من الدين الاسلامي ، إذ ان الدين يكون ناقصاً بدونه ، بل يكون ناقصاً من جهته السامية ، أعني جهة المركز الأساسي ، لذلك كانت فروضاً رخيصة ، تلك التي تذهب بـ « الصوفية » إلى أصل أجنبي ؛ « يوناني » أو « هندي » أو فارسي ؛ وهي معارضة بالمصطلحات « الصوفية » نفسها ، تلك المصطلحات التي ترتبط باللغة العربية ارتباطاً وثيقاً :

وإذا كان هناك من تشابه بين « الصوفية » وما يماثلها في البيئات الأخرى ، فتفسير هذا طبيعي ، لا يحتاج إلى فرض « الاستعارة » ؛ ذلك أنه ما دامت الحقيقة واحدة فإن كل العقائد السلبية تتحد في جوهرها ، وإن اختلفت فيما تلبسه من صور[1] .

ويقول الأستاذ (ماسينيون) : وقد بين (نيكولسون) أن إطلاق الحكم بأن التصوف دخيل في الاسلام غير مقبول .

والحق أننا نلاحظ منذ ظهور الاسلام أن الأنظار التي اختص بها

---

(١) انظر كتاب . « الفيلسوف المسلم » : مكتبة الأنجلو المصرية .

« متصوفة » المسلمين « نشأت في قلب الجماعة الاسلامية نفسها أثناء عكوف المسلمين على تلاوة القرآن ، والحديث وتقرئهما وتأثرت بما أصاب هذه الجماعة من أحداث ، وما حل بالأفراد من نوازل » .

ويذكر صاحب كتاب « التبصير في الدين » ما يمتاز به « أهل السنة » عن غيرهم من « الخوارج » ، و « الروافض » ، و « القدرية » ، فيذكر أن سادس ما امتاز به « أهل السنة » هو :

علم « التصوف » ، و « الاشارات » وما لهم فيها من الدقائق والحقائق ، لم يكن قط لأحد من « أهل البدعة » فيه حظ ، بل كانوا محرومين مما فيه : من الراحة والحلاوة والسكينة والطمأنينة .

وقد ذكر « أبو عبد الرحمن السلمي » من مشايخهم قريباً من ألف ، وجمع إشاراتهم ، وأحاديثهم ، ولم يوجد في جملتهم قط من ينسب إلى شيء من بدع « القدرية » و « الروافض » و « الخوارج » .

وكيف يتصور فيهم من هؤلاء ، وكلامهم يدور على التسليم والتفويض ، والتبري من النفس ؛ والتوحيد بالخلق والمشيئة .

وأهل البدع ينسبون الفعل ، والمشيئة ، والخلق والتقدير إلى أنفسهم ، وذلك بمعزل عما عليه أهل الحقائق من التسليم والتوحيد[1] » .

---

(١) التبصير في الدين . (لأبي المظفر الاسفراييني) المتوفى سنة ٤١٧ هـ . ط السيد عزت العطار ١١٨ .

تعليل الاقبال على دراسة التصوف في العصر الحاضر .

التصوف في العصر الحديث :

لقد كان أتباع « فولتير » في القرن الثامن عشر ، وأنصار « رينان» في القرن التاسع عشر يسخرون ممن يتجه إلى دراسة « التصوف » وكان تأثيرهما من القوة بحيث كان الناس ـ شرقيون وغربيون ـ منصرفين عن هذا الميدان ، مقبلين على العلم الحديث ، معتقدين أنه سيحل كل مشكلة في الطبيعة ، وفيما وراءها ولكن الناس ـ الآن ـ معنيون بالدراسة الصوفية ، فما الذي غير اتجاههم ؟ إننا ندع الأستاذ الكبير « عباس محمود العقاد » يفسر لنا ذلك بأسلوبه الرصين .

« ما الذي غير اتجاه العقل الانساني في القرن التاسع عشر ؟

الذي غيره هو العلم نفسه ، لأنه عرف حدوده وكفكف من غروره ، فهو اليوم يدعي ـ ويتواضع كثيراً في دعواه ـ يدعي أنه يصف ما يحس ولا يزيد .

لا نريد أن نقول : إن العلم أخفق في تعزية الانسان وتعمير قلبه وضميره كلا بل نريد أكثر من ذلك . نريد أنه أخفق في دعواه الوحيدة التي كان خليقاً أن ينجح فيها ، لأن أصحابه كانوا يسمونه بالعلم « المادي » وهو اليوم لا يعلم من المادة إلا أنها حركة مجهولة في فضاء مجهول .

نعم كل مادة تتركب من ذرات ، وكل ذرة تنفلق فتصبح شعاعاً ، وكل شعاع هو حركة في « الأثير » . . . وما « الأثير » ؟ . . . شيء كلا شيء ، وليست له حدود ، ولا أوصاف ، ولا مقادير يعرفها العلماء .

فالعلم المادي لا يعرف المادة إلا في هذه الحدود ، ومن الأدب إذن أن يتواضع كثيراً ، فلا يحتكر المعرفة ، ولا ينكر على غيره أن يحاولوها حيث استطاعوا ، وهذا هو الجديد على العلم الحديث انه لا يعلم كل شيء ، لأنه مقيد بالحواس . واذا كانت الحواس لا تعلم جميع الأشياء ، فهل يعلمها الفكر ؟

كلا ـ أيضاً ـ لأن الفكر محدود ككل شيء في الانسان .

فلا بد للمعرفة من وسيلة أخرى مع وسائل الحس ، ووسائل التفكير .

لا بد لها من البصيرة ، أو من البديهة ، أو من الالهام .

وذلك هو مجال التصوف ، أو مجال الدين . فهذه هي المعرفة التي يتعاون عليها الحس ، والفكر ، والالهام [1] » ا . هـ .

***

أما بعد : فأرجو أن يكون الحق استبان فيما بين الصوفية وغيرهم من نزاع ، واني لعلى يقين من أن نظرة الانصاف تزيل ما في نفوس خصومهم من حدة : فيتلاقى الجميع ـ في رحاب المودة ، التي يدعو إليها الصوفية ـ إخواناً في الله متحابين .

وبالله التوفيق

---

(١) حديث للأستاذ العقاد في الاذاعة المصرية .

محتويات الكتاب

القسم الأول

القسم الثاني

المنقذ من الضلال : لحجة الاسلام الغزالي

القسم الثالث

أبحاث في التصوف

الفصل الأول

الفصل الثاني

التصوف والمعرفة

الفصل الثالث

التصوف والشريعة

الفصل الرابع

التصوف والمعرفة

الفصل الخامس

قضية التصوف

من مؤلفات الدكتور عبد الحليم محمود

(في إحياء المفاهيم الاسلامية)

* القرآن والنبي صلى الله عليه وسلم
* الاسلام والايمان
* (أ) العبادة أحكام وأسرار (الذكر ـ الدعاء ـ الصلاة)
* (ب) العبادة أحكام وأسرار (الزكاة ، الصيام ، الحج ، الجهاد)

(قضية التصوف)

١ ـ المنقذ من الضلال

٢ ـ المدرسة الشاذلية

٣ ـ غيث المواهب في جزءين

٤ ـ عوارف المعارف

٥ ـ الرسالة القشيرية في جزءين

(بالاشتراك مع الدكتور محمود بن الشريف)

التوحيد الخالص أو الاسلام والعقل

أستاذ السائرين

الطريق إلى الله أو كتاب الصدق (للخراز)

فلسفة ابن طفيل ورسالته

التفكير الفلسفي في الاسلام

أوربا والاسلام

وازن الأرواح عن أندريه موروا

محمد رسول الله

عبد الله بن المبارك

إبراهيم بن أدهم

LES OEUVRES COMPLETES DU DR

THE COMPLETE WORKS OF DR

A.H. MAHMOUD

TOME VIII

VOLUME VIII



DAR AL KITAB ALLUBNANI
BEYROUTH